سلسلة وزارة الأوقاف التنويرية

فقه الأزمة

الإسلام بين المفاهيم والمصطلحات

الجزء الثالث

١- خارطة طريق العمل الدعوي والإرشادي من خلال المنظومة الفكرية العلمية في خطاب السيد الرئيس الدكتور بشار الأسد لصياغة وبناء الوطن والأمة في ضوء الفهم الصحيح للإسلام الحقيقي "دراسة تحليلية".

٢- محاولات زرع الفتنة الطائفية في سورية ... متى وكيف ولماذا ؟.

٣- الحركة التكفيرية الوهابية "نقد وتحليل" .

٤- الإخوان المسلمون "النشأة والحقائق" ج٢ .

٥- الإخوان المسلمون "النشأة والحقائق" ج٣ .

٦- المواطنة في الإسلام "مفهومها ومقوماتها" .

٧- التكفيريون والجهاد المعاصر "قراءة نقدية في المفهوم والإصلاح" .

٨-الخطاب الإسلامي والتجديد "أطوار وتحولات".

مقدمة الكتاب

الحمد لله ربِّ العالمين ، وأفضل الصَّلاةِ وأتمُّ التَّسليم على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

قال الله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِين} [فصلت: ٣٣] . وقال الله عز وجل أيضاً: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِين} [يوسف: ١٠٨] .

فقد وضع الإسلام لمنهج الدَّعوة وسائل تُعينُ على أداء الواجب تجاه الوطن والدِّين ، وإننا – جميعاً – مُتَّفقون على أن بلادنا تَمُرُّ بمرحلة مَصيريَّة ، وإنَّ هناك رَغبة جَامِحَة من الغرب في تَدمير

مُقدَّرات البلاد ، وإذلال أبنائه ، وجعله رهينة للمخطَّطات والأهداف الصُّهيونيَّة والأمريكيَّة في العالم .

والإسلام بِخِطَابه المعتدل ومفهومه الشَّامل هو الذي يُقدِّم للأمَّة الإسلاميَّة الفكر السَّويَّ الذي يُمثِّلُ رُوحها ويصوغُ وُجدانها ويستنهضُ هِمم أبنائِها ، وَيُوقِظُ فِيها الطَّاقة المحرِّكة القادرة على الإبداع والعطاء .

وَمِن أهمِّ الأسباب التي تُوصِلُنا إلى هذا الفكر وهذا المنهج ، العمل على توجيه أفراد الأمَّة توجيهاً واعياً سليماً ، وذلك مِن خلال فعاليَّات الخطباء على منابرهم ، والمدرِّسين الدِّينيِّين في مساجدهم ، والأكاديميِّين في جامعاتهم ومعاهدهم ...

ومما لا شكَّ فِيهِ أن الدَّعوة الإسلاميَّة بمراحلها جميعاً تحتاج إلى رجال مُؤَهَّلين عِلميَّاً وخُلقيَّاً لحملها وتبليغها على وجهها الصَّحيح ، وَتحتاج إلى دُعاة يَفهمون الإسلام فَهماً سَليماً ويَسْعَونَ في إيصاله إلى أبناء هذه الأمَّة بَعيداً عن التَّشويه والتَّحريف والتَّزييف والفهم الخاطئ ، مُنسجماً مع طبيعة العَصر الذي نعيش ، الممتلئ – كما نعلم – بالفتن الجسام .

كما أن الدُّعاة مُحتاجون إلى فَهمِ وَاقعِ أُمَّتهم وظروف عصرهم فَهماً لا غُموضَ فِيه ولا تحريف ، وبعدها يَتَلَمَّسونَ الحلول المناسبة للمشكلات الطَّارئة بما يَتلاءم مع منهج القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة والفهم الصَّحيح لنصوصهما .

فالواجب الشَّرعي يَتطلَّبُ مِنَّا اليَوم تَضافر جهود المؤسَّسات والقوى الدِّينيَّة التَّابعة لوزارة الأوقاف وغيرها من الوزارات ، من: ثانويَّات شرعيَّة ، ومعاهد متوسطة وعليا ، ومُجمَّعات دينيَّة ، وكليَّات شريعة في الجامعات السُّوريَّة . بالإضافة إلى جُهود القائمين بالشَّعائر الدِّينيَّة ؛ مِن خطباء مساجد ، ومدرِّسين دينيِّن ومفتين ، ومن فعاليَّات أخرى كالتَّدريس الدِّيني النِّسائي ، والتَّوجيه والإرشاد ... ، وذلك بهدف إطلاق حَملة إِنقاذٍ لِلفكر الإسلامي من محاولات الفكر الظَّلامي ، والتَّركيز على تصحيح المفاهيم وتوضيح حقيقة الدِّين من خلال هذه المؤسَّسات ؛ لِنَكون نَموذجاً يُحتذى في العالم العربيّ والإسلاميّ باعتبار دمشق عاصمة الحضارة الإسلاميَّة .

وعلى ضوء ما سَبق مِن مَعانٍ وأفكارٍ ، واستمراراً للسَّير قُدُماً على منهج التَّصَدِّي للفكر المنحرف والمتشدِّد ، وللتَّيَّارات الفكريَّة الضَّالَّة المُضِلَّة ، ومن ضَرورة تَلاحم الجُّهود ، ولِمّ

الشَّمل ورأبِ الصَّدع في الجسد الواحد ، ودعماً للفكر الدِّيني المعتدل ، وللوحدة الوطنيَّة التي نَعَمَت بها سوريَّة عقوداً طويلة من الزَّمن على رغم كلِّ ما يُحاك ضدَّها من مؤامرات ، وما تَتعرَّض له من فتن مُرَادُ أصحابِهَا – ومن يَسعون فِيها – تدمير كيان سوريّة ، أرضاً ، وبنية تحتيَّة ، وشعباً .

وانطلاقاً من أن الفكر الدِّيني المعتدل البنَّاء الْمُخلص هو البلسم الوحيد للجروح العميقة التي أصابت مجتمعنا وكادت تمزِّقه ، وهو القادر على جعل سوريَّة أقوى سياسيَّاً واجتماعيَّاً وثقافيَّاً وأخلاقيَّاً .

وبعد تَنَامِي فِتنة التَّكفير التي تجتاح العالم الإسلامي بِرُمَّته من شرقه إلى غربه ، حاصدة أرواح آلاف الأبرياء ، في تجاوزٍ صَريحٍ لِكل القيم الإنسانيَّة ، وانتهاك فاضح لكل الحرمات ، وتشويه غير مسبوق لصفاء الصُّورة الإسلاميَّة ، **هذه الفتنة التي يَقودها أصحاب الفكر الوهَّابيّ لم تَطحن في تاريخها القديم والحديث إلا رِقَابَ المسلمين في اليمن والعراق والجزائر ومصر والشَّام وغيرها** ، **إنّه فِكرٌ يُؤسِّس** لإباحة ذبح الأبرياء ، ولقتل عشوائي ، ولتفجيراتٍ بسيَّارات مُفخَّخة ، وشبَّان انتحاريّين يَذهبون إلى الموت وهم يَظنُّون أنهم ذاهبون إلى الفردوس الأعلى مباشرة ، مع مُباركة وفتاوى شرعيَّة من علماء تَزيدُ مِن عَزمهم وتسوّغُ إرهابهم وتُحَفِّزُ الآخرين على سلوك النَّهج الذي سَلكَهُ الانتحاريُّون نفسه ، وما الذي حَصل في دول كثيرة كالعراق والجزائر ومصر وأفغانستان ، وكان آخرها بلدنا سوريَّة ، إلا من هذا القبيل .

لهذا ، فإنَّ علماء القطر العربيّ السُّوريّ والقائمين بالشَّعائر الدِّينيَّة تنادوا إلى العناية بقضايا ومسائل ومحاور غاية في الأهمِيَّة ، وإلى تهيئة المناخ الملائم لإيصالها إلى أبناء الوطن بصورتها الحقيقيَّة ، وفهمها الذي يَتَّسِقُ مع الفهم السَّليم لأحكام الإسلام ، لِمَا لِهذه القضايا من أثرٍ كَبيرٍ في إعادة الاستقرار إلى ربوع بلدنا الحبيب .

وكان مِن نَتَاجِ هذا التَّوجُّه للسَّادة العلماء في سوريَّة أن شُكِّلت اللَّجنةُ العِلميَّة الفقهيَّة في وزارة الأوقاف ، ومِن أبرزِ مَهامِّها وضع الخُطَطِ الكفيلة بالارتقاء بالمستوى الفكري والدِّيني

لأبناء الوطن بما في ذلك المحافظة على الفكر الوسطي لفهم الإسلام بَعيداً عن التَّطرُّف والغلو والتَّفريق ، وبما يُعَزِّز الوحدة الوطنيَّة الرَّائدة في سوريَّة .

بالإضافة إلى تأليف بُحوث علميَّة فقهيَّة وفكريَّة إثرائيَّة ، ودراسات مُتخصِّصَةٍ حَول أفكار ومحاور دينيَّة تُؤكدُ وَسطيَّة الإسلام واعتداله ، وتَنبذ التَّشدُّد والتَّطرُّف والتَّكفير ، وستكون تلك البحوث والدِّراسات مَنهجاً عِلميَّاً مَعرفيَّاً ومَرجِعَاً فِقهيَّاً وفِكريَّاً يَتزوَّدُ مِنه الخطيب والمدرِّس الدِّيني في خُطَبِه ودروسه .

وكان باكورة أعمال هذه اللَّجنة إصدار سلسلة فقه الأزمة التي أطلقنا عليها اسم (السلسلة التَّنويريَّة – الإسلام بين المصطلحات والمفاهيم).

وممَّا ركَّزت عليه هذه السلسلة:

* بيان حقيقة الفكر التَّكفيري وأصحابه الَّذين يَعملون في الصُّفوف الخلفيَّة ، ويظهر عملهم هذا في عمليَّات التَّفجير والقتل الجماعيّ ، واضعين العصابات في الواجهة ، داعمين لها من الخلف .

* اتِّخاذُ الوسطيَّة والاعتدال في الطَّرح مِنهاجاً للدَّاعية إلى الله عزَّ وجل ، وذلك من خلال خطبه ودروسه ، وابتعاده عن التَّعصُّب للرَّأي .

* الدَّعوة إلى التَّسامح والتَّواصل ، واحترام الرأي الآخر ، والاعتراف بالخطأ والرجوع عنه بشجاعة وصراحة ، والتَّرحيب بنصح النَّاصحين ، وإحسان الظَّنّ بالآخرين .

* الانطلاق من أنَّ باب الحوار في الإسلام مَفتوح للجميع – ومع الجميع – من أجل مصلحة الوطنِ واستقلاله الشَّعبِ وأمانه ، ومرادُ الجميع الوصول إلى الحقّ وإشاعة وجوه الخير ، بَعيداً عن المصالح والأهواء التي تُؤدِّي إلى النِّزاع والفرقة ، قال الله تعالى: {ولا تَنَازعُوا فَتَفشَلوا وتَذْهَبَ رِيْحُكُم} [الأنفال: ٤٦] .

* تضافر الجَّهود للتَّمسُّك بالدِّين السَّمح بعيداً عن الغلوّ والتَّشدُّد والفكر التَّكفيريّ الذي لا جدوى منه ، ولا يَكون معه إلا المزيد والمزيد من القتل والتَّدمير بين أبناء الدِّين الواحد والوطن الواحد .

* بيان حقيقة فريضة الجهاد في الإسلام ، وكشف المفاهيم المنحرفة والمصطلحات المزيَّفة التي أطلقها الْمُغرضون تحت مسمَّى الجهاد ، وهي أبعد ما تكون عن الجهاد وعن الإسلام في شيء .

* وجوه الشبه بين أفكار التَّكفير القديمة وأفكار التَّكفير الحديثة وقرب بعضها من بعضها الآخر قائمة ومتكررة وثابتة ، وإن تَباينت في الإخراج والعبارة ، والسبب في ذلك أنَّ التَّكفير واحد في النوع ، وإن اختلف في التَّفاصيل .

* التَّحذير من الفساد والإفساد في الأرض ، وأثر منع حدوثهما في المحافظة على مُقدَّرات البلاد الاقتصاديَّة والتَّنمويَّة والبيئيَّة والثَّقافيَّة والتَّعليميَّة ، فهذه المقدَّرات ملك للجميع ، وإن تدميرها أو تعطيلها إرباك لحياتنا ، وتَضييق حقيقيّ علينا ، ومسؤوليَّة ذلك تقع على عاتقنا ، وهذا من التَّعاون على البرِّ والتَّقوى الذي أمرنا الله تعالى به .

* تأكيد مبدأ المصالحة والمناصحة والمصارحة بين المختلفين ، قال الله تعالى: {وَالصُّلْحُ خَيْرٌ} [النساء: ١٢٨] ، وقال الله عز وجل أيضاً: {فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِين} [الأنفال:١] وقال رسول الله ﷺ: (الخلق كلُّهم عيالُ الله ، فأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله)[1] .

* منهجيَّة الاحتكام في القضايا المختلف فيها إلى أهل العلم الموثوق بإيمانهم وعدالتهم ووسطيَّتهم ورسوخهم في العلم لبيان حكم الشَّرع فيها في ضوء نصوص القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة ومقاصد الشَّريعة ومبادئها العامَّة ، **وتوعية النَّاس إلى ضرورة عدم الالتفات إلى الفتاوى الشَّاذَّة والتَّكفيريَّة ((فتاوى القتل والإرهاب))** .

* أهميَّة الانطلاق في الخطاب الدِّيني من مقاصد الشَّريعة الإسلاميَّة المتمثِّلة بقواعد كثيرة من أهمِّها قاعدة درء المفاسد وجلب المصالح ، والقواعد الخاصَّة بمراعاة الأولويَّات .

* بيان حقيقة الحرب الرَّعناء التي أعلنتها إسرائيل على سوريَّة ، وجنَّدت لها بالوكالة عبيدها الأقربين وخدَّامها الأباعد القابعين وراء البحار ، وعلى رَأسهم الفكر الوهَّابيّ التَّكفيريّ .

* **أهميَّة بيان حقيقة الدَّعوات المغرضة الهدَّامة التي تدعو إلى تَدخُّل أجنبي سافر** ودائم في شؤون بلادنا الدَّاخليَّة ، والتي تجرُّ الويلات والدَّمار ، وتجعل من سوريَّة مسرحاً لأغراض وأطماع عدوانيَّة استعماريَّة لا نجني من ورائها إلا المزيد من سفك الدِّماء البريئة ، مما ينعكس سلباً على العمل الدَّعويّ والدِّينيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ وسائر جوانب الحياة .

---

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ، برقم: (١٠٠٣٣) .

* بيان أن سلسلة التَّآمر على أرض الشَّام عموماً وسوريَّة خصوصاً مستمرَّة ، ولكن بأشكال قبيحة متنوِّعة .

* أهميَّة عدم استغلال الخطاب الدِّينيّ لخدمة اتِّجاهات سياسيَّة شخصيَّة ، أو فئويَّة انتمائيَّة .

* الانتباه إلى أن خطاب الدُّعاة أداة فاعلة في تعميق معنى الأخوَّة والوحدة بين أبناء الوطن الواحد .

* تعزيز روح الانتماء إلى الوطن ، والدِّفاع عن ثوابته وهويَّته العربيَّة .

راجين المولى عزَّ وجل أن يهيئ لهذه الأمَّة أمر رشدٍ وعزَّةٍ ومنعة ، وأن يكشف عنها الغُمَّة ، ويُفَرِّج الكَرب ، ويعيد نعمة الأمن والأمان إلى ربوع بلادنا الحبيبة عاجلاً غير آجل ، وأن يوفِّقنا إلى ما يُحبُّ ويرضى ، إنَّه على ما يشاء قدير.

والحمد لله رب العالمين

دمشق في يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول ١٤٣٥هـ

الموافق ١٣ كانون الثاني ٢٠١٤م

اللَّجنة العلميَّة الفقهيَّة في وزارة الأوقاف

خارطة طريق العمل الدعوي والإرشادي من خلال المنظومة الفكرية العلمية في خطاب السيد الرئيس بشار الأسد لصياغة وبناء الوطن والأمة في ضوء الفهم الصحيح للإسلام الحقيقي

"دراسة تحليلية"

المحتوى

بين يدي البحث ...

محاور المنظومة الفكرية ...

عرض المحاور مع مقتطفات من المنظومة الفكرية للسيد الرئيس ...

الدراسة التحليلية لمحاور المنظومة الفكرية ...

خاتمة البحث ...

بين يدي البحث

انطلاقاً من قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِين﴾ [فصلت: ٣٣] وقوله أيضاً: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِين﴾ [يوسف: ١٠٨] وقوله أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيماً﴾ [الأحزاب:٧٠ – ٧١].

وفي ظلِّ ما مرَّت به البلاد من مؤامرات حاقدة متلاحقة على مدى عقود من الزمن، كان الفصل الأخير منها يَستهدف كيانها وفكرها، حيث بَدت رغبةٌ حقيقيةٌ وجامحةٌ في هذه المرحلة التاريخيَّة

والمصيريَّة من قِبَل الغرب والشَّرق لتدمير مقدَّرات البلاد وإذلال أبنائها، وجعلها رهينة للمخطَّطات الاستعمارية الجديدة والأهداف الصُّهيونيَّة والأمريكيَّة في هذا الجزء المهم من العالم.

ومن خلال الدور الإيجابي الكبير للسادة العلماء والدعاة والداعيات في الأزمة، والذي كان حصناً لأبناء الأمة عبر دروسهم وخطبهم وفكرهم النَيِّر.

وتقديراً لصمود المؤسسات الدينية من المعاهد والثانويات الشرعية ومعهد الشام العالي وكلية الشريعة في وجه المؤامرة وعدم الاكتراث بالتهديدات الآثمة.

ومن أهمية الاستمرار في مواجهة الفكر التَّكفيري الظلاميّ وأصحابه الذين تمَّ استئجارهم من قبل الغرب المتصهين لزرع الفتنة في صفوف الأمة، وبث الطائفية البغيضة من خلال ما يقومون به من أعمال التَّفجير والقتل الجماعيّ وغيره.

ومن ضرورة فهم الإسلام الفهم الصحيح المبنيَّ على التدبُّر للقرآن الكريم والسنة الصحيحة الذي هو مفتاح الحلول الناجعة لكلّ ما تُعانيه الأمة العربية الإسلامية اليوم.

انطلاقاً من كل ما سبق:

ألقى السيد الرئيس الدكتور بشار الأسد مُحاضرةً نوعيَّةً كانت بحقٍّ "منظومة موسوعيَّة فكريَّة علميَّة" بِحُضور حشدٍ كبيرٍ من السَّادة العلماء والدعاة والدَّاعيات من أنحاء القطر العربي السوريّ.

تميَّزت هذه المنظومة الفكرية بالتشخيص الدقيق لآلام الأمة العربية الإسلامية، وما تُعانيه على الصعيد الداخلي من الخَلَل الكبير الحاصل بين أبنائها، والصعيد الخارجي المتمثّل بالمؤامرات الهدامة من الغرب الذي فَقَدَ الموضوعيَّةَ التي ينادي بها زوراً وبهتاناً، والتي تَصُبُّ في جِهةٍ واحدةٍ هي الحرب على الإسلام.

وأعطت هذه المنظومة الفِكرية الحلول الناجعة لصمود هذه الأمة، وإعادة بنائها بناءً سليماً مُعافىً في ضوء الفهم الصحيح لحقيقة الإسلام، فكانت خارطة طريق للعمل الدعوي والإرشادي.

محاور المنظومة الفكرية

ويمكن أن نتناول هذه المنظومة بالدراسة والتحليل من خلال المحاور التالية:

المحور الأول: الفتنة الطائفية صنيعةُ الغرب، هدفُها تفتيتُ الأمة وإغراقُها في بحر من الدماء، وعلاج الطائفية البغيضة يكون بالفهم الصحيح للدّين.

المحور الثاني: حربُ المصطلحات وخَطرُها على الأمة، وأهميةُ تدقيق مصطلحاتنا في الحفاظ على العقيدة والدِّين والوطن.

المحور الثالث: الإسلام السياسي وخطرُه على الأمَّة، وسقوطُهُ أكبرُ خدمةٍ للإسلام الدعوي، "نحن مسلمون ولسنا إسلاميين".

المحور الرابع: فقه الأزمة في مواجهة فقه الفتنة.

المحور الخامس: الدعوة إلى عدم تسطيح العقل البشري في فهم القرآن الكريم، والعودةُ للتمسُّك بالقرآن الكريم عقلاً وعلماً وفهماً وسلوكاً وأخلاقاً.

المحور السادس: أهمُّ أسباب الأزمة التي نعيشها اليوم غيابُ الأخلاق.

المحور السابع: التركيز على السُّلُوك من خلال سيرة الرسول ﷺ وأقواله وأفعاله.

المحور الثامن: الحفاظ على وحدة البلاد ومقدراتها واجبٌ دينيٌّ وطنيٌّ، والتخريبُ والتدميرُ قام به أعداء الدِّين والوطن.

المحور التاسع: الوحدة الوطنية أساسٌ في صمود المجتمع السوري في مواجهة أعدائه.

المحور العاشر: دَورُ المنبر وأهميَّتُهُ في توعية المجتمع.

المحور الحادي عشر: أهمية الحوار الموضوعي في الوصول إلى الحقائق.

المحور الثاني عشر: العروبةُ والإسلام ركيزتان أساسيتان لأمن المجتمع العربي والإسلامي ووحدتِه، والفصلُ بينهما مؤامرةٌ خسيسة.

المحور الثالث عشر: الأسرة هي الخلية الأساسية في المجتمع، وصلاحُها صلاحٌ للأمة، والوطنُ والدولةُ الأبُ والأمُّ الرحيمان بأبنائهما.

المحور الرابع عشر: المدارس والمعاهد الشرعية حُصُون الدِّين والوطن.

المحور الخامس عشر: دورُ بلاد الشام في حماية الإسلام.

المحور السادس عشر: الدور الإيجابي الكبير للسادة العلماء والدعاة والداعيات في الأزمة، وصمودهم في مواجهة التحديات التي تعرضوا لها، وخصوصاً محاربة الفكر الظلامي التكفيري.

عرض المحاور مع مقتطفات من المنظومة الفكرية للسيد الرئيس

ونعرض فيما يلي هذه المحاور مع مقتطفات من كلمات السيد الرئيس في منظومته الفكرية قبل البدء بتحليلها وتأصيلها ودراستها:

المحور الأول: الفتنة الطائفية صنيعةُ الغرب، هدفُها تفتيتُ الأمة وإغراقُها في بحر من الدماء، وعلاج الطائفية البغيضة يكون بالفهم الصحيح للدِّين.

"الساحةُ التي اختارها الخصومُ والأعداء لنا في سورية هي ساحة الصراع الديني بداية، وكانت عناوين هذه الساحة من البداية عناوينُ طائفيَّة، ولا يُمكن أن نُحارب الطائفية إلا من خلال الدِّين الصحيح".

"إنَّ هذه الأزمة رسَّخَتْ لنا موقع الاعتدال، وبالرَّغْم من الطَّرْح الطائفيِّ والتحريض من الخارج فإنَّ الاعتدال أصبح أقوى في المجتمع السوري".

"لا يُمكن أن نُحارب الطائفية إلاّ من خلال الدِّين الصحيح، هذه الطائفية كان لها هدفان: الهدف الأول: تفتيتُ سورية وإضعافُها وجرُّها إلى بحر من الدماء، والهدف الثاني: هو تفتيت الإسلام".

من المنظومة الفكرية للسيد الرئيس.

المحور الثاني: حربُ المصطلحات وخطرُها على الأمة، وأهميةُ تدقيق مصطلحاتنا في الحفاظ على العقيدة والدِّين والوطن:

"لا شكَّ بأننا في الأمة الإسلامية تَعرضنا إلى حرب خطيرة جداً ترتبط بموضوع المصطلحات، بكلِّ أسف جزءٌ من هذه المصطلحات لم نُنْتِجْها، والأسوأُ من ذلك أنَّ الجزء الآخر منها نحن أنتجناه، لكنَّ مضمون هذه المصطلحات حُوِّر من قبل الغرب، وأعيد إنتاجُهُ بشكل آخر وأرسل إلينا، لماذا المصطلحات؟ لأنهم يُريدون ضرب العقيدة، وضَربُ العقيدة يَبدأ بالمصطلحات".

"عندما نَخسر المصطلح نخسر العقيدة، وعندما نخسر العقيدة نخسر الثقافة، ونخسرُ معها الأخلاق والاقتصاد والسياسة والمجتمع، ونخسر كلَّ شيء، وعندما نخسر العقيدة نخسر قضايانا، وهذا أحد أسباب تخلُّفِ الأمة الإسلامية".

من المنظومة الفكرية للسيد الرئيس.

المحور الثالث: الإسلام السياسي وخطُرُه على الأمَّة، وسقوطُهُ أكبرُ خدمةٍ للإسلام الدعوي، "نحن مسلمون ولسنا إسلاميين":

"الآفة الأخرى التي أصابتنا في العالم الإسلامي هي آفة الإسلام السياسي، عندما نقول: إسلامٌ سياسيٌّ نكون قد ربطنا بين شيئين لا يُمكن أن يرتبطا، الإسلام شيءٌ إلهيٌّ، والسياسة شيءٌ بشريٌّ، الإسلام أتى من أجل كلِّ البشر، أما السياسة فتخدم شخصاً أو فئة من الأشخاص، الإسلام أتى لأجلٍ طويلٍ، طولُهُ بطول بقاء البشرية على الأرض، والسياسةُ مُحددةٌ بزمن محدَّد، الإسلام أتى بالصفاء لأنه صافٍ لا يُمثِّل مصالح مُحددة، أما السياسة فتتبع الأهواء والنزوات والأخطاء البشرية".

"إنَّ سُقوط مَا يُسمَّى الإسلام السياسي هو انتصارٌ للإسلام الحقيقيِّ وقيمه الصادقة".

"سقوط الإسلام السياسي هو خدمةٌ للدِّين، واستعادةُ الإسلام لموقعه الطبيعي، وعودته لعمله الدعويِّ".

من المنظومة الفكرية للسيد الرئيس.

المحور الرابع: فقه الأزمة في مواجهة فقه الفتنة:

"فقه الأزمة هو مواجهةٌ لفقه الفتنة، فنحن واجهنا في البداية فقه الفتنة، ولم يَكن لدينا أدوات فكرية، اعتمدنا على حسن النية، اعتمدنا على الفكر الموجود لدى كلِّ رجلٍ من رجال الدين أو لكل عالمٍ وكل داعيةٍ في سورية، لكن لم يكن لدينا فقهٌ بالمعنى الشامل لمواجهة هذه الفتنة، فكان اليوم فقه الأزمة هو مواجهة لفقه الفتنة، والشيءُ الجيد أنه ليس من إنتاج الدولة، هو إنتاج علماء

الدين الموجودين في هذه القاعة، وهو إنجازٌ وطنيٌّ، وليس فقط على المستوى الشرعيِّ؛ لأنه سيحمي البلد".

من المنظومة الفكرية للسيد الرئيس.

المحور الخامس: الدعوةُ إلى عدم تسطيح العقل البشري في فهم القرآن الكريم، والعودةُ للتمسُّك بالقرآن الكريم عقلاً وعلماً وفهماً وسلوكاً وأخلاقاً:

"إذا فهمنا كلَّ الدين وكلَّ الأحاديث، وقرأنا كلَّ كتب الفقه والتفسير والسيرة وغيرها، ولم نفهم القرآن بشكل صحيح وعميق فنحن لم نفهم شيئاً من الإسلام".

"إنها مشكلةٌ عامةٌ تتمثَّل في تسطيح العقل في فهم القرآن الكريم، القرآن: نسميه القرآن الكريم، لماذا لم نسمِّه القرآن العظيم؟ هو كلام الله، وهو عظيمٌ بشكل بدهيّ، ولكننا نقول: كريم لأنه يُعطي بدون حدود، ويعطي لمن هو قادرٌ على العطاء".

"نقطة القوة في القرآن هي العمق الكبير، وهذا العمق يحتاج إلى عقولٍ تستطيع أن تستخرج، فأولُ آيةٍ كانت ﴿اقرأ﴾، اقرأ لنبيٍّ غير قارئ، إذاً يَقرأ بالعقل، فأولُ شيءٍ كان مطلوباً هو العقل".

"نحن سطحنا القرآن بقراءتنا له، وبالتالي تسطَّحَ معه كلُّ الدِّين، وأنتجنا إمَّا التغرُّب أو التطرُّف".

من المنظومة الفكرية للسيد الرئيس.

المحور السادس: أهمُّ أسباب الأزمة التي نعيشها اليوم غيابُ الأخلاق:

"عندما نفصل الدِّين عن الأخلاق فمعناه أننا نمارس كلَّ الشعائر، ولا نمارسُ أي شيءٍ من أخلاقيات الدِّين، وإنَّ جوهر الدِّين هو الأخلاق".

"ومن أهم أسباب الأزمة التي نعيشها اليوم غيابُ الأخلاق، وعدم الربط بينها وبين الممارسة الدينية، وهي من أهم المشاكل التي تنبغي إيجادُ الحلول لها".

من المنظومة الفكرية للسيد الرئيس.

المحور السابع: التركيز على السُّلُوك من خلال سيرة الرسول ﷺ وأقواله وأفعاله:

"موضوعُ ربطِ القرآن والحديث بسلوك الرسول ﷺ هذا الجانب نحن مقصّرون جداً بشأنه، لأنَّ المتطرِّفينَ والمنحرفينَ من أصحاب النوايا الجيدة أو السيئة تَمكّنوا من تحريف تفسير القرآن وهو

أقدسُ شيء، فمن يتمكنُ من تحريف تفسير القرآن من السَّهل عليه أن يُحرّف أيَّ شيء آخر، كالحديث وأيِّ تفسيرٍ وأيِّ كلام آخر، لكنْ هناك شيءٌ قويٌّ جداً يَختصر مَضمون القرآن والحديث، هو سلوك الرسول ﷺ".

"معظم الطلاب والشباب والصغار يحفظون الآيات والأحاديث ولا يفهمونها، ولكنَّ سلوك الرسول ﷺ سيفهمونه، وسيكون مدخلاً لفهم الآيات والأحاديث، ومن جانبٍ آخر عندما لا ندرس السلوك لا يكون لدينا قدوةٌ، فنحن نتحدث عن القرآن ونطبق كلّ ما في القرآن وما في الحديث، ولا نقلِّدُ بسلوكنا الرسول ﷺ، هذا كلامٌ متناقضﷺ.

من المنظومة الفكرية للسيد الرئيس.

المحور الثامن: الحفاظ على وحدة البلاد ومقدراتها واجبٌ دينيٌّ وطنيٌّ، والتخريبُ والتَّدْميرُ قام به أعداء الدِّين والوطن:

"إنَّ الأزمة أظهرت بشكل واضح من هم الأعداءُ الحقيقيون للدِّين، ومن قام بالقتل، ومن قام بالتخريب ، ومن قام بقطع الرؤوس، ومن قام بحرق دور العبادة والمساجد والكنائس وغيرها".

من المنظومة الفكرية للسيد الرئيس.

المحور التاسع: الوحدة الوطنية أساسٌ في صمود المجتمع السوري في مواجهة أعدائه:

"إما أن نكون أعضاءً لجسدٍ واحدٍ أو لا نكون، إما أن تكون هذه هي الوطنية أو لا تكون".

"يجب أن نتوحد ونحترم الرموز حتى لو اختلفنا معها".

"إذا اختلفنا نُبقِي هذا الاختلاف فلا مانع، مَنْ يقبلُ الحوار نتحاورُ معه، ومَنْ لا يقبلُ الحوار لا نتحاور معه، ولكن لا يجوز أن يكون هناك فتنة".

من المنظومة الفكرية للسيد الرئيس.

المحور العاشر: دور المنبر وأهميَّتُهُ في توعية المجتمع:

"المنبر –أيها السادة والسيدات– هو منبرٌ عامّ، ليس مكاناً خاصاً، هو ليس مكاناً للشيخ، ولا يجوز له أن يَستخدم المنبر من أجل مزاجه وأفكاره الشخصية، ولو عن حسن نية ... هذه المنابر ليست دينية فقط ولا شرعية، هي منابر وطنية، فلا بُدَّ من تنظيم قواعد للمنبر".

من المنظومة الفكرية للسيد الرئيس.

المحور الحادي عشر: أهمية الحوار الموضوعي البنّاء في الوصول إلى الحقائق:

"العقل هو الأساس، والعقل لا يمكن أن ينشأ من دون حوار، العقل هو الذي يقنع الناس ... يجب أن نستخدم الحوار بهذه الطريقة المنفتحة، لأننا لا نستهدف المؤمن، بل نستهدف قليل الإيمان، نستهدف مضطرب الإيمان، نستهدف المتردّد في إيمانه، نستهدف الْمُلْحِد، ونستهدف الْمُعادِي للدِّين، هؤلاء مَنْ علينا أن نستقطبهم".

من المنظومة الفكرية للسيد الرئيس.

المحور الثاني عشر: العروبةُ والإسلامُ ركيزتان أساسيتان لأمن المجتمع العربي والإسلامي ووحدتِه، والفصلُ بينهما مؤامرةٌ خسيسة:

"لا يمكن الفصل بين فكرة العروبة وفكرة الإسلام، وقد تُمكَّن أعداؤنا عبر عُقُودٍ من القيام بذلك، فأصبح هناك شارعان منفصلان، وعندما يَحصل انفصالٌ بين العروبة والإسلام فمعناه أنّ هناك عدَم استقرارٍ في المجتمع نفسياً واجتماعياً، وبالتالي عدم استقرار من الناحية الأمنية".

"القاعدتان الأساسيتان في الساحة العربية هما العروبة والإسلام، وبالنسبة للغرب إذا ضرب هاتين القاعدتين تكون الأمور مفتوحة لها بالدخول والسيطرة على هذه المجتمعات".

"كيف يُمكن الفصل بين العروبة والإسلام؟!! كيف يُمكن الفصل بين عروبة الرسول وإسلام الرسول ﷺ؟!! كم مَرةً تباهى رسول الله ﷺ بانتمائه؟ مراتٍ كثيرة".

من المنظومة الفكرية للسيد الرئيس.

المحور الثالث عشر: الأسرة هي الخلية الأساسية في المجتمع، وصلاحُها صَلاحٌ للأمة، والوطنُ والدولةُ الأبُ والأمُّ الرحيمان بأبنائهما:

"هناك عِدَّة آياتٍ وعِدَّة أحاديثَ تُؤَكِّد على مفهوم العائلة، والعلاقة بين الأبناء والآباء خاصة، وضرورة طاعتهما، والطاعةُ واجبةٌ في كل شيء ما عدا معصية الله عزَّ وجلَّ".

"الأسرة هي الوحدة الأساسية، فإذا تخربت فكل التعاليم الأخرى المرتبطة بالإسلام لا يُمكن أن تُنطبق، لأنَّ الوحدة الأساسية بالمجتمع تخرَّبَتْ، وهذا يَعني أنَّ المجتمع تخرَّب، فعليك أن تبقي احترامك لوالديك وتحافظ على هذه العائلة".

"الدولة بالنسبة لنا هي كالأب والأم، إذا انهارت الدولة يَنهارُ معها المجتمع بالمفاهيم الحديثة، يجب أن نفهم هذه الحقيقة".

من المنظومة الفكرية للسيد الرئيس.

المحور الرابع عشر: المدارسُ والمعاهدُ الشرعية حُصُونُ الدِّين والوطن:

"كثيرٌ من المواطنين أصبحوا يُدركون أنَّ أحد أسباب التطرف الذي كان يُعتقد في بداية الأزمة أنّها بسبب الدِّين ورجال الدِّين والمدارس الشرعية والعمل الدينيّ بشكل عام أصبحوا يُدركون أنَّ سَبَبَها غيابُ الدِّين، وليس العكس".

"اليوم لدينا كليات شريعة، ولدينا معهد الشام للعلوم الشرعية، ولدينا المدارس الشرعية، يعني لدينا بُنَى، لا بُدَّ من مأسسة العمل بينها، فلدينا مرجعيّة تُحدِّد العمل الديني وإطار العمل الدين".

من المنظومة الفكرية للسيد الرئيس.

المحور الخامس عشر: دورُ بلاد الشام في حماية الإسلام:

"هذا الصراعُ هو صراعٌ تاريخي، ولن نَسمح لهم لا سياسياً ولا دينياً بالسيطرة علينا، دينُ بلاد الشام هو الأساس، هو الذي يقوم بحماية الإسلام الحقيقيّ".

من المنظومة الفكرية للسيد الرئيس.

المحور السادس عشر: الدور الإيجابي الكبير للسادة العلماء والدعاة والداعيات في الأزمة، وصمودهم في مواجهة التحديات التي تعرضوا لها، وخصوصاً الفكر الظلامي التكفيري:

"حمى الله سورية بهذا الشعب، وبأمثالكم من رجال الدين ومن العلماء، وبأمثالكنَّ من الداعيات، بصبركم، بمصداقيتكم، بأخلاقكم".

"هذا الصمود للسادة العلماء كان أساسياً في صمود الشعب وصمود البلد بشكل عام، وهذا ليس مستغرباً، فالسمةُ العامةُ لأدائكم خلال الأزمة كان الوعي والشجاعة الوطنية والإيمان، وهذا هو الأداء الوطني".

من المنظومة الفكرية للسيد الرئيس.

الدراسة التحليلية لمحاور المنظومة الفكرية

المحور الأول: الفتنة الطائفية صنيعةُ الغرب، هدفُها تفتيتُ الأمة وإغراقُها في بحر من الدماء، وعلاج الطائفية البغيضة يكون بالفهم الصحيح للدِّين:

من أهم الأبواب التي اعتمد عليها أعداء الأمة وخصومها "الطائفيَّة"، وإن العلاج الوحيد النَّاجع لتفويت الفرصة عليهم وردِّهم خائبين هو التمسُّك بالوحدة الوطنية والتسامح الديني، وهذا من أهم عوامل القوة والصمود لأبناء وطننا، ومن أبرز مقومات الخروج من الأزمة، لا سيما وأن الساحة الدينية متنوعة الأطياف في سورية، وإن ما حاولوا اختراقه كاد أن يكون وسيلة لتفتيت الوطن ومحاربة الإسلام، لولا العمق الحضاري الكبير الثابت في نفوس أهل هذه المنطقة، والفهم الصحيح للدين الذي يُعدُّ السبيل الوحيد لمواجهة هذه المخططات. وقد بين الله عز وجل أهمية الوحدة بين أبناء الأمة وأهمية تلاحمهم وتراحمهم، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]. **وقد أكد هذا السيد الرئيس في عباراته فقال:** "الساحة التي اختارها الخصوم والأعداء لنا في سورية هي ساحة الصراع الديني بداية، وكانت عناوين هذه الساحة منذ البداية عناوين طائفية، ولا يمكن أن نحارب الطائفية إلا من خلال الدين الصحيح".

وإن من سبل تعزيز هذا الجانب تأكيد على رفض كل ما يؤدي إلى التعصب والفرقة والخلاف وعدم تقبل الآخر، والعمل على تحصين الأجيال القادمة من آثارها، من خلال تعزيز اللقاءات بين أتباع المذاهب الإسلاميَّة في القطر، والبحث فيما يؤلف ويجمع، والابتعاد عمَّا يباعد ويفرِّق من نقاش وحوار، لأن أصول هذه المذاهب الإسلامية واحدة.

الأئمة قدموا لنا مذاهب فكرية، ولم يقدموا لنا طوائف، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

الطائفية والتطرف: تحدث السيد الرئيس في هذا المحور بإسهاب، وبيَّن كيف أن الغرب رَكز على ناحيتين: التطرف لضرب الإسلام، والطائفية لتفتيت وحدة الأمة العربية، وقال: "إن الطائفية حَلَّت مَحل الدين"، وأعطى أمثلة رائعة جداً، فإنك تَسمع فلان يُقال عنه بحسب طائفته: فلان سني، فلان شيعي، فلان علوي، فلان درزي، لماذا لا يقول: فلان وطني؟.

ومن عبارات السيد الرئيس في هذا: "لا يُمكن أن نُحارب الطائفية إلا مِن خلال الدين الصحيح، وهذه الطائفية كان لها هدفان: الأول: تفتيت سورية وإضعافها وجرّها إلى بحر من الدماء، وهذا الهدف ليس بالقديم، فقد سبق الأزمة بسنوات. والثاني: أقدم بكثير، وهو تفتيت الإسلام عبر سورية، وعبر ليبيا والعراق؛ لكن هذا السلاح فعّال في منطقة بلاد الشام أكثر من مناطق أخرى لأنها متنوعة".

وإن البديل عن التفكير بالطائفية هو ترسيخ موقع الحوار والاعتدال، وكما قال السيد الرئيس: "هذه الأزمة رَسَّخت موقع الاعتدال، وبالرغم من الطرح الطائفي الذي نَسمعه والتحريض من الخارج ... لكن وبعد ثلاث سنوات، أَعتقد أن الاعتدال أَصبح أَقوى في المجتمع السوري، على المستوى الاجتماعي بشكل عام، وأتحدث تحديداً عن المؤمنين، وعلى مستوى شريحة العاملين في الحقل الديني، فكثير من الأشخاص الذين تَعصّبوا من دون وعي وكانوا يَعتقدون أن هذا التعصّب هو تمسّك بالدين، أو أنه محبة للدين وحرص عليه، اكتشفوا أن التعصّب هو الهاوية التي سنسقط فيها جميعاً على المستوى الوطني والأخلاقي والديني، فعادوا نِسبياً وتدريجياً وبدرجات مُتفاوتة إلى الجانب المعتدل، وهذا يَفتح باباً كبيراً لكم، كرجال دين معتدلين يُمثلون حقيقة الإسلام الشامي، لكي تتحركوا بين الشرائح المستهدفة من المواطنين بخطاب أكثر اعتدالاً وأكثر عقلانية، وأقرب إلى الدين الوسطي أو الإسلام الحقيقي، كما أسمّيه".

وفي هذا المجال لا بُدَّ مِنَ البَحث عن الأسس العقائدية المشتركة بين المسلمين، قال تعالى: ﴿وَلَو شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: ١١٨] وإن الاختلاف الخَلاّق هو من صميم فلسفة الفكر الإسلامي، وفي مثل هذا الاختلاف رحمة، إنه اختلاف مُبدع وليس صراعاً.

الله سبحانه وتعالى أراد منا أن نختلف، ولكن لم يُرد منا أن نتصارع ، **ويتابع السيد الرئيس عباراته في هذا المجال قائلاً:** "الخلاف حالة طبيعية، الشيء غير الطبيعي هو الصراع الموجود بين المسلمين،

ولا نختلف على العقائد، لا نَختلف حول وحدانية الله، ولا حول نبوّة الرسول ﷺ، ولا حول الأحاديث، هناك خلافات حول مصداقية بعض الأحاديث وهذا طبيعي، هذا فقط يَعرفه الفقهاء، كما أن الخلاف الموجود بين الطوائف يَتحمل مسؤوليته الأئمة عبر التاريخ، طبعاً لا أقصد الأئمة الكبار؛ لأن الأئمة الكبار، قدموا لنا مذاهب وليس طوائف والفرق كبير، المذهبية شيء جيد عندما تَكون عبارة عن مَذهب فِكري، هُم قَدَّمُوا لنا فِكراً لكي نَغتني منه، لكي نَفهم الدين أكثر، لكي نُغني الدين، لِكي نُمارسه بشكل أفضل، ولكنهم لم يُقدموا لنا طوائف لكي تصطدم مع بعضها، ولو عرفوا ذلك لما قَدَّمُوا لنا مذهباً في ذلك الوقت، الخلاف طَبيعي ويجب أن نبقى نتحاور، والأهم من ذلك أن نبقى نحترم العقائد والطوائف المختلفة، لأنه طالما أن ربك لم يَشأ أن تكون الأمة واحدة، فيعني طالما أننا موجودون كبشر ولو وُجدنا لمليون عام سنبقى مختلفين لمليون عام".

وقد بين الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أن توحيد الله لا يتم إلا بتوحيد الكلمة، ﴿وَاعتَصَمُوا بِحَبلِ اللهِ جَمِيعَاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقال تعالى مخاطباً نبيه الكريم ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، فالدين الصحيح يَجمع ولا يُفرق، يوحد ولا يشتت، ومهمة الدعاة والداعيات العمل على تركيز الدعوة إلى توعية الأجيال وتنقيح المناهج والخطب والدروس من كل ما يُفرق بين المذاهب في حال خُروجه عن السعة الفكرية، فَالوحدة الوطنية ومَنع الانزلاقات إلى مَدَارك الطائفية هِي وَاجب شرعي على كل العلماء والخطباء والوعاظ، وأي طَرح يُؤدي إلى الطائفية هُو خُروج عن روح وصحيح الدين الإسلامي العظيم، وإن تنشئة الأجيال أمانة في أعناقنا، وحماية تراب ووحدة وطننا واجب مُقدس على كل المذاهب.

المحور الثاني: حربُ المصطلحات وخطرُها على الأمة، وأهميةُ تدقيق مصطلحاتنا في الحفاظ على العقيدة والدِّين والوطن:

يقول رسول الله ﷺ: (لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبراً بِشِبرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوه)[1] ففي هذا تحذير من النبي ﷺ مِن خداع التزييف واتباع التقليد دون تعقل، واليوم تُعدُّ معركة المصطلحات إحدى أهم المعارك التي يَجب أن لا نَغفل عنها؛ فقد قَدَّم الإعلام الغربي والعربي

[1] – أخرجه البخاري في صحيحه ، برقم: (٣٤٥٦).

الشريك في المؤامرة على الوطن سَيلاً من المصطلحات الوافدة لِتكون بديلاً فكرياً للمنظومة التي تقود المجتمع العربي والإسلامي، وتدير سلوكه، والأمثلة على ذلك كثيرة وتستحق التأمل، لقد فصل السيد الرئيس في الحديث عنها. **ومما جاء في منظومة السيد الرئيس بهذا الشأن قوله**: "لا شك بأننا في الأمة الإسلامية تَعرضنا إلى حرب خطيرة جداً ترتبط بموضوع المصطلحات، بكل أسف جزء من هذه المصطلحات لم ننتجها، والأسوأ من ذلك أن الجزء الآخر منها نحن أنتجناه، لكن مضمون هذه المصطلحات حُوِّر من قبل الغرب، وأعيد إنتاجه بشكل آخر وأرسل إلينا، لماذا المصطلحات؟ لأنهم يُريدون ضرب العقيدة، وضرب العقيدة يبدأ بالمصطلحات".

وقال أيضاً: "عندما نَخسر المصطلح نخسر العقيدة، وعندما نَخسر العقيدة نخسر الثقافة، ونخسر معها الأخلاق والاقتصاد والسياسة والمجتمع، ونخسر كل شيء، وعندما نخسر العقيدة نخسر قضايانا، وهذا أحد أسباب تخلف الأمة الإسلامية، المصطلحات تتبدل بحسب مصالح الغرب، ونحن مع كل أسف –وخاصة في الإعلام العربي– نتبناها كما هي، جاؤوا بمصطلحات التعايش والتسامح، وفرحنا بأن التعايش والتسامح شيئان عظيمان، وهما مَزيَّتان من مزايا بلادنا سورية، كنت أجلس مع الوفود الأجنبية ويبدؤون بالمديح، ولكن قلت لهم: أننا نرفض هذا المصطلح، لا يُوجد لدينا لا تعايش ولا تسامح، التعايش والتسامح يَعني أننا أشياء متناثرة نعيش مع بعضنا البعض قسراً. الشظية إذا دخلت في الجسم في مكان غير خطير يَعزلها الجسم وتعيش مع الإنسان حتى موته، ولكن هذا لا يَعني أن الشظية أصبحت عضواً طبيعياً من أعضاء الجسم كالكبد والجسد. كيف نُفسر علاقة اليد اليمنى باليسرى، بالرجل، بالعقل، بالقلب، بالرأس، بالكتف، بالظهر ... الخ؟ هل نَقول بأن هناك تَعايشاً؟ إما أن نكون أعضاء لجسد واحد أو لا نكون، إما أن تكون هذه هي الوطنية أو لا تكون".

ومن الأمثلة التي ذكرها السيد الرئيس في هذا المجال: "مهاجمة الأعداء لفكرة الجيش العقائدي، فقال: "هم لا يريدون جيشاً عقائدياً، ولكن لولا وجود جيش عقائدي لما صمدنا ثلاث سنوات، هم يهاجمون العقيدة مهما تكن هذه العقيدة، لا أتحدث الآن فقط عن العقيدة الإسلامية، أية عقيدة تعني انتماء الإنسان إلى شيء معين، خاصة عندما تكون هذه الأرضية صلبة، فهذا يخيف الغرب".

المحور الثالث: الإسلام السياسي وخطُرُه على الأمَّة، وسقوطُهُ أكبرُ خدمةٍ للإسلام الدعوي، "نحن مسلمون ولسنا إسلاميين":

لعل ذلك أفضل ما يمكن أن يوصف به ما يسمى "الإسلام السياسي" أنه آفة فكريَّة، وربط غير منطقي بين الإسلام بقيمه الثابتة والسياسة بمصالحها المتغيرة، وذلك من أجل استغلال الإسلام في تحقيق الأهداف الرخيصة، وينبغي على العلماء كشف هذه الخدعة، وعدم السماح للمنافقين من العلماء بالتخفي تحت عباءتها، واستغلال عاطفة الناس الدينية للوصول إلى أهداف ومصالح حزبية وشخصية، يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة:٢٠٤-٢٠٦] يُحدثنا الله في هذه الآيات عن المفسدين الذين يتسترون بالأقوال الحسنة والأهداف المزعومة، ولكن أفعالهم على أرض الواقع لا تُثمر إلا شراً.

فمن أكبر الآفات التي تُواجهنا في هذه المرحلة آفة ما يُسمى بالإسلام السياسي، **وقد بيَّن السيد الرئيس هذا الموضوع في عباراته التي جاء فيها:** "الآفة الأخرى التي أصابتنا في العالم الإسلامي هي آفة الإسلام السياسي، عندما نقول: إسلام سياسي، نكون قد ربطنا ما بين شيئين لا يمكن أن يرتبطا بمستوى واحد، هناك سياسة إسلامية ربما في مجالات الحياة المختلفة، ولكن الإسلام السياسي شيء مختلف، الإسلام شيء إلهي والسياسة شيء بشري، الإسلام أتى من أجل كل البشر وليس فقط من أجل المسلمين، من أجل كل البشرية وليس من أجل فئات محددة، أما السياسة فتخدم شخصاً أو فئة من الأشخاص، الإسلام أتى لأجل طويل، طوله بطول بقاء البشرية على الأرض، والسياسة محددة بزمن محدد، ما هو صحيح اليوم قد يكون خاطئاً غداً، الإسلام أتى من أجل الصفاء لأنه صافٍ لا يمثل مصالح محددة، أما السياسة فتتبع الأهواء والنزوات والأخطاء البشرية، فكيف أربط السياسة مع الإسلام بهذا الشكل؟ هذا بحد ذاته فيه تقزيم للدين، إذا كان هدفهم – كما قالوا– من الإسلام السياسي والأحزاب السياسية هو الدين وتعزيز الدين فهذا ما تقومون به، أنتم تقومون بالدعوة للدين، وعندما تنجحون في الدعوة للدين وتكرسوا أخلاق الدين في هذا المجتمع فأنا كسياسي سأكون أخلاقياً في سياستي، وأنا كمسؤول سأكون أخلاقياً في حمل الأمانة، أمانة

المسؤولية الوطنية، والتاجر سيكون أخلاقياً في تجارته ولا يغش، والعسكري سيكون أخلاقياً في قتاله، وهكذا عندما نكرس الدين بشكل شامل فهو سيتشرب إلى القطاعات الأخرى، ولا يُمكن أن يَكون بشكل أو بآخر جُزءاً من السياسة".

ولقد تحدث السيد الرئيس عن الإسلام السياسي، وفرق بين كلمة إسلامي ومسلم، فنحن مسلمون ولسنا إسلاميين، ومستند ذلك القرآن الكريم؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]، فالله تعالى يُسمِّينا مسلمين والغرب يُسمينا إسلاميين، وطبعاً لا تجتمع كلمة إسلام وسياسي؛ لأن السياسة من صنع البشر والإسلام صنع رب البشر.

إن سقوط ما يسمى بالإسلام السياسي هو انتصار للإسلام الحقيقي وقيمه الصادقة، قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ويشرح السيد الرئيس رُؤيته لهذا المشهد فيقول: "الإسلام السياسي اليوم وهو يَسقط كما نرى في مصر وفي سورية ...، حقيقةً أستطيع أن أقول بكل ثقة بأن سقوط الإسلام السياسي هو خدمة للدين، هو آفة وعقبة ومشكلة، هو جرثومة دخلت في عقول المسلمين، وخروجه وسقوطه يعني استعادة الإسلام لموقعه الطبيعي، وعودته لعمله الدعوي".

إذن، هناك فرق بين الإسلام السياسي والسياسة الإعلامية، فقال سيادته: "الإسلام جاء لكل زمان ولكل مكان ولكل البشر، أما السياسة فهي صالحة لفترة محددة ولزمن ولمصلحة عامة ولأشخاص" وقال كذلك: "الإسلام السياسي هو منهج سياسي يَستغل العواطف الدينية للناس من أجل أجندات سياسية مَحددة لأشخاص أو لدول، أما شكل الحكم فهو شيء آخر".

وهنا تجدر الإشارة إلى عبارات السيد الرئيس في خدمة الإسلام السياسي للطائفية بشكل مباشر، **ومن عباراته في هذا الشأن**: "بدأنا نُعَيِّر الأشخاص بطائفتهم، لا نَقول بأن سين من الناس هو وطني، ولا نَقول بأنه أخلاقي، ولا نقول بأنه مثقف، نقول أن فلاناً من الطائفة الفلانية، فأصبحت الطائفية هي المعيار، وحلت محل الدين، وحلت محل الوطنية، هذا جزء من المفاهيم، أي أننا إذا لم نقم باسترداد الإسلام إلى موقعه الطبيعي لغوياً وثقافياً وعقائدياً، ومن خِلال المصطلحات سَنكون خلال فترة ليس أمام الإسلام العربي الذي أُنزل على الرسول ﷺ قبل أربعة عشرة قرناً، بل سَنكون

أمام إسلام إما عثماني أو قطري أو إسلام أمريكي، وكله واحد؛ فإذاً هنا يَأتي دورنا في استرداد هذا الإسلام من خلال رؤية هذه التحديات".

المحور الرابع: فقه الأزمة في مواجهة فقه الفتنة:

استمراراً لما دأبَت عليه عقول التَّكفير والتَّضليل والبغي، وما انتهجته ذُيولُ الفكر الظَّلامي المنحرف المتأثِّر بما يُحاك ضدَّ الإسلام الحقِّ الْمُستنير كما أنزله الله عز وجل على نبيِّه مُحَمَّد ﷺ، تأتي جولات العدوان الكلامي الخالي من روح الإسلام وفكره وأحكامه، والبعيد عن اجتهاد المجتهدين الثِّقات العُدول، لتبُثَّ سمَّاً في جسد الأمَّة الذي يعاني من جراح كثيرة. هذه الجولات تتمثَّل بتحالفٍ آثمٍ وتعاهدٍ على الوقوف في وجه كل ما مِن شأنه أن يَلُمَّ الشَّمل ويُلَملِم جراح أبناء الوطن؛ إنَّها فتاوى من مفتين وعلماء فتنة، ومتاجرة بالدِّماء من قبل بعض اتحادات العلماء في العالم العربي.

لقد أخذ علماء سورية على عاتقهم إيصال الصُّورة الحقيقيَّة للإسلام، وبيان وجه الحقِّ، وفضح الباطل ومزاعم أهله، وتأكيد ما يَجمع الأمَّة على كُلِّيَّات المبادئ والحقائق الإسلاميَّة الُمجمع عليها، والتَّذكير الدَّائم بضوابط العقيدة الإسلامية التي تَحمي صاحبها من الوقوع في الكفر أو اتهاماته، وتَسمو به فوق التَّعرُّض لأسلحة التَّكفير الجائرة.

وإنهم يَعدُّون ما يَصدر من فتاوى مُضلِّلة آثمة أمراً لا يَمتُّ إلى مبادئ ديننا الحنيف بصلة، وهو مخالف للمنهج القرآني والنبوي الشريف، كما أنه لا يتوافق مع المنهج العلميّ والمنطقيّ في الحكم على الأشياء، ولا يَخدم إلا أعداء الأمَّة الذين يَتربَّصون بنا الدَّوائر، يَفعلون هذا تَحت شعارات ومُسمَّيات شَتَّى وذرائع وحيل جَهِلهَا أولئك أو تعاموا عنها.

كما أن هذه الفتاوى جزء لا يتجزَّأ من الحرب المعلنة على ديننا الإسلامي الحنيف، وهي صَادرة عن خَلفيَّات حِزبيَّة مرتبطة بمخطَّطات واضحة المعالم والأبعاد والأهداف، والتي بَاتَت لا تَخفى على أحد.

وإنَّ مِن واجب العلماء والدعاة بَيَانُ الْمَوقِفِ السَّديدِ مِن مواقف وإفتاءاتٍ تُؤدي إلى الفتن واستباحة الدماء، انطلاقاً من الإحساس بالمسؤوليَّة الشَّرعيَّة والأخلاقيَّة والوطنيَّة الملقاة على عاتقهم، ومن الحرص على وحدة الأمَّة وتماسكها.

ومن هنا جاءت سلسلة فقه الأزمة التي أُطلق عليها اسم "السلسلة التَّنويريَّة – الإسلام بين المصطلحات والمفاهيم" والتي كانت مِن نَتَاج لجنة علميَّة فقهيَّة فكريَّة مُعتمدة، تَهدف إلى الارتقاء

بالمستوى الفكري والدِّيني لأبناء الوطن، بما في ذلك المحافظة على الفكر الوسطي لفهم الإسلام، وبما يُعزِّز الوحدة الوطنيَّة الرَّائدة في سوريَّة، وأتت مَباحِثُها في الخطاب الدِّيني انطلاقاً مِن مَقاصد الشَّريعة الإسلاميَّة المتمثِّلة بقواعد كثيرة من أهمِّها قاعدة درء المفاسد وجلب المصالح، والقواعد الخاصَّة بمراعاة الأولويَّات وفقه الواقع، وتأسيساً لمنهم الفهم الصحيح لمسائل وقضايا ديننا الحنيف والمشكلات المعاصرة لأمتنا.

إن مواجهة التطرف والإرهاب والقضاء عليهما تكون بإدانة الانحرافات الفكرية من جهة وبتفنيد حججها ونقضها، وبيان آثارها السلبية من جهة أخرى، **يقول السيد الرئيس**: "لا يكفي أن نُدين التطرف والإرهاب، لا يكفي أن ننبذ، لا يكفي حتى أن نُفَنِّدَ المنطق الذي يستخدمونه، لا بد من تجديد الفكر الديني، فهناك شرائح مؤمنة ولكنها تُريد الحوار وتُريد الفكر المتجدد الذي يتناسب مع تطورات المجتمع".

ولقد تحدث سيادته عن فقه الأزمة، وهو ما يقابل فقه الفتنة والتكفير، والآية الكريمة تقول: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، ولقد واجهنا في البدء فقه الفتنة مواجهة عفوية، ثم صدر فقه الأزمة من خلال رجال العلم والعلماء والخطب والخطباء، ليَكون حَصناً للفكر الإسلامي في بلدنا وفي العالم الإسلامي أيضاً.

ومن عبارات السيد الرئيس في هذا المجال: "فقه الأزمة هو مواجهة لفقه الفتنة، فنحن واجهنا في البداية فقه الفتنة ولم يكن لدينا أدوات فكرية، اعتمدنا على حسن النية، اعتمدنا على الفكر الموجود لدى كل رجل من رجال الدين، أو لكل عالم ولكل داعية في سورية، ولكن لم يكن لدينا فقه بالمعنى الشامل لمواجهة هذه الفتنة، فكان اليوم فقه الأزمة هو مواجهة لفقه الفتنة، ولا بد من تطويره وإكماله، ولا بد من الاستمرار في تطويره مع تطور المجتمع لمواجهة هؤلاء، وأصبح هذا الفقه الآن هو الإطار الذي يحدد لنا، والشيء الجيد أنه ليس إنتاج الدولة، هو إنتاج علماء الدين الموجودين معنا في هذه القاعة، وهو إنجاز وطني، وليس فقط على المستوى الشرعي؛ لأنه سيحمي البلد، فالسير بهذا الموضوع مهم جداً، نكمله في المستقبل بالمرجعية، بمعنى المؤسسة الدينية".

وفي هذا الموضوع لا بد من القول: إن فتنة التكفير التي تجتاح العالم الإسلامي بِرُمَّته مِن شَرقه إلى غربه تنامَتْ وتفاعلت، حاصدة أرواح آلاف الأبرياء في تجاوز صريح لكل القيم الإنسانية، وانتهاك

فاضح لكل الحرمات، وتشويه غير مسبوق لصفاء الصورة الإسلامية والمحمدية، وإن سيوف الفكر التكفيري تأتي مُشرعة في وجه ما أكدته شريعة الإسلام الوسطية السمحة، المنبثقة من قول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وقوله أيضاً: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِك﴾ [آل عمران: ١٥٩]، هذه السيوف في تاريخها القديم والحديث جارت أولاً على رقاب المسلمين في شتى بلدان العالم العربي والإسلامي، من الجزائر إلى مصر إلى العراق واليمن، ومن ثمَّ إلى الشام، وغيرها، عِلماً بوجود محاولات جادة مُتعدِّدة لإدراك طبيعة ظاهرة التكفير هذه بين أبعادها السياسية وآفاق التنظير الديني حولها، تلك الظاهرة التي تقوم على إقصاء المخالف جملة وتفصيلاً، وإخراجه من الدين، الأمر الذي يُخالف وسطية الإسلام واعتدال أحكامه فهماً وتطبيقاً، هذا فضلاً عَمَّا يُبَثُّ من أفكار تتعلق بأهل الشرائع السماوية الأخرى، وخصوصاً المسيحية، من خلال عدد من الملحقيَّات الثقافية في سفارات دول بات مَنهجها وتوجُّهها معروفاً، وهذه الأفكار تُؤسِّس لفكر هدَّام في عقول أبناء الأمة من خلال اعتبار المسيحيين وغيرهم مِنْ أهل الكتاب مِنَ المشركين، عِلماً أن الله عز وجل في القرآن الكريم خَاطبهم بأنهم أهل كتاب، ولم يُخاطبهم بأنهم أهل شرك.

هذا النشر للفكر الهدَّام يَأتي من إيمان مُعتنقيه بعالمية الفكر الوهابي السلفي، لذا فقد بدؤوا بإرسال البعثات التكفيرية والإرهابية إلى كل بقاع العالم، فأصبحت بذلك تلك الدول مَصدراً لتفريخ الإرهابيين والتكفيريين، إضافة إلى أنها أكبر مَصدر عالمي لتمويل تَنظيم القاعدة والجماعات الإسلامية المتطرفة الأخرى، ومنذ سنوات طويلة وتلك الدول تُحارب كل مظاهر الاعتدال الديني حيثُ وُجِدَ وترعرع ونما، ولقد كانت تلك الدول –من خلال محافلها الدولية والعامة والخاصة، ومن خلال مناهجها التعليمية– تُعَلِّم أبناءها لُغة التكفير وكراهية الآخر، وَتُلَقِّنُهُم ثَقافة العُنف والتطرف، وأن كل من يَختلف مع التفسير الوهابي المقيت؛ إما كافر وإما منحرف، ويجب عليه أن يتوب وإلاّ قُتل، وهذا ذاته هو ما قاله الخوارج بشأن سيدنا علي بن أبي طالب ﷺ وغيره من الصحابة الكرام منذ مئات السنين، وكما يقال: التاريخ يُعيد نفسه، إنَّه الفكر الخوارجي المنحرف الذي كَفَّر الأُمَّة وَكَفَّر عَشرات الآلاف من الصحابة مِن قبل.

وبذلك يَبدو وكأن مسألة التكفير ركيزة أساسية لأتباع هذا الفكر، ومصدر لوجوده وحيويته وتميُّزه، وكان من شأن هذا التكفير أن يكون مُترافقاً مع القتل والعنف، وليس ببعيد ما بَلغه الحال في حروب الوهابيين ضد مناطق المسلمين –خُصوصاً في بلاد الحجاز حيث سَيطَروا عليها وأقاموا دَولتهم– إلى حد استباحة تلك المناطق، ونهب ثرواتها وقتل سكانها وسبي نسائها وقتل رجالها دون تمييز، وتخريب دورها ومبانيها وإشعال النار في مكتباتها، ثم يَعودون إلى مقارّهم وكأنهم عادوا من فتح إسلامي مُبين وتأدية واجب ديني عظيم.

وإن عناصر الشبه والقرب بين أفكار التكفير القديمة وأفكار التكفير المعاصرة قائمة ومتكررة وثابتة، وإن تباينت في الإخراج والعبارة، والسبب في ذلك أن التكفير واحد في النوع وإن اختلف في التفاصيل، فالعناصر التأسيسية للتكفير هي سِياسية تَرتبط بمجمل المصالح الاجتماعية التي تَجد في فكرة التكفير واسطة من وسائطها إلى التحقق، ومَعرفية تتعلق ببديهيات مُتوهمة تَدفع أصحابها إلى اعتناق التكفير باعتباره صواباً.

المحور الخامس: الدعوةُ إلى عدم تسطيح العقل البشري في فهم القرآن الكريم، والعودةُ للتمسُّك بالقرآن الكريم عقلاً وعلماً وفهماً وسلوكاً وأخلاقاً:

القرآن الكريم هو منطلق النهضة الحضارية لأمتنا، وعندما ضعف استخدامنا للعقل –أو غاب– في فهم القرآن وتدبره، والتعمق في مَقاصده، حَدثت الانتكاسة الحضارية للأمة، ومن أهم خصائص القرآن الكريم عُمق معانيه، وهذا يَستدعي وجوب التأمل والتفكر في تلك الآيات وإعمال الفكر والعقل فيها، انطلاقاً من قول الله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [مُحَمَّد: ٢٤] وقوله أيضاً: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون﴾ [الحشر: ٢١] وقوله أيضاً: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون﴾ [النحل: ١٢].

وفي القرآن الكريم عشرات الآيات التي تَدعو إلى التفكر والتعقل، وإنّ غياب هذا المعنى هو من أهم أسباب تخلف الأمة، **وتأكيداً على هذا المعنى القرآني الأصيل أكد السيد الرئيس على ضرورة إعمال العقل والتفكير السليم، والمنطق الصحيح في فهم نصوص القرآن لإعادة النهوض بالمجتمع والأمة، فقال:** "فإذا فهمنا كل الدين وكل الأحاديث وقرأنا كل كتب الفقه والتفسير

والسيرة وغيرها، ولم نَفهم القرآن بشكل صحيح وعميق، فنحن لم نَفهم شيئاً من الإسلام، وهنا مشكلة الأمة الإسلامية بشكل عام، وأنا أتحدث عن لقاءات مُتعددة مع الكثير من المسلمين العرب المهتمين بالشأن الديني، أو رجال الدين العرب وغير العرب، الآسيويين وغيرهم. إنها مشكلة عامة تتمثل في تسطيح العقل في فهم القرآن الكريم، القرآن كتاب نسميه القرآن الكريم، لماذا لم نسمّه القرآن العظيم؟ هو كلام الله، هو عظيم بشكل بديهي، ولكن نقول كريم لأنه يُعطي بدون حدود، ويُعطي لمن هو قادر على العطاء، هو كتاب صغير وليس كبيراً، وشامل، ولكن هذه ليست نقطة القوة، نقطة القوة في القرآن هي العمق الكبير، ومن هنا جاء كرم القرآن، وهذا العمق يحتاج إلى عقول تستطيع أن تستخرج. أول آية كانت إقرأ، إقرأ لنبي غير قارئ، يقرأ بالعقل، فأول شيء كان المطلوب هو العقل، العقل هو تحليل وفلسفة، ولا أقصد أن نَصل إلى عمق القرآن من خلال قراءة نظريات هيغل والآخرين، أقصد أن الفلسفة هي القدرة على التفكيك والتركيب والتحليل، نحن سطّحنا القرآن بقراءتنا له، وبالتالي تسطّح معه كل الدين، وأنتجنا إما التغرب أو التطرف. فإذاً عندما نقول كمحصلة لكرم القرآن بأن هذا القرآن هو لكل العصور، ماذا يعني لكل العصور؟ يعني أنه بكل جيل من الأجيال، وبمرحلة من المراحل تتطور البشرية وتتطور معها فلسفة الحياة. القرآن هو منهج الحياة، وهذا المنهج يرتبط حتماً بفلسفة الحياة، فكلاهما من خلق الله، وعندما تتطور فلسفة الحياة تصبح الأجيال التي تأتي لاحقاً أكثر قدرة على الغوص في أعماق هذا الكتاب، واستنباط المزيد من الأحكام، وهذا الشيء لا يَحصل على الساحة الإسلامية بشكل عام".

وأضاف السيد الرئيس في هذا المجال قائلاً: "تمكّن البعض من وضع القرآن مع التحليل والفلسفة مع العلم في مواجهة، هنا خسرنا الكثير من الشرائح التي تؤمن بداخلها ولكن لم تجد من يدلها على الطريق للتعمق في الدين، أنا واحد من هذه الأجيال، من هؤلاء الأشخاص الذي كان لديه دائماً الرغبة والفضول لكي يَعرف، ولكن مِن دُون حِوارٍ عَقلاني ومنطق لا يُمكن أن أتعمق ... نحن بحاجة لكي نُغير هذه المنهجية في التعامل مع القرآن، لكي نَصل إلى الاستنباط الذي يُناسب هذا العصر. أما إذا بَقي استنتاج الأحكام مَبنياً عَلى الماضي مِن دُون إضافات تتعلق بالعصور الحاضرة، نكون بذلك في تناقض مع ما نَقوله أن القرآن لكل العصور، ونتركه للعصر الذي استنتج منه شيئاً آخر مرة ".

المحور السادس: أهمُّ أسباب الأزمة التي نعيشها اليوم غيابُ الأخلاق:

إنَّ مما لا شك فيه أنَّ كلَّ ما في رسول الله مُحَمَّد ﷺ عظيم، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى امتدحه بأخلاقه فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وفي هذا دلالةٌ واضحةٌ على أهمية الأخلاق في الدِّين الإسلامي، ولذلك كانت الأخلاق باعثاً من بواعث النبوة والرسالة، نستلهم ذلك من قول الحبيب المصطفى ﷺ: (إنما بعثت لأتمِّم صالحَ الأخلاق)[١] أي: الأخلاق الصالحة، وفي رواية: (مكارم الأخلاق)[٢].

ولا يخفى على المؤمن الحقيقي أنَّ الخُلُقَ الحسن يقطف ثماره في الآخرة أيضاً، ليس دخول الجنة فحسب، بل القرب من النبي ﷺ في منازل الجنة، نفقه ذلك من قوله ﷺ: (إن أحبكم إلي أحاسنكم أخلاقاً الموطؤون أكنافاً -أي المتواضعون- الذين يألفون ويُؤلفون)[٣].

ومن هنا كان المقياس في الحكم على المؤمن في الدنيا رفعةً وتفضيلاً خُلقه الحسن، يتجلى ذلك في قوله ﷺ: (إنَّ خياركم أحاسنكم أخلاقاً)[٤].

كلُّ هذه النصوص -وغيرها كثير- تُؤكِّد على مكانة الأخلاق ومنزلتها في هذا الدِّين العظيم، وإنَّ غياب الأخلاق في الأمة دليلُ انحطاطها ومؤشرٌ على سقوط حضارتها، ولو كانت هذه الأمة مُؤمنةً بكتاب ربها تَقرؤه آناء الليل وأطراف النهار، ذلك لأنها لم تفقه المطلوب الأسمى من القرآن الكريم، وأخطأت الطريق وأضاعت البوصلة الحقيقية لتوجيهات وتعاليم الشرائع السماوية.

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت *** فإنْ هُمُ ذهبت أخلاقُهم ذهبوا

وبالتالي فإنَّ الأزمات التي تمرُّ بالأمة سَببُها عَدمُ الفهم الدقيق لجوهر الدِّين أولاً وهو الأخلاق، أو عدم التطبيق العملي لهذا الأساس الذي تقوم عليه الحضارات.

---

[١] – أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ، برقم: (٧٩٧٨).

[٢] – أخرجه البيهقي في سننه الكبرى ، برقم: (٢٠٥٧١).

[٣] – أخرجه الطبراني في معجمه الصغير ، برقم: (٨٣٥).

[٤] – أخرجه البيهقي في سننه الكبرى ، برقم: (٥٢١١).

وهذا ما أكد عليه السيد الرئيس بقوله: "من أهم أسباب الأزمة التي نعيشها اليوم غيابُ الأخلاق، عدم الربط بينها وبين الممارسة الدينية، وهي من أهمّ المشاكل التي ينبغي إيجاد الحلول لها".

وانطلاقاً من ذلك يتحتم على الدعاة والداعيات تَمَثُّلُ أخلاق النبي ﷺ، في سلوكهم وأقوالهم وأفعالهم ضمن أسرتهم وفي المجتمع، وذلك لأنَّ الناس يَنظرون إليهم على أنَّهم وُرَّاثُ النبوة والقدوة الحسنة التي يتأسون بها في حياتهم اليومية، وليس هناك أشنع من أن يُخالف قول العالم أو الداعية سلوكه وفعله؛ لأنَّه بذلك يُشوِّه نظرة الناس عامّتهم وخاصَّتهم إلى أهل العلم والدعاة إلى الله عز وجل، فإذا كانت الأخلاق الفاضلة لازمةً للناس في كلِّ مِفصلٍ من مفاصل حياتهم، فإنَّها بأهل العلم والدعوة إلى الله ألزم.

ومن هنا نُؤكد على وجوب الاهتمام من العلماء والدعاة بشمائل الحبيب المصطفى ﷺ وأخلاقه وسلوكه، إقراءً في دروسهم ومجالسهم، ودعوةً للناس إلى العناية بها، حيث تُمثّل القدوة الحسنة: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُواْ اللَّهِ وَاليَومَ الآخِرِ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ومن أهم الكتب التي عنيت بشمائل رسول الله ﷺ كتاب "الشمائل المحمدية" للترمذي، و"الشفا في حقوق المصطفى" للقاضي عياض، وشرحُهُ للملا علي القاري، و"المواهب اللدنية" للقسطلاني، ومن الكتب الحديثة كتاب "مُحَمَّد رسول الله ﷺ" للشيخ عبد الله سراج الدين، و"الحبيب المصطفى ﷺ" لعمار بازرباشي.

المحور السابع: التركيز على السُّلُوك من خلال سيرة الرسول ﷺ وأقواله وأفعاله:

إن اتباع نهج النبي ﷺ وسلوكه، والاقتداء بأفعاله وتمثُّل أخلاقه أفضل وسيلة لفهم القرآن الكريم وتفسيره بعيداً عن أي تحريف، وإن تطبيق ذلك من الدعاة هو من أفضل الوسائل لهداية الناس والتأثير فيهم تأثيراً إيجابياً، يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩] ويقول أيضاً: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيم﴾ [التوبة: ١٢٨]، وعن عَبْدِ اللهِ

بْنِ عَمْرٍو قَالَ: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاحِشًا وَلاَ مُتَفَحِّشًا، وَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ: (إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاَقًا)[1].

رسالات الأنبياء كلها جاءت مؤكدة أهمية الأخلاق في حياة الناس وفي سلامة المجتمع، مبيّنة أنها من أسس العبودية لله تعالى، بل إن العبادات لا تكتمل إلا مع الأخلاق، قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ووصف الله تعالى المؤمنين بحسن أخلاقهم، فقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

ومن هنا كان دور العلماء والدعاة في نشر الأخلاق بأفعالهم قبل أقوالهم، ليكونوا قدوة كما كان النبي ﷺ قدوة، **وهذا ما أكد عليه السيد الرئيس بقوله:** "ومن أهم أسباب الأزمة التي نعيشها اليوم غياب الأخلاق، وعدم الربط بينها وبين الممارسة الدينية، وهي من أهم المشاكل التي ينبغي إيجاد الحلول لها".

وفي السنة النبوية نَجد أحاديث كثيرة تُنبه على أهمية الأخلاق الكريمة والسلوك السَّديد؛ ومنها قول النبي ﷺ: (إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاَقًا) وقَالَ أيضاً: (الْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ السُّوءَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَبْدٌ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَه)[2].

ومما قاله السيد الرئيس في هذه الجزئية: "موضوع ربط القرآن والحديث بسلوك الرسول ﷺ، هذا الجانب نحن مقصرون جداً بشأنه؛ لأن المتطرفين والمنحرفين من أصحاب النوايا الجيدة أو السيئة تمكّنوا من تحريف تفسير القرآن وهو أقدس شيء، فمن يتمكن من تحريف تفسير القرآن من السهل عليه أن يُحرّف أي شيء آخر، كالحديث وأي تفسير وأي كلام آخر، لكن هناك شيئاً قوياً جداً يختصر مضمون القرآن والحديث هو سلوك الرسول ﷺ، طبعاً هذا السلوك لا يُعبر عن سلوك نبي، بمعنى أنه لم يَكن شخصاً عادياً أو ربما كان لديه الكثير من الهفوات، وعندما أصبح نبياً أصبح إنساناً متميزاً، هو اختير للنبوة لأنه مُتميز، فالأهم بالنسبة لنا أن نَدرس سلوك هذا الإنسان لأنه إنسان

---

[1] – تقدم تخريجه.

[2] – أخرجه ابن حبان في صحيحه ، برقم: (٥١٠).

قبل كل شيء، قبل أن يكون نبياً، وليس فقط بعد أن أصبح نبياً، عندما ندرس هذا السلوك نستطيع أن نحرف التفسيرات، ولكن لا نستطيع أن نحرّف تفسير سلوك النبي ﷺ ومواقفه على المستوى الشخصي ... علاقته بزوجته، علاقته بالناس، دوره كشخصية، كقائد سياسي ...".

وإذا كان الدعاة هم ورثة الأنبياء في الدعوة إلى الله تعالى وتبليغ رسالته إلى الناس، فما أجدرهم باقتباس شمائلهم والاقتداء بهداهم، كي تظل هذه الوظيفة قائمة بين الناس على وجوهها الصحيحة السَّليمة، فيوجد من ينبههم إذا غفلوا، ويقوّم منهجهم وفكرهم إذا غالوا أو تطرفوا أو تشددوا، ويذكّرهم إذا نسوا، وبالمقابل: فهو يُعينهم إذا تذكروا، ويأمرهم بالمعروف إذا استقاموا، وهو ينهاهم عن المنكر إذا انحرفوا؛ كل هذا لأنَّ قِوامَ عزةِ المسلمين وعلوهم على سائر الأمم والشعوب هو في قيام الدعاة بواجبهم على النحو الأمثل، وما استحقت الأمة الإسلامية صفة: ﴿خير أمة أخرجت للناس﴾ إلا بأدائها هذه الرسالة، فقد قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ومما لا شك فيه أن الدعوة الإسلامية في هذا العصر –وفي كل عصر– تحتاج إلى رجال مؤهلين علميًّاً وخلقيًّاً لحملها وتبليغها على وجهها الصحيح، تحتاج إلى دعاة يَفهمون الإسلام فهماً سليماً، ويَسْعَونَ في إيصاله إلى أبناء هذه الأمة بعيداً عن التَّشويه والتَّحريف والتَّزييف والفهم الخاطئ، وبما يتفق مع طبيعة العصر الذي نعيش، المضطرب بألوان من الفتن الجسام.

وهنا لا بد من القول: إن أساس نجاح الدعاة يكون بالالتزام بهدي النبي ﷺ والإخلاص في حمل الأمانة وتبليغها، ولا بدّ للداعية من الحصول على قدر كافٍ وواسع من الثقافة التي تُعينه على أداء مهمته الدعوية، وأداء رسالته على أكمل وجه، ويُوصل دعوته إلى الناس، ويَتمكن من إقناعهم ويصل إلى عقولهم وقلوبهم، فالدعوة بَذْلٌ وعطاء، ومَن لا يَملك العِلم والثقافة فماذا يُعطي؟ وكيف يتأتى له ذلك؟.

والداعية مكلف بفهم واقع أمته وظروف عصره فهماً لا غموض فيه ولا تحريف ولا تشويه، وهذا الفهم يَتشكل في ضوء فهم السيرة النبوية الشريفة والهدي المحمدي الشامل، وهذا لا يكون إلاّ بعلم، والعلم ضروري للداعية في تنظيم شؤون الدعوة، وإن الدعوة اليوم تواجه جاهلية متخفيةٍ في ثياب علمية ماكرة تحارب الإسلام والمسلمين حرباً مدروسة منظَّمة.

ونشير هنا إلى أن أهم مصادر الداعية وثقافته: القرآن الكريم والسنة النبوية وما يتعلق بهما من علوم، وتأتي بعد ذلك أحداث التاريخ وقضايا العصر ومشكلاته، فيجب عليه أن يدرس التاريخ دراسة فاحصة دقيقة، حتى يعلم ما فيه من نقاط القوة والضعف، ويستفيد من دراسته تلك معرفة طبائع الأمم وما يؤثر فيها. وبعد عودة الداعية إلى التاريخ وما فيه من أحداث ومواقف لا بد له من أن يتَّجه إلى الحياة المعاصرة ليفهم قضاياها ومشكلاتها، فيعايش واقع الناس بحسناته وسيئاته، ويقف على المشكلات التي تتطلب رأياً وحلاً وحكمة، فإنّ واقع الحياة هو تاريخ الإنسانية، وهو مستودع صوابها وأخطائها، فإذا اتجه الداعية إلى هذا الواقع وتحدث عن صوابه وخطئه، وصوَّر كلاً في صورته الطبيعية الواقعية وعالجه بروحه وفكره المعتدل البعيد عن الشَّطط والتَّكلُّف والتَّنطُّع، ووزنه بالميزان الإلهي، عندها يكون قد بلَّغ الرَّسالة وأدَّى الأمانة، ونصح الأمَّة وجاهد في الله حقَّ جهاده.

وهكذا فإن خطاب الدعاة في دروسهم والخطباء في منابرهم، ينبغي أن تُراعى فيه أحوال المخاطبين وأماكنهم وأزمانهم وظروفهم، فيجتهد كل الاجتهاد في إيصال أحكام الدين على وجهها الصحيح، حتى يكون بلاغه لهم بلاغاً مبيناً، كما هو بلاغ الرسل عليهم الصلاة والسلام، وقد قال الله تعالى: ﴿فهل على الرُّسل إلا البلاغ المبين﴾ [النحل: ٣٥] بلاغ فيه دعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ذلك بأن الدعوة بالحكمة تخاطب العقول فتقنعها، والدعوة بالموعظة الحسنة تُخاطب القلوب والعواطف فتثيرها وتحركها، والإنسان ليس عقلاً مجرداً، إنه عقلٌ وقلبٌ، عقل يدرك ويفكر، وقلب يحسُّ ويشعر، وعلينا أن نُخاطب الجانبين معاً: الجانب الذي يَعي ويُدرك ويُحصل المعرفة، والجانب الذي ينفعل ويريد، ويحب ويكره، ويرغب ويرهب.

لأجل ما سبق فإن خطاب الداعية ينبغي أن يشتمل على خصائص أساسية يجعله قادراً على الوصول إلى الناس، بحيث يُقنع عقولهم بالحجة، ويستميل قلوبهم بالموعظة، ولا يحيد على كل حال عن الحكمة، ومن أهم خصائص الخطاب الديني: أن يؤمن بالوحي ولا يغيب العقل، وأن يدعو إلى الاعتزاز بالعقيدة، وإلى إشاعة التسامح والحب، وأن يستشرف المستقبل، ولا يتنكر للماضي، وأن يدعو إلى الاجتهاد، ولا يتعدى الثوابت، وأن يتبنى التيسير في الفتوى، والتبشير في الدعوة، وأن يُنصف المرأة ولا يجور على الرجل.

هذه الكلمة نُوجهها إلى كل داعية أحبَّ دَعوته وتفانى في سبيلها، وملأ صدره غيرة عليها، وفهم الإسلام فهماً صحيحاً، وعَرف واقع الحياة وقضاياها. نوجِّهها إلى كل داعية أخذ بالقدوة الحسنة، فتخلَّق بما يَدعو إليه، وتجنَّب ما ينهى عنه. إلى كل داعية فهم التيارات العقائدية والفكرية المعادية، وأدرك المؤامرة –لا بل المؤامرات– التي تُحاك بالجملة للنيل من الإسلام وأهله، وتصدى لكل ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة. إلى كل من وثَّق صلته بربِّه، وأصلح نفسه، وأخلص نيَّته لله تعالى، وتفانى في حبِّ دينه ووطنه وأبناء أمته، وأدرك المخاطر التي يمكن أن تنجم عن الغلوِّ والتطرُّف والتَّشدَّد في بيان أحكام ديننا القويم وفي تطبيقها، أخذاً بقول النبي ﷺ: (إن هذا الدين يسرٌ، ولن يشادَّ الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا)[1].

وهكذا فقد بيَّن السيد الرئيس في منظومته الفكرية أهمية محور سيرة الرسول ﷺ، وأنه يجب علينا أن نستلهم أخلاق النبي ﷺ وسيرته وتعامله وعلاقاته، مع أصحابه، مع زوجاته، مع جيرانه، مع مجتمعه، عسكرياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً، فقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] وقال أيضاً: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةَ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال: ﴿في رَسُولِ الله﴾ ليشمل كل ما سبق ذكره، وقال رسول الله ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)[2].

ومن منطلق أهمية ربط حفظ القرآن الكريم والسنة النبوية بالسلوك، أكد السيد الرئيس على هذا بقوله: "معظم الطلاب والشباب والصغار يحفظون الآيات والأحاديث ولا يفهمونها، ولكن السلوك سيفهمونه وسيكون مدخلاً لفهم الآيات والأحاديث، هذا من جانب، من جانب آخر عندما لا ندرس السلوك فلا يكون لدينا قدوة، نحن نتحدث عن القرآن، ونطبق كل ما في القرآن وما في الحديث، ولا نقلد بسلوكنا الرسول ﷺ، هذا كلام متناقض. عندما نقلد هذا السلوك بالمواقف، بردّات الفعل، بالتفاصيل الإنسانية البسيطة، أعتقد بأنه لن يكون لدينا أي مشكلة".

---

[1] – أخرجه ابن حبان في صحيحه ، برقم: (٣٥١).

[2] – أخرجه البخاري في صحيحه ، برقم: (١٥).

المحور الثامن: الحفاظ على وحدة البلاد ومقدراتها واجبٌ دينيٌّ وطنيٌّ، والتخريبُ والتَّدْميرُ هو ما قام به أعداء الدِّين والوطن:

قال تعالى: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَاد﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٥] وقال رسول الله ﷺ: (الخلق كلُّهم عيالُ الله، فأحبُّ الخلق إلى الله أنفعهم لعياله)[١].

في هذا السياق القرآني والنَّبوي حذَّر الله تعالى من الفساد والإفساد في الأرض، وأوجب التَّعاون على البِرّ والتَّقوى، ونهى عن التَّعاون على الإثم والعدوان، وعلى الرغم من تعدُّد النُّصوص القرآنيَّة والأحاديث النَّبويَّة التي تنهى بشكل قطعي عن الإفساد والفساد والتَّخريب، وتحثّ على أهميَّة التَّعاون، وبيَّنت ثمراته الدِّينيَّة والدُّنيويَّة -على الرغم من هذا- **فإنَّ فئات من المجتمع ومن تنظيمات إرهابيَّة خارجيَّة أبت إلا أن تُمسِك بمعول الهدم والتَّخريب، فتسجِّل لها بهذا تاريخاً لا يُنسى من المآسي التي يَجني أثرها الفرد خاصَّة والمجتمع عامَّة، فما تقوم به هذه الجماعات من تدمير لمقَّدرات البلاد الاقتصاديَّة والتَّنمويَّة والبيئيَّة والثَّقافيَّة والتَّعليميَّة، وتهديم للمساجد والكنائس، لا يُمكن إدراجه إلا تحت عنوان عريض واحد، وهو حبُّ التَّضييق على أبناء هذا الشَّعب وتسليم هذه البلاد لقمة سائغة بيد أعدائها.**

ولقد أكَّد السيد الرئيس أن هذه الأفعال لا تكون إلا ممن هم أعداء حقيقيون للدين فقال: "إن الأزمة أظهرت بشكل واضح مَن هم الأعداء الحقيقيون للدين، ومن قام بالقتل ومن قام بالتخريب، ومن قام بقطع الرؤوس، ومن قام بحرق دور العبادة والمساجد والكنائس ... وغيرها".

وهكذا فقد عمِل أعداء الوطن على إهلاك الحرث والنَّسل وإتلاف المزروعات، والاعتداء على المنشآت العامَّة والخاصَّة، وعملوا على إعاقة حقيقيَّة لوصول المواد اللَّازمة واليوميَّة الحيوية إلى المواطن، ومحاولة تخريب محطَّات توليد الطَّاقة الكهربائيَّة وتوزيعها، وتعطيل وصول مياه الشُّرب، وسائر الخدمات التي لا يستغني عنها المواطن على مدار السَّاعة.

---

[١] - أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ، برقم: (١٠٠٣٣).

لذا فإن الواجب الدِّيني والوطني والإنساني والأخلاقي يُملي على كلِّ فرد حريص على استقرار وطنه وتأمين حاجاته أن يَعمل على حماية هذه المقدَّرات والحفاظ عليها، فهي مُلكنا جميعاً، وفي تدميرها أو تعطيلها إرباك لحياتنا وإهلاك لنا، وتَضييق حقيقي علينا، ومسؤوليَّة ذلك تقع على عاتقنا، وهذا من التَّعاون على البرِّ والتَّقوى الذي أمرنا الله تعالى به بقوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ شَدِيدُ العِقَاب﴾ [المائدة: ٢].

وهذا ما أكده السيد الرئيس من خلاله عباراته فقال: "نحن نريد من كل مواطن أن يقف ضد الفساد والظلم والخطأ، ولكن عبر آليات الدولة، ولا بد له من الدخول بهذه الآليات بالرغم من كل العقبات، البعض يقول لك: لا يتركون إنساناً جيداً، لا يوجد شيء مطلق بالحياة، كل إنسان جيد قادر على الدخول عندما يريد، ولكن أن يستسلم منذ البداية ويقول أن كل الدولة سيئة، هذا مستحيل، مستحيل أن يكون مليون شخص بالدولة السورية كلهم سيئون، فتعزيز المفاهيم الصحيحة ضروري جداً".

المحور التاسع: الوحدة الوطنية أساسٌ في صمود المجتمع السوري في مواجهة أعدائه:

دخل النبي ﷺ المدينة المنورة مُهاجراً، وكان فيها أطياف دينية وعرقية مختلفة من العرب واليهود والمسلمين والمشركين، فأسس لمجتمع موحَّد، وجاءت وثيقة المدينة المنورة لِتُؤكد ضرورة الانتماء الوطني وإن اختلفت الانتماءات، ومما جاء في هذه الوثيقة: (هذا كتاب مُحَمَّد رسول الله، بأن المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم أمة واحدة من دون الناس).

انطلاقاً من هذا الفهم النبوي الأصيل أكد السيد الرئيس على التمسك بوحدة المجتمع السوري بكل أطيافه في مواجهة أعدائه فقال: "إما أن نكون أعضاء لجسد واحد أو لا نكون، إما أن تكون هذه هي الوطنية أو لا تكون ... هناك التجانس والتكامل". وقال كذلك: "الأئمة الكبار – وهذه النقطة المهمة– قدموا لنا مذاهب وليس طوائف، والفرق كبير، المذهبية شيء جيد عندما تكون عبارة عن مذهب فكري، في الاقتصاد، وفي الطب، وفي السياسة، هناك مذاهب فكرية، هم قدموا لنا فكراً لكي نفهم الدين أكثر، ... ولكنهم لم يُقدموا لنا طوائف لكي تصطدم مع بعضها، ولو عرفوا ذلك لما قدموا لنا مذهباً في ذلك الوقت، طالما أننا موجودون كبشر، ولو وُجدنا لمليون

عام سنبقى مختلفين لمليون عام، هل من المعقول أن نتصارع لمليون عام؟ هذا الكلام مناقض لجوهر الدين".

يقول الله تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] إنها آية تؤسس للعلاقة بين أبناء المجتمع المسلمين وبين شركائهم من أبناء الشرائع الأخرى.

ومن خلال فهم هذه الآيات جاءت كلمات السيد الرئيس تؤكدها، ومما قاله: "يجب أن نتوحد ونحترم الرموز، حتى لو اختلفنا معها، وبشكل خاص أتحدث الآن عن المسيحيين، كون هناك خلافات عقائدية كبيرة، بالمحصلة هناك يوم قيامة وسيحاسب الله كل الناس في يوم القيامة، ولو أراد منا أن نحاسب بعضنا في الحياة لما كان هناك داعٍ ليوم القيامة، هناك يوم قيامة، إذا اختلفنا نُبقي هذا الاختلاف لا مانع، من يقبل الحوار نتحاور معه، ومن لا يقبل الحوار لا نتحاور معه، ولكن لا يجوز أن يكون هناك فتنة، لا يجوز أن يكون هناك إهانة لرموز هذه الأديان أو تلك الطوائف، ونبقى نتحاور، وأنا متأكد بأننا إذا تحاورنا بعقل سنصل بكل سهولة إلى قواسم مشتركة، وهي الحالة الطاغية والحقيقة أن الخلافات هامشية".

ونشير هنا إلى أن من يقف وراء الفتن لن ينجح في العبث بأمن وطننا؛ لأننا شعب واحد بانتماءاته المتعددة، ولأن تآخينا مسلمين ومسيحيين على مر العصور يمثل الحضارة بأبهى صورها، وأن مفاهيم الأقليات وصراع الأديان والحضارات مُصطلحات أجنبية لا تُعبر عن واقعنا، فإن مجتمعنا بمختلف فئاته متجذر بهويته الوطنية الواحدة وانتمائه الحضاري الواحد، وسورية كانت وستبقى على الدوام التجسيد الحي للأخوَّة المسيحية الإسلامية، وستبقى منبع الحضارة ومهبط الأديان وملتقى الأنبياء والرسل، ولن تتوقف عن الإشعاع نوراً وإيماناً ومحبة وتسامحاً، قال الله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِين﴾ [المائدة:٨٢-٨٣].

المحور العاشر: دور المنبر وأهميَّتُهُ في توعية المجتمع:

المنبر أمانة في عنق كل خطيب؛ وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَات﴾ [النساء: ٥٨] وقال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ

وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا * إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب:٧٠-٧٢]، لقد جمع الله في هذه الكلمات بين مراقبته في النطق بالكلمة وبين قدسية الأمانة.

وذات مرَّة صلَّى الصحابي الجليل معاذ بن جبل ﷺ بالناس فأطال كثيراً في صلاته، ولما اعترض عليه أحد المصلين لم يلتفت إلى اعتراضه، فجاء هذا الرجل يشتكي معاذاً للنبي ﷺ، فقال: يا رسول إن معاذاً صلَّى بنا البارحة فقرأ البقرة! فقال النبي ﷺ: (يا معاذ، أفتّان أنت؟ -كرَّرها ثلاثاً- اقرأ: ﴿والشمس وضحاها﴾ و ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾)[1].

وبيَّن السيد الرئيس أن منابر المساجد ليست وظيفة دينية فقط، وإنما لها مهمة وطنية أيضاً، فقال: "المنبر -أيها السادة والسيدات- هو منبر عام، ليس مكاناً خاصاً، هو ليس مكاناً للشيخ، ... لا يجوز له أن يستخدم المنبر من أجل مزاجه وأفكاره الشخصية، ولو عن حسن نية، هذه المنابر ليست فقط دينية ولا شرعية، هي منابر وطنية، فلا بد من تنظيم قواعد للمنبر، هذا ما أريد أن أقوله باختصار بالنسبة لمأسسة العمل الديني".

من هذا المنطلق فإن الداعية إلى الله تعالى يدعو إلى أمرٍ عزيز عظيم، وهو منهج الحق والطريق المستقيم، طريق الأنبياء والرسل والصالحين، وأولى بالداعية أن يتمسك أولاً بما يدعو إليه، وأن يتمثل قيم الإسلام ومبادئه في سلوكياته وأقواله، فيلتزم التزاماً كاملاً بما يدعو الناس إليه، وبذلك يجمع بين الدعوة إلى الإسلام بمقاله وبسلوكه وأعماله، ويصبح كتاباً مفتوحاً يقرأ فيه الناس معاني الإسلام، فيقبلون عليه وينجذبون إليه، والداعية الحق هو الذي يهدي إلى منهج الله بقوله وفعله، فيصبح بذلك مثلاً للمبادئ التي يعتنقها ويدعو إليها، ولكي يتحقق ذلك في الخطيب والداعية لا بد أن تتوفر فيه مجموعة من الصفات التي تؤهله للقيام بأعباء دعوته، ومن أهمها:

١ - صلته القوية بالله تعالى من خلال تمسكه بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

٢ - حب الدعوة والتفاني في سبيلها والغيرة عليها.

[1] - أخرجه البخاري في صحيحه ، برقم: (٥٧٥٥).

٣- التضحية في سبيل ما يدعو إليه.

فهذا في شأن الخطيب والداعية، وأما في شأن الخطاب الذي يتوجه به إلى الناس فلا بد أن يراعي فيه أموراً كثيرة، لكي يؤتي ثماره الإيجابية المرجوَّة، ومن أهم هذه الأمور:

١ – أن يكون خطاباً متوازناً فاعلاً مؤثراً يؤدي إلى تحصين ثقافة المجتمع وتنقيتها من الأفكار الدخيلة الهدَّامة التي تفتِكَ بوحدة المجتمع وتماسك أبنائه، ويسعى بجدّ وفعالية إلى التفافهم حول منهجٍ واحدٍ يتَّسم بالاعتدال والوسطية، وهذه سمة من أهم السمات التي جاء بها ديننا الحنيف.

٢ – ضرورة أن يكون موضوع خطابه وألفاظه وعباراته متناسبة مع ثقافة من يحدثهم، فيستوعب الجميع، وينقل لهم أفكاره بأسهل طريق وأبسط كلام، ذلك أن الخطابة هي فن مخاطبة الجماهير بطريقة تشتمل على الإقناع والاستمالة، والخطيب لا تنتهي مهمته عند تصوير واقعٍ أو بيان حالةٍ، ولكن لا بد له من خطوة أخرى على الطريق، وهي استمالة عقول مَن يَستمع له وقلوبهم استمالةً تحملهم على طاعة الله ورسوله في حال الأمر، والانتهاء عما ينهاهم عنه في حال النهي، وذلك ليستطيع تأدية دوره في إحداث التغيير الإيجابي المطلوب.

٣ – أن يكون من شأنه تعزيز مبدأ الحوار وقبول الآخر، ومن مقتضيات ذلك البعد عن منهج تكفير الناس، ومن أجل هذا فعليه أن ينطلق في خطابه من المبدأ القائل: "رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب".

٤- تطبيقاً لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢] ينبغي على الخطيب أن يبتعد عن التعرض لما يثير الفتن والشَّحناء مما ينعكس سلباً على العمل الدعوي في كل جوانبه، ويعود بالنفع على أعدائنا.

ولقد قصَّ الله تعالى علينا تاريخ أهل الشرائع السابقة للعبرة والحذر، فبيَّن كيفية نهوض الأمم وبناء الحضارات، وجلَّى لنا أسباب التدهور والانحطاط، وحذَّرنا من السقوط في هوّة التفرق والانقسام وداء الخلاف ومنزلقات التَّحزب الضيق المقيت، فقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ * مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٠-٣٢]، وهكذا فقد عدَّ الله تعالى الخلاف الذي يُؤدي إلى الافتراق

والتفرق ابتعاداً عن هدي النبوة، ونفياً للانتساب للنبي ﷺ، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وهكذا فإن البغي وتمزيق الصف الواحد والاختلاف في الدين كانت من أسباب هلاك الأمم الغابرة، ووسائل إيضاح للدرس والعبرة لمن ورثوا الكتاب والنبوة.

وعند رجوعنا إلى السنة النبوية نجد قول النبي ﷺ: (لا تختلفوا فتختلف قلوبكم)[1]، ولا شك أن السلف الصالح رضي الله عنهم اختلفوا في اجتهاداتهم، ولكن اختلافهم في الرأي لم يكن سبباً لافتراقهم، ولم يدخل تحت نهي النبي ﷺ؛ لأن وحدة القلوب والغايات والأهداف كانت أكبر من أن ينال منها شيء، لذا على دعاتنا أن يَعملوا على ترسيخ ذلك من خلال خُطبهم ودروسهم وسائر المناسبات التي يَتحدثون من خلالها.

وإن من أهم واجبات مَن يَعتلي منبر رسول الله ﷺ ألا يَتعرض إلى ما يُثير الخلاف بين المسلمين أو يفرق كلمتهم، لا سيما إذا كان الخلاف في أمور فرعية لا تَمس أصول الاعتقاد ولا تخرج صاحبها عن الإسلام، فكل مَن يَعتقد بأركان الإسلام قولاً وعملاً فهو مسلم ليس لأحد تكفيره أو إخراجه عن الإسلام، فنحن دعاة ولسنا قضاة، وهذا أمر معلوم من منهج النُّبُوَّة.

ومما يَنبغي التأكيد عليه في هذا المجال أن إثارة ما يُفرِّق المسلمين ويُغذي الخلاف بينهم –أياً كان مذهبهم– ويحيي أسباب الخلاف في كل مناسبة، يُعد خيانة لأهداف الإسلام العامة، وتَشتيتاً لجهود العاملين المخلصين.

المحور الحادي عشر: أهمية الحوار الموضوعي البنّاء في الوصول إلى الحقائق:

تعددت الآيات القرآنية التي تدعو إلى الحوار وتبيّن أهميته في التعامل مع الآخر، ومنها قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ...﴾ [الكهف: ٣٤] وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ...﴾ [الكهف: ٣٧]، ومن جهة أخرى فقد نبَّه الله تعالى على أثر العلم في فهم القرآن وعبودية الله العبودية الحقَّة، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:

[1] – أخرجه النسائي في سننه ، برقم: (٨٨١).

٢٨]، فالقرآن الكريم كتاب علم وحوار، إنه لا يصطدم بالعلم الحقيقي صدام عداء ونفور إلا الفهم القاصر والسطحي.

ويؤكد السيد الرئيس أن العقل والتفكير من أهم الأدوات التي ينبغي أن نستخدمها في فهم مجريات الأمور والخروج من الأزمة، فيقول: "العقل هو الأساس، والعقل لا يمكن أن ينشأ من دون حوار، العقل هو الذي يقنع الناس، يجب أن نستخدم الحوار بهذه الطريقة المنفتحة، لأننا لا نستهدف المؤمن، بل نستهدف قليل الإيمان، نستهدف مضطرب الإيمان، نستهدف المتردِّد في إيمانه، نستهدف الملحد، ونستهدف المعادي للدين، هؤلاء من علينا أن نستقطبهم".

المحور الثاني عشر: العروبةُ والإسلامُ ركيزتان أساسيتان لأمن المجتمع العربي والإسلامي ووحدتِه، والفصلُ بينهما مؤامرةٌ خسيسة:

اصطفى الله تعالى اللغة العربية لتكون لغة البيان والوحي الذي ختم به الرسالات، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] وقال أيضاً: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧] وقال النبي ﷺ: (احفظوني في العرب لثلاث خصال؛ لأني عربي، والقرآن عربي، ولسان أهل الجنة عربي)[١].

فالعروبة والإسلام هي المكونات الفكرية والثقافية والعقائدية الأهم في الساحة العربية، والفصل بين العروبة والإسلام لا يُمكن أن يُقدم أي فائدة لأي منهما، إنه في الحقيقة مُؤامرة لإضعاف العروبة وإضعاف الإسلام، وآن الأوان لأن نفهم العروبة فهماً أوسع من المدلول العرقي واللغوي، لتكون معنى إنسانياً حضارياً، **وهذا ما أكده السيد الرئيس فقال:** "لا يمكن الفصل بين فكرة العروبة وفكرة الإسلام، هم تمكنوا من القيام بذلك عبر عقود، وأصبح هناك شارعين منفصلين، شارع للإسلاميين يُمثله رجال الدين والمؤمنين ومن معهم، وشارع للقوميين، شارع علماني، وهو شارع ضد الدين، وهذا رأيناه بشكل واضح في الستينيات وفي السبعينيات، كنا نُعاني من انفصام في الشخصية أوصلتنا إلى ما نحن عليه اليوم كأمة إسلامية؛ لذلك –وفي الحديث عن عروبة القرآن– عندما نقول

[١] – أخرجه الحاكم في مستدركه ، برقم: (٧٠٠٠).

بأن القرآن حافَظَ على اللغة العربية هو كلام غير دقيق، القرآن حافظ على العروبة بحد ذاتها كمفهوم".

العروبة والإسلام ركيزتان أساسيتان لأمن المجتمع الفكري الاجتماعي، ومستند ذلك قوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون﴾ [يوسف: ١-٢]، وكان الرسول ﷺ يَعتز بانتمائه العربي وللعروبة، ولقد أوضح هذه المعاني السيد الرئيس ضمن عباراته في هذا الموضوع .

ومما جاء في كلمات السيد الرئيس ضمن منظومته الفكرية قوله: "القاعدتان الأساسيتان في الساحة العربية هما العروبة والإسلام، هناك شيوعية ومسيحية وقومية سورية وليبرالية وتيارات مختلفة، ولكن القاعدتان الأساسيتان هما العروبة والإسلام، بالنسبة للغرب إذا ضرب هاتين القاعدتين تكون الأمور مفتوحة له للدخول والسيطرة على هذه المجتمعات".

وقال أيضاً: "عندما يَحصل انفصال بين العروبة والإسلام، فمعناه أن هناك عَدم استقرار في المجتمع، عدم استقرار نفسي وعدم استقرار اجتماعي، وبالتالي عدم استقرار من الناحية الأمنية، كيف يمكن الفصل بين العروبة والإسلام؟ كيف يمكن الفصل ما بين عروبة الرسول وإسلام الرسول ﷺ؟ كم مرة تباهى الرسول ﷺ بانتمائه؟ مرات كثيرة، طبعاً في ذلك الوقت لم يكن مفهوم العروبة موجوداً بالشكل الحالي، كان الطرح عربي وأعجمي، لم يكن هناك حدود وطنية، حدود سياسية بالشكل الحالي، فكان تباهيه بانتمائه القبلي، كانت القبيلة هي الوطن في ذلك الوقت، ولو كان هناك حدود سياسية لرأينا ربما آيات في القرآن تتحدث عن الوطن وعن الوطنية، ولربما كان هناك أحاديث تتحدث في نفس الإطار".

لأجل هذا، فمن واجبنا العمل على تحصين الجيل من أن يكون هدفاً لاستقطاب فكري غير سوي؛ من خلال الإعلام الذي يسعى لسلخه عن عروبته وقيمه الإسلامية، من خلال الإعلام الوهابي التكفيري المتشدد الوافد.

المحور الثالث عشر: الأسرة هي الخلية الأساسية في المجتمع، وصلاحُها صلاحٌ للأمة، والوطنُ والدولةُ الأبُ والأمُّ الرحيمان بأبنائهما:

الدولة كالأُسرة، كلاهما ينبغي المحافظة عليه؛ لأن سقوط الدولة كسقوط الأسرة، لا يمكن أن يأتي بخير، ولكن ينبغي أن لا نغفل عن استخدام الطرق والوسائل المشروعة للنقد البناء، ولمكافحة الخطأ والوصول إلى النتائج الصحيحة على الصعيد الأسري وعلى صعيد الدولة كذلك.

وانطلاقاً من هذه المعاني القرآنية تكلم السيد الرئيس فقال: "موضوع العائلة وموضوع الدولة ... هناك عدة آيات وعدة أحاديث تؤكد على مفهوم العائلة، والعلاقة خاصة بين الأبناء والأبوين وضرورة طاعتهما ... والطاعة واجبة في كل شيء ما عدا معصية الله ...".

فالخلية الأولى في المجتمع التي يقوم عليها الإسلام هي الأسرة، فعلى سبيل المثال أمرنا الله تعالى بطاعة الوالدين والإحسان إليهما بقوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وقال أيضاً: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

وبيَّن السيد الرئيس في هذا الجانب أن الدولة هي أب وأم، فإن اختلفتَ معها في شيء فما عليك إلا أن تلتزم؛ لأن الدولة هي المجتمع ومؤسساته، **وذلك كله لأن أساس بناء المجتمع هي الأسرة، لأنه كما قال السيد الرئيس:** "... في حال تخربت هذه الوحدة الأساسية فكل التعاليم الأخرى المرتبطة بالإسلام لا يمكن أن تطبق؛ لأن الوحدة الأساسية بالمجتمع تخرّبت، وهذا يعني أن المجتمع تخرّب، فلا بد من الحفاظ على هذه الوحدة الأساسية، عليك أن تُبقي احترامك لوالديك وتحافظ على هذه العائلة، لكن لا تطع هؤلاء المشركين في معصية الله، نفس الشيء بالنسبة للدولة، مفهوم الدولة كمفهوم الوطن، لم يكن موجوداً في ذلك الوقت، ولو كان موجوداً أيضاً لكان هناك ربما آيات أو أحاديث توضّح هذا المفهوم، الدولة بالنسبة لنا هي كالأب والأم، إذا انهارت الدولة ينهار معها المجتمع بالمفاهيم الحديثة، يجب أن نفهم هذه الحقيقة، كثير من السوريين الذين خرجوا عن سوء نية أو عن حسن نية، بمعنى حسن نية أنهم كانوا يعتقدون بأن هناك ثورة وظلم والخ، ويجب أن نقف مع المواطنين في ثورتهم ضد الظلم، وقفوا ضد الدولة، يقولون هذه الدولة فاسدة، هذه الدولة طاغية، هذه الدولة ظالمة، هذه الصفات هي صفات إنسانية، الدولة ليست إنساناً، الدولة هي بنية سياسية، هي نظام سياسي، قد يكون ملكياً، وقد يكون أميرياً، وقد يكون رئاسياً، وقد يكون شبه

رئاسي، وقد يكون برلمانياً، لا يوجد في العالم نظام اسمه نظام فاسد، هناك نظام يناسب هذا المجتمع أو نظام لا يناسب هذا المجتمع".

المحور الرابع عشر: المدارسُ والمعاهدُ الشرعية حُصُونُ الدِّين والوطن:

من المِنَح المستفادة من هذه المحنة أنها أظهرت أن المدارس والمعاهد الشرعية التي ترعاها وتشرف عليها وزارة الأوقاف السورية تشكِّل حصوناً منيعة للدين الصحيح، وإن أعداء الدين الحقيقيّين هم الذين يظْهرُون على أنهم المتمسكون بالدين المدافعون عنه، ولكنهم يُشوهون نقاءه بأفعالهم التي تتنافى مع أقولهم، مما لا ينسجم مع آيات القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُون﴾ [الصف: ٢-٣] حيث ذَمَّت الذين يدَّعون الفضائل والأخلاق الكاملة بأقوالهم ويخالفون ذلك بأفعالهم.

ومما قاله السيد الرئيس في هذا المجال: "أظهرت هذه الأزمة بشكل واضح من هم الأعداء الحقيقيون للدين، لقد توضَّحت الأمور وظهر بشكل واضح وبالدليل القاطع مَن يَقوم بالهدم ومن يقوم بالقتل، ليست الدولة هي من قام بقطع الرؤوس ولا بالتحريض على الدين ولا بالتحريض على الإلحاد، ولا كل هذه الأشياء، أصبحت الأمور واضحة اليوم بالنسبة لكم ولنا ولباقي المواطنين".

فممَّا لا شك فيه أن العملية التعليمية من أبرز المؤثرات وأعمقها في بناء الفكر السليم والإنسان السَّوي الفاعل إيجابياً على في مجتمعه.

ولا يقتصر بناء المنهج القويم والفهم الصحيح لطريقة التعامل مع المجتمع على فئة دون أخرى من المتعلمين، ولا على تخصُّص دون آخر، بل يتعدَّاه إلى مختلف التخصُّصات والمجالات، ومن هنا كان من رسالة المؤسسات التعليمية الشرعية في وزارة الأوقاف -ومنها معهد الشام العالي للعلوم الشرعية والعربية والدراسات والبحوث الإسلامية- إيلاء الاهتمام بالجانب السلوكي والفكري والاجتماعي والأخلاقي والإنساني لدى طلابه؛ فنحن في حاجة إلى أن يكون في مجتمعنا القاضي والمحامي والاقتصادي ورجل الإعلام والتربية، والداعية الذي يفهم أحكام دينه وثقافة مجتمعه فهماً سليماً صحيحاً لا لبس فيه، دون غموض أو تشويه أو تضليل أو تحريف، بحاجة إلى أن يتفاعل هؤلاء جميعاً مع أبناء مجتمعهم أيَّاً كان معتقدهم وفكرهم تفاعلاً إيجابياً مُنَّسقاً مع الفهم الواضح المستقيم لشرع الله سبحانه، وبما يتفق مع مقاصد الشريعة الإسلامية وضوابطها.

ولأجل هذا كله فالمؤسسات التعليمية يجب أن تقوم خير قيام بوظيفتها من نشر المنهج العلمي والفكري والروحي الإسلامي الذي تمتاز به سورية، المنهج القائم على الوسطية والاعتدال وتحصين العقول مما قد يدخل عليها من شبهات أو انحرافات سلوكية أو فكرية أو منهجية.

ولا بد من اعتماد المنهج التكاملي بين المؤسسات التعليمية والدعوية في سورية، وهذا جزء من نظام مأسسة العمل الديني والدعوي في بناء مُؤسّسي، **وهو ما أكده السيد الرئيس قائلاً**: "اليوم لدينا كليات شريعة ولدينا معهد الشام للعلوم ولدينا المدارس، يعني لدينا بُنى لا بد من مأسسة العمل بينها، لكي يكون لدينا مرجعية تحدد العمل الديني وإطار العمل الديني".

المحور الخامس عشر: دورُ بلاد الشام في حماية الإسلام:

ذكر الله تعالى بلاد الشام في آيات متعددة، وأكد أنها مباركة كثيرة الخير؛ قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١] وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِين﴾ [الأنبياء: ٧١]، وورد عن النبي ﷺ أحاديث صحيحة في فضل الشام وما تتمتع به من مزايا، ومن أبرزها حماية الله تعالى لها من الفتن، وتوفيره لأسباب الأمن فيها، ومن أصحها قوله ﷺ: (إني رأيت كأنَّ عمود الكتاب انتُزِع من تحت وسادتي فأتبعته بصري فإذا هو نور ساطع عُمِد به إلى الشام، ألا إن الإيمان إذا وقعت الفتن في الشام)[١] وقوله أيضاً: (إن الله قد تكفَّل لي بالشام وأهله)[٢] وقوله أيضاً: (طوبى للشام، فقلنا: لأي ذلك يا رسول الله؟ قال: لأن ملائكة الرحمن باسطةٌ أجنحتها عليها)[٣] وقول رسول الله ﷺ: (اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا)[٤]، ومن ثمار هذه البركة المهمة الحضارية التي خص بها الله تعالى هذه البلاد.

ولذلك ينبغي الوعي بالأثر الحضاري لبلاد الشام، ولا يمكن لدويلات طارئة على الحضارة أن تنافسها لمجرد امتلاكها النفط أو غيره من الثروات، ومن هنا كان التآمر على بلاد الشام –وبلدان

---

[١] – أخرجه الحاكم في مستدركه، برقم: (٨٥٥٤).

[٢] – أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد.

[٣] – أخرجه الترمذي في سننه ، برقم: (٣٩٥٤).

[٤] – أخرجه البخاري في صحيحه ، برقم: (٧٠٩٤).

أخرى من وطننا العربي الكبير ومنها العراق ومصر– بهدف إنهاكها وتغييب دورها والسيطرة عليها، والأداة الأهم في ذلك هي تسرب الفكر الوهابي حديثاً إلى هذه الدول.

يقول السيد الرئيس في هذا المجال: "هذا الصراع هو صراع تاريخي، ولن نسمح لهم لا سياسياً ولا دينياً بالسيطرة علينا، دين بلاد الشام هو الأساس، هو الذي يقوم بحماية الإسلام الحقيقي".

المحور السادس عشر: الدور الإيجابي الكبير للسادة العلماء والدعاة والداعيات في الأزمة، وصمودهم في مواجهة التحديات التي تعرضوا لها، وخصوصاً الفكر الظلامي التكفيري:

من المؤكد أن صمود العلماء والدعاة والداعيات رغم كل الضغوط التي مُورِست عليهم من الإرهابيين والتكفيريين في ظلِّ ما تمر به البلاد، كان عاملاً أساساً في صمود الشعب، وهذه مهمة دينية ووطنية ليست مستغربة من السادة العلماء، لأنهم ينطلقون في رسالتهم ومسؤولياتهم من تطبيق قول الله عز وجل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، والعلماء ورثة الأنبياء، وذلك قولُ النبي ﷺ: (إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ)[1]، فالعالم الحقّ يتحلى بصدق الدعوة وإخلاص النبوة، **وهذا ما أكّده السيد الرئيس بقوله** : "... والأهم من ذلك أوضحت الفتنة بين العالم الصادق والعالم المنافق، الذي كان يأتي إلى الدولة ليضع حاجزاً بينه وبين الآخرين من شريحة العلماء، لكي يحتكر هذه العلاقة، وربما يذهب أبعد من ذلك لكي يسوّق فُسوق بعض المسؤولين، وأنا وأنتم نعرف عدداً منهم شخصياً، ورأينا أن أغلب هؤلاء هم أول من تآمر على وطنه، وأول من فرّ عندما احتدت الأمور".

ولقد أكد السيد الرئيس من خلاله كلماته أن الأيام والأعوام الماضية أثبتت المهمة الوطنية للعلماء، وأسكتت من حاول اتهامهم بغير ذلك، فقال: "الدور الوطني لرجال الدين والعاملين في الحقل الديني، والذي كان مشككاً به في بداية الأزمة، اتَّضح بالنسبة للكثيرين".

[1] – أخرجه ابن ماجة في سننه ، برقم: (٢٢٢).

وقال كذلك: "هذه الشريحة، هذا الحقل، هذا القطاع، العلماء تحديداً، تعرضوا لضغوط هائلة جداً خلال الأزمة من أجل تغيير مواقفهم، من أجل التنازل عن قول كلمة الحق، من أجل التنازل عن الأخلاق التي يتحلون بها انطلاقاً من الأخلاق الإسلامية، أو جعل هذا الدين أداة لأجندة محددة يحكمها الدولار أو تحكمها سياسات محددة، ولكن الموقف كان معاكساً تماماً، كان المزيد من الصمود من قبل هذه الشريحة، هذا الصمود كان أساسياً في صمود الشعب، وصمود البلد بشكل عام، وهذا ليس مستغرباً، فالسمة العامة لأدائكم –العلماء والداعيات– خلال الأزمة كانت الوعي والشجاعة والوطنية والإيمان، فعلاً هذا محور مهم، لأن العلماء كانوا يصدحون بكلمة الحق على المنابر رغم كل التهديدات التي تلقونها".

ومن فوائد هذه الأزمة –ورُبّ ضارّة نافعة– تعميق الصلة بين العلماء والدولة، وفرز الدعاة والعلماء بوضوح، وإظهار الصادقين من المنافقين المنتفعين، ولولا هذه الأزمة لم تطهر الساحة الدينية من المنتسبين إليها بغير حق؛ فالعالم الحقيقي لا يمكن أن يتآمر على وطنه، ولا أن يفرَّ منه عند الشدائد. **ولقد أكد هذا السيد الرئيس بقوله:** "فلننطلق من أننا كلنا نتحمل المسؤولية، ولكن بما أن الساحة التي تمّ اختيارها هي الساحة الدينية والساحة الطائفية، فلا بد أن يكون للقطاع الديني –الممثل برجال الدين والدولة، والتي تمثلها وزارة الأوقاف– الدور الأهم، كلنا لدينا مسؤولية خاصة بالنسبة للأزمة، ومع جسامة المسؤولية التي تبدو للكل، ففي كل محنة منحة، وعلينا أن نبحث عن هذه المنحة، هناك أبواب فُتحت في مختلف القطاعات، ومنها القطاع الديني تحديداً، حيث فتحت عدة أبواب، أولها تعزيز العلاقة المتبادلة بين شريحة القطاع الديني الممثل بالعلماء والدولة، فكلنا يعرف أن الحدود بين الأبيض والأسود في بداية الأزمة –بل قبلها– لم تكن واضحة، كان هناك تداخلاً بين الأبيض والأسود لدرجة الرمادي، وبالتالي لم تكن الرؤية واضحة، ثم أتت الأزمة لكي تجعل هذه الألوان واضحة".

وعلى الرغم من المكر والخبث، والأسلحة المادية والفكرية التي استخدمها أعداء الوطن للنيل منه، ومن صموده إلا أن صمود الشعب السوري بكل أطيافه، وصمود العلماء ووضوح رؤيتهم أسقط المؤامرة، وجعل المواقف تتبدل لصالح الموقف الوطني السوري.

على أنَّ صمود السّادة العلماء، وشموخ مواقفهم الدينية والوطنية، ووضوح آدابهم وثبات منطلقاتهم لم يرق لأهل البغي، فحاولوا النيل من شخصيات دينية وعلمية وفكرية وتاريخية شامخة، وابترؤوا على صروح العبادة والتعليم والتوجيه والإرشاد والتقوى والفكر.

لكن النَّصر في نهاية المطاف حليف منهج الحقِّ والعدل وإن طال الزمن، قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

لقد كنَّا نرى النَّصر في مواقف أولئك الذين قَضوا في سبيل قول كلمة الحق، وفي خطبهم ودروسهم وسائر كلامهم، وفي مقدمتهم العلامة الشهيد الدكتور مُحَمَّد سعيد رمضان البوطي رحمه الله، لكن فكر الدكتور البوطي ونهجه سيبقى حيَّاً بيننا، فهو نور تركه لنا، ولن يُطفَأ بإذن الله تعالى، فهو النِّبراس والنُّور والمشعل الذي نترسَّم على ضوئه خُطانا في رحلة الزَّمن في هذه الدُّنيا.

وإنّ المنهج السّديد للدعاة والعلماء في هذا هو قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت"٣٠-٣٢].

ولا ريب في أن الغاية من هذا الإجرام هي شفاه غليل مغيظ، كيداً وتدنيساً وإساءة؛ وطالما قال السادة العلماء قولتهم: إن ما يُسمَّى القاعدة وإرهابها، عضوٌ مصطنعٌ غريبٌ عن جسم أمَّتنا العربيَّة والإسلاميَّة، لا تَنتمي إلى دين، وهي صَنيعة إجرام صهيوني دُبِّر بليل.

وإنَّ محاولة التصدي للكلمة المخلصة الصادقة بأعمال التَّدنيس والإجرام والإرهاب وامتهان ما يجب صيانته، لن يَنال من ثقافة الحياة السويّة والحرِّيَّة الحقَّة التي يَزرعها السادة العلماء في قلوب وعقول الملايين من أبناء الأمَّة العربيَّة والإسلاميَّة على مرِّ الزَّمن، وهم يَتبنُّون قول الحق جلَّ جلاله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٣-٣٥].

خاتمة البحث

إنَّ المسؤولية الدينية والوطنية التي تقع على عاتق الدعاة والداعيات والقائمين على المؤسسات الدينية والدعوية –من ثانويَّات شرعيَّة، ومعاهد متوسطة وعليا، ومجمَّعات دينيَّة، وكليَّات شريعة في الجامعات السُّوريَّة، بالإضافة إلى خطباء المساجد، والمدرِّسين الدينيِّن والمفتين، ومن فعاليَّات أخرى كالتَّدريس الدِّيني النِّسائي، والتَّوجيه والإرشاد ...– مسؤولية كبرى، ومن أولويات العمل: التَّصدِّي للفكر المنحرف والمتشدِّد، وللتَّيَّارات الفكريَّة الضَّالَّة الْمُضِلَّة، والوقوف في وجه محاولات التشويه والتضليل المستمرة من قوى التكفير والظلام، والتَّركيز على تصحيح المفاهيم الحقيقية للمصطلحات الفكرية والعَقَدِيَّة، وتوضيح حقيقة الدِّين من خلال هذه المؤسَّسات؛ لنكون نموذجاً يُحتذى في العالم العربيّ والإسلاميّ باعتبار دمشق عاصمة الحضارة الإسلاميَّة.

وتحميل هذه المسؤولية جاء من خلال عبارات السيد الرئيس فقال: "لا يمكن أن نقوم بكل هذه المهام الجسيمة إلا إذا عرفنا بأن هناك دوراً كبيراً لعلماء بلاد الشام، وأنا لا أقصد هيئة علماء بلاد الشام، ولكنها كانت تكريساً للفكرة، بلاد الشام لها موقع خاص وتعرفون أنه من أندونيسيا إلى تركيا إلى باقي العالم العربي يقولون: "شام شريف" وهذا له معنى قدسي، ولكن هذه التسمية لم تأت من عبث، حقيقة لا أحد قادر على القيام الآن بهذه المهام إلا علماء بلاد الشام، لأن المنطقة المقدسة وهي مكة والمدينة، هي مقدسة ولكن الحقيقة أن المؤسسة الدينية فيها انحرفت عن الدين بشكل كبير وبشكل كامل، وهي غير قادرة بكل تأكيد على القيام بهذه المهمة، بالعكس تماماً هي تقوم بتدمير الإسلام اليوم، أما الأزهر –وله مكانة واحترام– فمع كل أسف لعقود تم تدجينه سياسياً وهذا الشيء خطير، نحن نُريد أن نَفصل الدين عن السياسة، نحن نريد بالفعل مؤسسة دينية تحمل في طياتها التراث الشامي العريق من الاعتدال".

إننا جميعاً مُكلَّفون أولاً بفهم واقع أمَّتنا وظروف عصرنا فهماً لا غموض فيه ولا تحريف، وبعدها تأتي مرحلة تلمُّس الحلول للمشكلات الطَّارئة بما يَتلاءم مع منهج القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة والفهم الصَّحيح لنصوصهما.

راجين المولى عزَّ وجل أن يُهيئ لهذه الأمَّة أمر رشدٍ وعزَّةٍ ومنعةٍ، وأن يكشف عنها الغُمَّة، ويعيد نعمة الأمن والأمان إلى ربوع بلادنا الحبيبة عاجلاً غير آجل، وأن يُوفِّقنا إلى ما يحبُّ ويرضى، إنَّه على ما يشاء قدير.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُون﴾ [النحل: ١٢٨].

والحمد لله رب العالمين

محاولات زرع الفتنة الطائفية في سورية

متى وكيف ولماذا ؟

المحتوى

لا بد من قول في البداية ...

الأشكال التاريخية للانقسامات في الوطن العربي ...
مظاهر الوجود الطائفي في سوريا ...
الطائفية ... لماذا الآن ؟ ...
خطر الطائفية ...
من يقف وراء الطائفية ...
أمريكا والطائفية ...
الحرب الطائفية تعني جملة من الأخطاء ...
هذه هي سوريا ... الحضارة والمدنية ...
مخطط تفتيت سوريا قلب الإسلام والعروبة ...
وبقيت سوريا ...
معالجات الاحتقان الطائفي في سوريا ...
الطائفية والتطرف الديني ظاهرة خطيرة ...
تحريم القتل بغير حق في الشريعة الإسلامية ...
نصيحة في الله ...
وختاماً لا بد من القول ...

لا بد من قول في البداية

ما الذي يَجري في الوطن العربي ؟ كَيف يَجري الانتقال السريع من التمحور تجاه قضايا الصراع الأساسية إلى صراعات جانبية طائفية ومذهبية وإثنية ، تأخذ سمة التناقضات الرئيسية ، وتتخذ شكل القنابل الموقوتة ، وقد بَدأت تتفجر في أكثر من ساحة عربية ، وهي قابلة للاشتعال كعدوى فيروسية في أقطار عربية جديدة .

إنها سايكس بيكو الثانية التي لم يَجر الإعلان عن عَقدها وتوقيعها ، لكن يَجري تَطبيقها بتسارع كبير في البلدان العربية ، وكأنها مُهيأة منذ وقت طويل لهذا الأمر .

هذه الصراعات الجديدة بَدأت تنخر الجسد العربي ، وتشي آفاقها بإمكانية هَيمنتها على كل الصراعات الرئيسية الأخرى والتحديات الكثيرة والكبيرة الخارجية والداخلية أيضاً .

مارد الطائفية والمذهبية البغيض يَعود من جديد

الإشكالات المفاهيمية:

لعل موضوع "الطائفية" واحد من الموضوعات التي شهدت نوعاً من الخلط المفاهيمي والتداخل في المعاني ، والاصطلاحات الذي لم يَردها إلا غُموضاً ، وقد دَفع ذلك إلى تأزيمها بل تفجيرها . وفي سبيل تَوضيح حقيقة هذا المفهوم لا بُدَّ مِن مُمارسة عَملية نَقدٍ وَتَفكيكٍ للبنية المفاهيمية التي يُمثل مفهوم "الطائفية" جُزءاً مِنها وأحد أركانها .

الطائفة والطائفية:

مفهوم "الطائفية" مَفهومٌ مُشتَقٌّ مِن جَذرٍ مُتحرك ؛ فهو مَأخوذ مِن "طاف يَطوف طَوافاً فهو طائف" ؛ فالبناء اللفظي يَحمل مَعنى تَحرك الجزء مِن الكل ، دُون أن يَنفصل عنه ، بل يَتحرك في إطاره وربما لِصَالِحه ، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُل فِرْقَةٍ منْهُمْ طَآئِفَةٌ لِيَتَفَقهُواْ فِي الدينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلهُمْ يَحْذَرُون﴾ [التوبة: ١٢٢] ، وهو أيضاً مَفهوم يُشير إلى عدد قليل من البشر ؛ إذ لا يَتجاوز – لغة – الألف من الأفراد ، ومِن ثَمَّ فإن هذا المفهوم في جَوهره يَتضمن فِكرةَ الأقلية العددية الصغيرة المتحركة في إطار الكل المشدودة إليه ، بِغَضِّ النظر عن دينها أو عِرقها أو لغتها ... إلخ ، فهو مَفهومٌ كَمِّيّ عَددي لا غير ؛ لذلك ظَلَّ اللفظ يُستخدَمُ لِيُشير إلى كيانات مُختلفة مُتعددة في خصائصها ، ولكنَّ القاسمَ المشترك بينها هو القلة العددية ، فَقَد أُطلق على جُملة من المقالات أو الآراء – نسبة إلى ما كانت الأكثرية تتبناه – "طوائف" ، مِثلَ طائفة المعتزلة ؛ ثم لَمَّا حَدثت مَقالاتٌ حَولها انقسمت هذه الطوائف في داخلها سميت طوائف أيضاً ، مِثل الإمامية والزيدية ونحوهما ، ثم انقسمت هَذه بِدَورها إلى مجموعات سُميت "طوائف" كذلك ، ولم يَبرز هذا المفهوم باعتباره إشكالية أو أزمة إلا في القرنين الأخيرين خاصة ، وذلك تَحت تَأثيرِ عَوامل داخلية وخارجية في ظرف تاريخي مُعين سُاعد على

إحداث نَوعٍ مِنَ التطابق بين الأمراض الداخلية والمؤثرات الخارجية ، فالعربي تَعامل مع اليهودية والمسيحية والإسلام تعامله مع اختلافات اعتقادية لا تَعني المفاصلة والعداء ، أو تهديد وحدة الكيان والخروج عنه ، أو محاولة الانتماء لكيان آخر خارجه ، أو السعي للانفصال عنه فقط بحجة الاختلاف في العقيدة ، ومِن أقدم النصوص العربية الإسلامية في هذا المجال "وثيقة المدينة" ، تلك هي أبرز الانقسامات التي شَهدها التطور التاريخي العربي إلى ما قبل الحملة الفرنسية على مصر والشام .

وكما بين لنا التاريخ ، لم تَكن هذه الانقسامات عنصرَ تهديد لوحدة الكيان العربي ، أو مبرراً للتمايز والانفصال والتمزق بين أبنائه ، أو وسيلة للاختراق من قبل الآخر ؛ فالمسيحيون العرب لم يُعلِنُوا – على سبيل المثال – مُناصرةَ الصليبيين في حَملاتهم على البلاد العربية ، ولم يَتحالفوا معهم حتى في لحظات انكسار المسلمين .

ثم مُزِجَ مَفهوم "الطائفة" ذات المكون العددي مع مَفاهيمَ أُخرى ذات مَضمونٍ فِكري أو فلسفي أو عرقي أو مذهبي أو ديني ، فتحول إلى ما يُشبه "المصدر الصناعي" في لُغتنا ، لِيُفيد معنى الفاعلية الخاصة بالأقلية العددية ، والمنفصلة عن فاعلية الأُمَّة ، وبذلك أصبح مَفهوم الطائفة يُستخدم بَديلاً لمفاهيم الملة والعرق والدين التي كانت سائدة قبل ذلك ، واختلطت هذه المفاهيم جميعاً في بِيئةٍ مُتأزمَةٍ فِكرياً وسياسياً وثقافياً ، فأنتجت مَفهومَ "الطائفية" كتعبير عن حالة أزمة تَعيشها مُجتمعات عَربية وإسلامية تكاد تَكون شَاملة لمجموع المحيط العربي والإسلامي كله ، مِثل لبنان والعراق واليمن وسوريا والسعودية ودول الخليج وإيران والباكستان وأفغانستان ، حيث تحول الجزء إلى كل ، والبعض إلى كيان مُستقل ، وأصبحت الطائفية مَذهباً وأيديولوجية وهوية حَلت محل الهويات الأخرى والانتماءات الأعلى ، بل وبدأت تتعالى عليها ، وقد تُبدي الاستعداد للتقاطع معها ، وأخذ موقعها .

الفرقة والمذهبية:

يُشير مَفهوم "الفِرقة" أيضاً إلى الدلالات العددية ، وإن كان يُؤدي إلى معاني التفرق والانفصال دون تجاوز الجذور ، كما أن مَعنى التَّفرقة فِيه أكثر من الطائفية ، وعلى الرغم من ذلك استُخدم مَفهوم الفرقة في الخبرة الحضارية العربية للدلالة على مَعان فِكرية واعتقادية ومَذهبية ، فالمسيحية

تَنقسم إلى فِرَق ، وكذلك الإسلام ، ومِن ثَمَّ فإن هذا المفهوم لا يَحمل أية دلالات عرقية ، أو دلالات تُعطي معنى التناقض الكلي أو الخلاف الشامل بين الفِرق ، حتى عِند مَن يَشترط قَبل ذلك وَحدة جامعة تظهر بَعدها أنواع من التفرق ، إلا أنه في عُصور الانحطاط الحضاري تَحولت الفِرَقُ إلى مَذهبيات مُنفصلة مُتعارضة مُتعادية ، خُصوصاً بعد الصراع العثماني الصفوي الذي استمر قُرابة ثَلاثة قُرون ونصف ، فتحولت الفِرق إلى مَذهبيات أو أيديولوجيات مُتناقضة تَعمل على تَحذير خِلافاتها بِحيث لا يَكون هُناك مَجال للتلاقي أو الوصال أو التفاعل أو التحاور .

وقد يَحل بعض الكُتَّاب مَفهوم "الفرقة" مَحَلَّ "الطائفة" ، ويُضفي عليها المعاني ذاتها .

الأشكال التاريخية للانقسامات في الوطن العربي

إن النظرة الكلية لِتاريخ الانقسامات في الوطن العربي تُبين لنا أن هُناك مَرحلتين مُختلفتين في تاريخ الانقسامات في هذه الأمة:

أولاهما: مَرحلة الانقسامات طبقاً لمفاعلات داخلية: وهذه هي المرحلة الطبيعية التي تَكَوَّن خلالها الكيان العربي وتَطور ، ومِن ثَمَّ حَدثت انقساماته الداخلية طِبقاً لعوامل ذاتية نَابعة من داخله في مضمونها ، تِلقائية في تأثيرها والتفاعل معها ، وأهم هذه الانقسامات:

الانقسامات المذهبية: ويُعتبر هذا النوع من الانقسامات تَطوراً طَبيعياً في أي نَسقٍ مَعرفي ، حيث لا يُمكن أن يَجتَمِعَ الناسُ على فِكرة واحدةٍ بِصورة مُطلقة ، وحيث إن التعدد الفِكري بَين الناس طَبيعيٌّ في مَصدره ، ووظيفي في غَايَتِه ؛ لذلك كانت الانقسامات المذهبية للأمة الإسلامية بِصفةٍ عَامة وفي الكيان العربي بصفة خاصة مَسألة لا تَقضي على الوحدة ، ولا تؤدي إلى التمزق أو التشرذم في ذاتها ، وما لم تَكن هناك مُؤثرات خَارجية تُعَجِّل بالتمزق أو تُسرع به ، ولا يَكون لهذه الانقسامات تأثير سلبي .

الانقسامات المللية: طِبقاً لما سَبق تَأكيده في مَوضوع الانقسامات المذهبية ، فَإِنَّ الانقسامات إلى مِلَلٍ في إِطَار الإيمان بِثوابت دِينية وَاحدة كانت أمراً طبيعياً وتطوراً تلقائياً ، ولم تَكن سبباً للتمزق أو الانقسام والتشرذم .

ثانيهما: مرحلة الانقسامات طبقاً لمفاعلات خارجية: تُؤكد دائماً أدبيات التكامل والاندماج المجتمعي والوطني على أن الانقسامات الاجتماعية الطبيعية – مثل الانقسامات القبلية والإقليمية

واللغوية والثقافية والطبقية – لا تُشَكِّل تَهديداً للمجتمع طَالما ظَلَّت دُون تَفعيلٍ في وَعي الجماعة ، وطالما لم يَتطابق مِحوران للانقسام مَعاً ؛ فَالانقسام الإقليمي مَثلاً مَا لم يَمتزج مَعه نَوعٌ آخَر مِن الانقسامات – مِثل اللغة أو الدِّين أو الوَضع الاقتصادي – لا يُمثل تَهديداً لتكامل المجتمع واندماج مكونات الأمة ، فَوُجود مجموعة من دين مُعين في دَاخل مُجتمع مِن دينٍ آخر لا يُمثل تهديداً لِتكامل المجتمع في ذاته ، وإنما يَظهر التهديد عندما تُصبح هذه المجموعة ذَات لغة مُستقلة أيضاً ، أو تُصبح مُضطهدة سياسياً أو فَقِيرةً اقتصادياً أو مَعزولةً إقليمياً . ولذلك ظَلَّت الانقسامات الطبيعية في الوطن العربي دُون تَفعيل ودون تَأثير حتى النصف الثاني من حَيَاة الدولة العثمانية في طور انحدارها وتَدهورها سياسياً وحضارياً ، حَيث بَدأت الانقسامات تتطابق ، وبدأ يتم التعامل مع العرب كلهم كموضوع للحكم وطرف أدنى ، كما بَدأ التعامل مع بعض الطوائف العربية كأقليات مُورِسَ ضِدها نَوعٌ مِن الظلم ، أو تَمَّ تَغذيةُ شعورها بأنها مُخالفة ، أو أنها جُزء خَارج المجتمع ، أو أن لها وضعاً سياسياً خاصاً ... إلخ .

كل تلك السياسات أدت إلى تَفجير الشعور الطائفي ، ثم جَاءت مَرحلة النفوذ الأجنبي ، وادعاء الدول الأوربية – الطامعة في ممتلكات الرجل المريض – أنها حَامية لأقلياتٍ مَسيحيةٍ في الشرق العَربي ، ثم كان الاستعمار والتقسيم ، وتغذية عَوامل وعناصر التفرق ، وتضخيمها ودفعها لتحتل مُقدمة الوعي الثقافي العربي ، وكانت ذُروة المشكلة في حلولها ، سواء الحلول القَومية التي بَذرت النزعة الذاتية لدى الكيان العربي ضد الدولة العثمانية ولم تَستطع أن تُوقِفَ نمو الشعور القومي بمعانيه الذاتية الخصوصية الضيقة عند حدود العرب ، بل نما هذا الشعور وتطور داخل مكونات الأمة العربية ، وبَدأَت تُثَار قضايا أخرى ، مثل الفرعونية والفينيقية والبربرية والمارونية والقبطية ... إلخ ، وقد تمثلت عناصر تَفجير الانقسامات في هذه المرحلة في القضايا التالية:

مظاهر الوجود الطائفي في سوريا

لم يَكن للمرء حقيقة أن يَلحظ أن ثَمة مُشكلاً طائفياً حاداً في سوريا إلا في أعقاب دخول الجماعات الإرهابية المسلحة إلى القطر ، وتَرويع الآمنين ورفع شِعارِ المذهبية والطائفية ، وَتَكوين الجماعات القتالية والألوية المسلحة ، كما أن إنشاء المنابر الإعلامية والفضائيات ، وتأسيس الميليشيات وأعضاء "الجيش الحر" أيضاً إنما تَمَّ بالاحتكام إلى مَبدأ الطائفية الذي بَات مَصدرَ

الهوية والانتماء ، والعُنصر المحدد للتباري على السلطة وبلوغ سُدَّة الحكم ، ولم يَقتصر الأمر عند حَدِّ اعتماد المحاصصة الطائفية كَنمط في تحديد آليات اللعبة السياسية الجديدة ، بل اتُّخِذت الطائفية كَمرتكز أساس ، وباستِحضَارِهِ أُفرغت العَديد من الوزارات والجامعات مِن كوادرها ، لِتُعَوَّضَ بِمُقربين من الطائفة ، واعتَمَدت سياساتٍ في التهجير والتطهير والتصفيات أوجدت خلفها ميليشيات لم تَعرف مِن الولاء إلا ولاء الطائفة والعشيرة أو الحزب المعبر عنهما شَكلاً ومَضموناً ، بل قُل إن السقف الطائفي والمشترك العقائدي هُوَ الذِي أضحى الخَيط النَّاظِم للعملية السياسية التي ارتضت لِنفسها الاشتغال مِن بَين ظَهراني الاحتلال ، وتحت حمايته وعلى هَديٍ من توجيهاته . وعلى هذا الأساس ، فإن عُنصر الهوية – المرتكز على العروبة والإسلام والانتماء للوطن الواحد – قَد تَحَوَّل لِيَتخذ لَه مِن الركيزة الطائفية المرجعيةَ والفلسفةَ ... والهويةَ أيضاً .

لَيس مِنَ المبالغة في شيء القول بأننا إزاء شَرخ في التركيبة الاجتماعية يَبرزُ مَشهدها العام كما لو أن الكل بَات مع الكل ضد الكل دُونَما فَارِزٍ جَوهري ، اللهم إلا فارز الطائفة أو العشيرة أو القبيلة أو المذهب الديني بصورة بدائية قاتمة أو مُتخذة لها تلوينات سياسية في إطار الحزب أو الجمعية أو الهيئة أو التكتل العقائدي ، وهكذا ... لكنها بالأساس عُنصر تَنَاحر وتمنع يُتَقاتَل بموجبها أبناء الوطن على خلفية من الانتماء البدائي للطائفة أو للعشيرة أو للقبيلة أو لغيرها . إنها – الطائفية – غَدت العُزوة بامتياز ، بالاتكاء عليها تَتحدد مَوازين القوة ، وبالركون إليها يُؤَشَّرُ على قوة هذا الطرف أو ذاك .

الطائفية ... لماذا الآن ؟

لعله يُمكن الجزم بأن أكبر وأخطر مَرض يُهددُ الإنسانية مُنذُ نَشأتها وحتى الساعة هُوَ دَاءُ الطائفية والتعصب ، والذِي عَرفته كل العصور وعَرفته كل الأمصار مُنذ زَمن بعيد ، حتى قبل ظهور الأديان التوحيدية ، لا سيما وأن الطائفية أنواع ، مِنها ما هو دِيني ، ومنها ما هو سياسي أو عرقي أو أيديولوجي ، وجميعها في نهاية الأمر تَصبُّ صَباً في دائرة الانتقاص مِن أضداد الطائفية ، أي من المواطنة والتعددية . ولكن لماذا يَكتسب الحديث عن الطائفية اليَوم بُعداً خَاصَّاً مُتميزاً ؟

السبب واضح وبسيط ، وأغلب الظَّنِّ مَرده إلى أن أحوال منطقة الشرق الأوسط الآنية ، وما تمر به من ثَورات وفَورات ، بَدأت سياسية تحررية ، ولاحقاً نَحَت مَنحى طائفياً مَذهبياً غير سديد ، ومعلوم للكافة أن صِراع الطائفية المرتكز على المطلقات والروحيات والأديان هو أشدها فَتكاً ، ولا يَغيب عن نَاظِرِ القارئ اليَوم أن العَالم العَربي تَحَوَّل في العامين الأخيرين مِن صراع الأحزاب والنظم السياسية إلى مُواجهةِ ومُجابهةِ التيارات الدينية ، وتكاد المنطقة تَشتعل مِن جَراء تلك المخاوف مِن أنواع الطائفية ، وهو بالفعل أخطرها ، وهو المبني على أحجار زاوية دِينية عَقائدية ، وهُنَا الطَّامَّةُ الكبرى ... لماذا ؟ لأن الأديان تَنزيلٌ إلهي لا يَقبلُ الصِّراع ، في حِين أن السياسة من أعمال البشر ، يُؤخَذُ مِنها ويُرَدُّ عَليها ، ولذلك فَالطائفية الدينية أو المذهبية تَسعى إلى القَضَاءِ على الآخر ، فَلا عَيش ولا تَعايش مع تلك الطَّائفية ، وهذا المثل البَالِغ السُّوء يَظهر جَلياً في بِلادٍ مثلَ باكستان والعراق ، حيث نَرى تَفجير المساجد السنية والشيعية بالتبادل ، في إشارةٍ إلى عَدم إمكانية قَبولِ فِكرة عَيشِ الآخر المخالف عَقائدياً ، مَع ما يَستتبع ذَلك من تَعميقٍ للكراهيات و تأصيل للعداوات ، وَالدَّولة التي تُعاني من المذهبية الطائفية هِي دَولةُ نَاقِصَة ، حَسبَ وَصف "كارل ماركس" للدولة التي تُحابي جماعة إثنية أو مذهبية على حساب بقية الجماعات ، ولعل ما يجري في سوريا الآن – وبَعض مما يَجري في العراق ، والكثير مما جَرى في لبنان طوال العقودَ الماضية – هُوَ صُورة واضحة كل الوضوح لمثل تلك الروح المذهبية التي تُسَيِّسُ الحياة العامة للأسف الشديد .

خطر الطائفية

تُعتبر الطائفية مِن أكبر المخاطر التي تُعاني منها مجتمعات عربية وإسلامية مُتعددة ، الأمر الذي بات يُهدد الوَحدة الاجتماعية والنَّسيجَ المجتمعي في هذه البلدان ، فَالدولة الحَديثة لا تَتحقق إلا بِالقضاء على الأمراض الاجتماعية التي تُهدد البُنية الثقافية فيها ، وأولها الطائفية والقبلية .

الطائفية تعني الإيمان بالحقيقة الاصطفائية المطلقة التي تَجعل الإنسان يَعيش في إطار ديني ضَيق جداً ، ويُبغض جَميع الأديان والمعتقدات والأفكار الأخرى ، ويُبغض جَميع البَشر والجماعات الذين لا يَتَّفِقُون مع المعتقدات والأفكار التي يُؤمِنُ بها ، ويَرى أنها – أي طَائفته – الطريق

الوحيد للنجاة في الفردوس السرمدي ، وقد يتحول هذا البُغض بفعل التجييش العاطفي إلى ممارسة تطبيقية وفعل عنيف .

حيث إن الطائفية تَفرض على الإنسان أن يَعيش داخل سِيَاجٍ دُوغمائي مُغلق ، ويُحيط نفسه بمجموعة كبيرة من التابوات المحرمة التي لا يجوز انتهاكها أو الاقتراب منها ، أو حتى التساؤل حول صِحتها ، وبهذه النظرة إلى الذات والآخر المختلف وقعت الحروب الدموية التي كَلَّفت البشرية الملايين من الضحايا الأبرياء الذين لم يَسمعوا يَوماً عن الاختلافات اللاهوتية أو المساجلات الجدلية بين الأديان والمعتقدات المختلفة ، وإنما شاءت الأقدار أن يَخرجوا إلى الدنيا وهم يُؤمنون بهذا المعتقد أو ذاك .

يَرى عَالم النَّفس الأمريكي "وليم جيمس" بأن العَقل البَشري جُزئي ومُتحيز بِطبيعته ، ولذلك فإنه لا يَنظر إلى الأحداث التي تَقع إلا حَسب الحقيقة التي يُؤمن بها ، ويَرى بأنها تُمثل الصواب ، فهو عِندما يَرى نِزاعاً يَدور في مِنطقة مَا ، فإنه لا يَبحث عَن طَبيعة هَذا النزاع وخلفياته السياسية والاقتصادية والعسكرية ، وإنما يَنحَازُ بِشكل مُباشَرٍ إلى الطَّرَفِ الذِي يَتمثَّلُ في طائفته ، وربما يتجاوز مُجرد الانحياز إلى المشاركة في الحدث وهو يحسب أنه ينتصر للحقيقة ، ولكنها حقيقته هو فقط ، وقد تكون الحقيقة – أو الجزء الأكبر منها – عند الطرف الآخر .

من يقف وراء الطائفية

إن الفتنة الطائفية والمذهبية ليست بجديدة على العالم العربي والإسلامي ، وإنما هي ظاهرة شَهدها تاريخ المسلمين في وقت مبكر ، وما فتئت رياحها منذ ذلك الوقت تَهب بين فترة وأخرى بفعل عوامل مُتجددة تارة ومضافة تارة أخرى ، وتغذيها التطورات الفِكرية والاجتماعية والسياسية بما يُوقِدُ جَذوتها أو يَزيد في لهبها . ولها في كل أَشواطِها خَطٌّ بَيَاني مُتحرك حَسب الظُّرُوف والملابسات ، وقد تحركت الفتنة الطائفية والمذهبية في التاريخ الحديث للعرب والمسلمين أكثر مِن مرة ، وتفاوتت شِدة وضعفاً ، ونجدها تتحرك في حاضرنا حَلقة من سلسلة مُتصلة .

إننا حِين نَتَفَحَّصُ هذه الظاهرة ونَدرس أسبابها والعوامل المحركة لها أمام مَجموعة من العوامل نَجد أن هُناك عَاملاً خارجياً ، حَيث تتحرك قُوى مُعادية للأمة تهدف إلى تَمزيق نَسيجها الاجتماعي ، وإثارة النَّعَرات في داخل هَذه الأمة ، فَتَخلق فِتنة مَذهبية وطائفية ، مِن خِلال كَلمةٍ هُنا وكَلمةٍ

هناك ، وعمل هنا وعمل هناك ، وفِعل هنا يَتبعه رَدُّ فِعل هناك ، فَتُهيج المشاعر وتُشعل النفوس وتُضرم نيران الشحناء ، والهدف وراء ذلك هو إضعاف هذه الأمة وإعاقة وحدتها ، والمنع من تماسكها ، وإشغالها بِصراعٍ دَاخلي يُشتِّتُ جُهدها ويَحرفُ مَسارها عَن مُواجهةِ أَعدائها .

ويَجِبُ أَلا نَستهين بِهذا العَامل بِحُجَّةِ عَدم الاعتقاد بِنظرية المؤامرة ، فالمؤامرة مَوجودة ، وهي وإن لم تُفَسر لنا الأحداث كَعَامِلٍ وَحيد ، لَكنها إِحدى العَوَامِلِ التي تَتحرك في سَاحَتِنَا وَتُحَرِّكُ أَحداثها .

إن قوى الهيمنة تَتحدث عن خريطة جديدة للمنطقة تَقوم على التقسيم والتفتيت ، وتَعتَمِدُ الأسس الطائفية والعِرقية في ذلك ، فلا يُمكننا إغفال دورها في إِثارة مِثلَ هذه الفتن .

كما أن الصهيونية التي تَمر بمنعطفات حَرِجَة – سواء مِن حيث مَوقف الرأي العام العالمي مِن العنف والعنت والتعسف الإسرائيلي – وكل ذلك يُحتم علينا أن لا نُغفل الدور الصهيوني في إثارة الفتنة الطائفية الرامي لتخفيف الضغط عنه تارة ، وصَرفِ الأنظار تارة أخرى ، وإِشغَال الآخرين ثالثة ، وافتعال صِراعات يُمكن استغلالها وتوظيفها لصالح إسرائيل في صراعها مع الأمة .

ومن جانب آخر – وهو لا يقل أهمية عن الجانب السابق – قوى التطرف التي ليس لها من سعة الأفق ولا من سعة الصدر ما تستوعب معه الآخر ، وهي تعمل من مُنطلق احتكار الحقيقة كما تراها هي ، وتؤمن بأن ما تَراه صواباً فهو لا يحتمل الخطأ ، وما تراه حقاً فهو لا يحتمل الباطل ، وأنَّ ما يَراه غيرها فهو خطأ لا يحتمل الصواب ، وباطل لا يحتمل الحق ، فَتُحَرِّكُ مِن مَوقع الانغلاق صراعاً يُثير فتنة ، وطالما لَعب هذا العامِل دَوراً في إذكاء الفتن .

إن للعقليات المريضة المعبأة بالتطرف والتعصب والانحراف ، والنفوس المريضة الملتهبة بالحقد ، دَوراً لا يُستهان به في إثارة الفتن ، كما أن ثقافات مَوجودة في كثير من المدارس والمذاهب تَصنع عَقلية تُغَذِّي الفِتنة أو تُؤدي إِليها ، وتَضرِبُ أُسُسَ التَّعَايُشِ الذِي يَجِبُ أَن يَكون بَينَ النَّاس ، فَتُشعل الصراعات هنا وهناك بين حين وآخر .

كذلك عَدَمُ شُيوع ثقافة صحيحة في التعاطي مع التعددية المذهبية والطائفية ، فبدلاً من التعامل مع هذا التنوع كعامل من عوامل الغنى الفكري والسعة العملية ، يَتم التعامل مَعه كعامل من عوامل الانقسام والخصومة ، وبدلاً من حَصر النزاعات في إطار الحوار العِلمي البَنَّاء ، يَتم سَحبها إلى الشَّارع وتحريكه وإثارته ، مُضافاً إلى عَدم الموضوعية في النَّظَرِ إلى الخلافات وإدارتها ،

والنتيجةُ وجودُ صِراعات سياسية تَأخذ طَابعاً طَائفياً ، أو تُوظف العامل المذهبي والطائفي لِتحقيق أغراض سياسية ، فهي عَامل مُهم مِن عَوامل الفتنة الطائفية والمذهبية .
لكن ما يَنقصنا هُو الثقافة الصحيحة للتعاطي مع مثل هكذا أمور .

أمريكا والطائفية

تتحدث السياسات وَالأفكار الأمريكية المطروحة على السَّاحَة العَربية – مِن خِلال الإعلام وعبر أبواق الولايات المتحدة – عَن المساواة وحُقوق المواطنة والعلمانية ، وفَصَل الدين عن الدولة ، وما شابه ذلك ، ولكن الممارسة الأمريكية الفعلية في واقع الأوضاع السياسية في الوطن العربي تُكذب هذا الزَّعم ، وتُشير إلى أن أمريكا تَنطلق في هذه الممارسات مِن مَوقفٍ يُكَرِّس الطائفية والمذهبية والعنصرية في أَشد صُورها تَخَلُّفَاً .
وقد تَرَنَّحَت هذه السياسة المتناقضة التي تُمثل أحد أبرز جوانب ما أصبح يعرف بازدواجية المعايير في المواقف الأمريكية إلى حَدٍّ أَنها وَصلت في العراق إلى تقسيم المسلمين إلى طائفتين أو ديانتين مُتصارعتين هما السنّة والشيعة ، وذلك عِندما لم تَجد أَقليات مَسيحية ذات وَزن عَددي يَسمح بإجراء لُعبة الطائفية مَعها ، كما لم تَجد أي دَيَانَات أُخرى بنفس الغَرض .
ويَدل هَذا على أن الاعتماد على القِسمة الطائفية كأساس لِتحقيق أهداف السياسة الأمريكية قد أصبح أمراً أصيلاً عِند سَاسَةِ الولايات المتحدة وصانعي قَرارها .

الحرب الطائفية تعني جملة من الأخطاء القاتلة

- أنها تَعني قَتلَ الناس على أسمائهم وهوياتهم الشخصية ، بِغض النظر عن مَواقفهم وأفعالهم ، ومِن دون تمييز البريء عمن سواه ، وهذا عين الظلم .
- أنها تَعني سَفك الدم الحرام والتسبب في سفك الدم الحرام المقابل ؛ فمن سَبَّ آباء الناس جَلب السَّبَّ لأبيه ، ومن قتل آباء الناس وأبناءهم قَتل الناسُ آباءه وأبناءه ؛ إذ لكل فعلٍ رَدة فعل ، وهكذا يتسع الخرق وتُزهَقُ الأرواح ، ويَقَعُ الإسراف في القتل إلى أن يَشمل الجميع ، ويُقتَلُ الإنسان ولا يَعرفُ لِمَاذَا قُتِلَ وَفِيمَا قُتِل ، وهذا مَا لا نُريده ولا نُقِرُّه ولا نَرضاه لجميع المسلمين فَضلاً عن البلد الحبيب سورية ، قال الله تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ

الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾ [الإسراء: ٣٣] ، قال أهل العلم في قوله: ﴿فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾ أي لا يُسرف وَلي المقتول في القتل ، فَيَقتَصَّ مِن غير القاتل .

جرائم الجماعات المسلحة المتطرفة

لقد عَمدت الجماعات المسلحة إلى أساليب الاغتيال والتهديد والتهجير والإرهاب التي طَالت أئمة المساجد والعلماء والأطباء والأساتذة والطيارين ، وكل قُوى الشعب السوري الرافضة للغزو ، وقد تم تهديد وتهجير مئات العوائل مِن مَساكنهم في مُحافظات عِدة في البلاد ، وذلك لتنفيذ حَربٍ طَائفية قَذِرةٍ ضِد أهل السُّنَّةِ والشيعة مِن المدنيين وغيرهم على السواء .

كما أنَّ تَغييب الصوتِ العاقل والمعتدل ، ولغةِ التفاهم والحوار العلمي والوطني ، واستبدالها بلغةِ الرصاص وقطع الرؤوس ، هو أحد عوامل تفاقم الوضع الطائفي في سوريا ، وظهور الإمَّعات ونفعيي الأحزاب ، والمرضى نفسياً ، والحاقدين والغرباء ، وبَعض المرجعيات المشبوهة ، وسيطرتها تماماً على العديد من مُقدرات البلاد ، وتهميش وإقصاء وقتل المثقفين والوطنيين والمعتدلين وبعض المراجع العاقلة والحريصين على مَصلحة البلد ؛ ففرغت الساحة وضعف الصوت الوسطي الهادئ ، وعَلَت أصوات الغَوغَاءِ والهَمج الرِّعَاع ، وسادت لغة العنف والتهديد ، وشراء الضمائر والأقلام بالأموال والمناصب والرِّشى ، فباض هذا التوجه وعشعش وفرخ في بلادنا ، وتحول بمرور الوقت إلى ما يُشبه "عصابات المافيا" التي تُخرس كل صَوت يَقف في وَجهها إن بالترغيب أو الترهيب .

هذه هي سوريا ... الحضارة والمدنية

لا تُوجد دَولة في العالم – تَحتضن مَذاهب وأدياناً مُختلفة ، وتعيش وحدة اجتماعية وتجانساً مَذهبياً – مِثل سوريا ، وهذه الوحدة والتجانس ليست وليدة اللحظة أو الأمس ، وإنما جزء لا يتجزأ من الشخصية السورية منذ مِئات السنين ، ولم يَحدث في التاريخ السوري – لا قديماً ولا حديثاً – أن وقعت حادثة قَتلٍ وَاحدة بِسبب اختلاف مَذهبي أو تعصبٍ لطائفة ، بفضل هذه الثقافة الاجتماعية التي يَفخَرُ بِها كُل مُواطن ومُقيم في هذا البلد .

وذلك لأن سورية تَقع في مَوقعٍ مُهم بين الشرق والغرب ، وبهذا فإن سورية شَهدت عَدداً مِن أقدمِ وأهم الحضارات على وجه المعمورة ،كَما دَلَّت على ذلك الاكتشافات الأثرية التي يَعود بَعضها إلى

ما يَزيد عن ثمانية آلاف عام قبل الميلاد ، ولا تَكادُ مِنطقة من مَناطق سورية تَخلو من المواقع الأثرية التي تَعود إلى فترات زمنية مُختلفة ، حَيث يَبلغ عدد الحضارات التي تَعاقبت على الأرض السورية أربعين حضارة .

وحسب الموسوعات العالمية يَعتبر علماء الآثار سورية مَركزاً لإحدى أقدم الحضارات على وجه الأرض ، فهنا كانت بِداية الاستيطان البشري ، وتَخطيط أولى المدن ، واكتشاف الزراعة ، وتدجين الحيوانات ، وانتشار المعرفة ، وابتكار الأبجدية . وهنا اكتُشِفَ المنجل الأول والمحراث الأول ، وهنا قامت المدن الأولى والممالك المتحضرة والمتفوقة عملياً واقتصادياً على كثير من دول العالم القديمة في التاريخ .

وتضم سورية مُدُناً كَثيرة تَعود لحضاراتٍ وحِقَبٍ تاريخيةٍ مختلفة ، مثل مَمَالِك إيبلا ماري ، وأوغاريت ، وراميتا ، والبارة ، ودورا أوربوس ، وسرجيلا ، وكرك بيزة ، وجرارة ، وقاطورة ، وعين دارة ، وشمس وباصوفان ، والنبي هورى ، وأرواد ، وقطنا ، وشهبا ، وبصرى ، وقنوات ، وصلخد ، وأفاميا ، وغيرها العشرات من المدن .

وقامت فوق الأرض السورية حضارات عديدة عَبر حِقَبِ التاريخ القديم ، تركت تلك الحضارات بصمات لم يَمحها الزمن على ثراها ، وهي تجعل مِن سورية بَوابة للتاريخ . ومن الحضارات الشهيرة في التاريخ: السومرية والأكادية والكلدانية والكنعانية والآرامية والحثية والرومانية والنبطية والبيزنطية والعربية . ويُؤكد الباحثون أن سورية اليوم بما تمتلكه من تُراث وآثار خلاصة لتاريخ العالم .

وكانت مُدن سورية ذات أمجاد تاريخية في العصور الرومانية والبيزنطية ، واستمر العصر البيزنطي في سورية من عَهد الامبراطور "قسطنطين الكبير" في القرن الرابع الميلادي ، وحتى الفتح العربي الإسلامي لسورية في عهد الإمبراطور "هرقل" عام 636 م ، وانتصار العرب في معركة اليرموك .

وفي العصر الأموي أصبحت سُورية أهم حَاضرة ثَقافية وأدبية وعِلمية وصِنَاعية وعمرانية ، ومَركزاً ومَنارة عَالمية ، ويَشهد عَليها فَنُّ العمارة الذي انتقل من سورية إلى جميع البلاد الإسلامية شَرقاً وغرباً ، مِن دمشق وحلب والرصافة وصولاً إلى قُرطبة والزهراء في الأندلس .

ثم جاء العصر العباسي ، وبعده الدول المتتابعة ، ومنها: الفاطمية والزنكية والأيوبية والمملوكية .

ثم جاء العثمانيون في عام 1516 م ، وإثر انهيار الدولة العثمانية قامت مملكة سورية عربية ، لكنها لم تَستمر طويلاً ، حيث احتلت القوات الفرنسية سورية في عام 1920 م ، وقد كان لِكل حقبة من هَذه الحِقب انجازاتها العمرانية والحضارية التي لا تَزال تَشهد على الفنون المعمارية الخاصة بكل حقبة .

ثم مَرت سورية بفترة انقلابات بين عامي 1949 و 1954 م ، وشهدت نَوعاً من الاستقرار حتى عام 1958 م ، عِندما قامت الوحدة مع مصر بطلب من الشعب السوري ، ثم مرت بفترة دُعيت بالانفصال عن مصر بدأت في عام 1961 م ، ثم شهدت سورية اضطرابات عديدة في فترة الانفصال حتى قيام ثورة آذار عام 1963 م .

وبَدأ تاريخٌ جَديد لِسورية في 16 من تشرين الثاني 1970 م بقيام الحركة التصحيحية ، وفيه شهدت سورية استقراراً واضحاً ونهضةً حَضارية عمرانية واقتصادية ومدنية حديثة ، تواصلت فيها انجازات الحاضر مع أمجاد الماضي .

وختاماً نقول:

الفكر السوري – كان وما زال – يَتمتع بانفتاح كَبير تِجاه كل فِكر إنساني ومستقبل لِذهنيات الشعوب كافة ، وهذا ما نجده واضحاً الآن مِن خلال رُدود أفعال السائحين القادمين إلى سورية ، والذين يُفاجَؤُون بِوجود ما يُعبر عن حضارتهم وتراثهم وثقافاتهم التي تبنتها سورية لِتُصبح جُزءاً من تاريخ عالمي ولكن بطابع سوري .

إن سورية كانت وما زَالت عَبر تَاريخها الطويل هِي الوطن الثاني لِكل زائر ولكل قاصد ، واجداً فيها رائحة كان قد ألفها في وطنه ، مِن مَوروث ثقافي ، أو بُعدٍ حَضاري ، أو رَمز دِيني ، أو نَمطٍ مِعماري ، يُعبر بِشكل أو بِآخر عن نَسيجٍ مُتشابِك ومُترابط يَربِطُ بِشكلٍ مَتينٍ مَا بَين سورية وكل العالم المحيط بِغِنَى تَنَوُّعِهِ وَسِمَاتِه الحضارية .

مخطط تفتيت سوريا قلب الإسلام والعروبة

بالتوازي والتزامن مع إقامة الكيان الصهيوني على أرض فَلسطين سنة 1948 م ، بدأ المخطط الاستعماري لِتفتيت أقطار الشرق الإسلامي تفتيتاً جديداً ، بَعد تفتيتِ اتفاقية سَايكس بيكو سنة 1916 م ، وذلك بإنشاء اثنين وثلاثين كِياناً سِياسياً جديداً ، على أُسس دِينية ومَذهبية وعِرفية

وَلُغوية ، لتحويل الشرق الإسلامي إلى فُسيفساء وَرَقِيَّة مَشغولة بتناقضاتها وصراعاتها الداخلية ، أما الهدف من ذَلك كُله فَهو تحقيق الأمن والتفوق لإسرائيل ! فَمَعَ إِقامة إسرائيل نَشَرَ المستشرق الصهيوني "برنارد لوس" في المجلة التي تَصدر عَن البنتاجون وزارة الدفاع الأمريكية – دراسته الشهيرة التي تَقترح العمل على إعادة تَفتيت الشرق الإسلامي ، من باكستان إلى المغرب ، بإضافة اثنين وثلاثين كياناً سياسياً مستقلاً ، عَلى أُسس دِينية ومَذهبية وعِرفية ولُغوية ، لِتحقيق الأمن الاستراتيجي لإسرائيل .

وفي النِّصف الأول من خَمسينيات القرن العشرين ، بَدأت إِسرائيل بإمساك خُيوطِ التَّنفيذِ لهذا المخطط ، وذلك بِبَثِّ الفِتنة الطائفية بين الموارنة والمسلمين في لبنان ، وكتب "بن جوريون" 1886 – 1973 م رئيس الدولة الصهيونية بتاريخ 27 فبراير سنة 1954 م رِسالة إلى رئيس وزرائه "شاريت" 1894 – 1965 م يَقول فِيها: "يَجب عَلينا أن نُجَنِّدَ كُلَّ مَن يَتكلم العربية بَيننا ، وأن نُوَفِّرَ الأموال اللازمة لإنجاح هَذه السياسة ، ولا بَأس لو اضطررنا أحياناً إلى إنفاق الكثير دُون الوصول إلي نتائج سَريعة ، ذلك أن تَحريك الموضوع المسيحي يَهُزُّ الاستقرار في المجتمعات العربية ، وعندما تنتشر الفوضى والاضطرابات يَتصرف الضعفاء المفتقرون إلى الشجاعة بِشكل فَردي ، وتضطرب البلاد وتَدخل في نفق مظلم" .

وفي فَصلٍ آخر من فصول هذا التخطيط لتدمير الاستقرار في المجتمعات العربية ، وَضَرب وَحدتها الوطنية بالفتنة الطائفية ، نَشرت مجلة "الاتجاهات" النَّاطقة بلسان المنظمة الصهيونية العالمية في 14 فبراير سنة 1982 م ، أَي بعد معاهدة "كامب ديفيد" ، وَبِالرغم مِنها نَشرت دِرَاسة رَكَّزَت فِيها الحديث على تَفتيت مِصر وَتَحويلها مِن دَولة مَركزية إلى دَولتين قِبطية ومُسلمة على الأقل ، مُعتبرة تَفتيتَ مصر وسورية بالفتنة الطائفية المفتاحَ التاريخي لتفتيت سائر أقطار الوطن العربي ، وفي هذا المخطط الصهيوني الذي نُشِرَ تَحت عُنوان "استراتيجية إسرائيل" في الثمانينيات جاء بالنص:

"إن سورية المفككة والمنقسمة إلى عَناصر سُلطوية طَائفية كثيرة ، وليس على غِرار مَا هُوَ الحال اليوم ، لا تُشكل أي تهديد لإسرائيل ، وإنما ضَمانة للأمن والسلام لوقت طويل" .

لَقد مَاتت الأسطورة القائِلة "إن مصر هي زعيمة العالم العربي" ، فقد فَقدت في مُوَاجهتها لإسرائيل 50 % من قوتها ، وهي جَسد مَركزي قد صَار جُثة ، ولا سِيما بِتَزَايُدِ المواجهة بين المسلمين

والأقباط ، فَإِنشَاءُ دَولة قِبطية في صَعيد مِصر ، وإنشاءُ دُويلاتٍ أُخرى إِقليمية ضَعيفة ، هُوَ مِفتاح التطور التَّاريخي ، فَإِذَا مَا تَصَدَّعَت مِصر فَإِنَّ بِلاداً عَربية أُخرى سَتُوَاجِه لُبَّ المصير نفسه .

وَبَقيت سورية

وبعد عَشرِ سَنوات مِن نَشرِ هذه الاستراتيجية الصهيونية ، عُقدت بإسرائيل – في 2 مايو 1992 م – نَدوة دَعَا إليها مركز "بارا يلان" للأبحاث الاستراتيجية ، التابع لجامعة "بارا يلان" الإسرائيلية ، وشاركت فيها وزارة الخارجية الإسرائيلية ، بِواسطة مَركز الأبحاث السياسية ، وأسهم فِيها بَاحثون مِن مركز "ديان" التابع لجامعة تل أبيب ، وذلك تحت عنوان: "الموقف الإسرائيلي مِن الجماعات الإثنية والطائفية في مَنطقة الشرق الأوسط ، وطموحاتها وتطلعاتها الاستقلالية في ضوء ما حَققه أكراد العراق بَعد الخطر الأمريكي على شَمال العراق وجنوبه ، عَقب حرب عاصفة الصحراء" . ولقد نَاقشت هذه الندوة – التي حَضرها ممثلون للأقليات في العالم العربي – أحد عشر بَحثاً ، كان مِن عناوينها:

1- تأييد إسرائيل للنزعات الانفصالية والجماعات العِرقية والإثنية والاعتبارات الكامنة وَراءه .
2- دعم إسرائيل للحركة الكردية .
3- الثورة الشيعية في جنوب العراق أثناء حرب الخليج .
4- سوريا: هل سَتَبقَى مُوحدة في ظل انتعاش الاتجاهات الانفصالية في المنطقة ؟.
5- إسرائيل ونضال جنوب السودان من أجل الاستقلال والحرية .
6- الشيعة في أقطار الخليج .
7- إسرائيل ونضال البربر في شمال إفريقيا .
8- أما مصر فكان عُنوان البحث الخاص بها هو "الاستقطاب بين المسلمين والأقباط في مصر".

ولقد خَلُصَت هذه الندوة الصهيونية إلى تأكيد الموقف الثابت للحكومات الصُّهيونية المتعاقبة ، وهو: إقامة كيانات مستقلة .

هكذا تَمَّ التَّخطيط لِتفتيت أقطار الشرق الإسلامي دون استثناء ، بِواسطة الفتن الطائفية التي تُحَوِّلُ هذا الشرق إلى فُسيفساء وَرَقِيَّةٍ لِيتحقق الأمن والتفوق لإسرائيل ! وَلَقَد تَمَّ التَّركيزُ – في هذا المخطط – على سورية ، بِالإعلان عن أنه إِذا تَفتتت سورية بَعد الانتهاء مِن تَفتيت مِصر تَفتت الباقون !

فهل تَعي قوانا الوطنية مَرامي هذا المخطط المعلن ؟ وهل نَنجح في رُؤية العلاقة بين الأصابع الكثيرة التي تَلعب في هذه الفتنة ، وبين استراتيجية هذا المخطط ؟ وهل نَتَّخِذُ الموقف الحازم والحاسم من الأصابع التي تَعبَثُ بِمُستقبلنا وبِوُجودنا في بلاد الشام الشريف .

معالجات الاحتقان الطائفي في سوريا

كيف يُمكن تَدَارك الخطر ؟

بِحَسب رُؤيتنا يَتوجب على العقلاء في سوريا أن يُبادروا قبل أن يُفاجئوا ، وأن يُسرعوا في العلاج قبل أن يُداهمهم المرض العضال ، وما يمكن طرحه في هذا الشأن يَتلخص في النقاط الآتية:

١- أن تُحشد طاقات المجتمع في الاتجاه الصحيح ، وهو مَا يُمكن تَسميته بمحاولة إيجاد المشروع الوطني ، الذي تَتناغم فيه كافة المجهودات والهمم ، ويَكون هو السبيل لِنمو المجتمع ورفاهيته ، ولا يَكون فقط حَصراً في فئة دون غيرها .

وهنا يَأتي دور المرجعيات الدينية ، ومؤسسات المجتمع المدني ، وبَعض القوى الاجتماعية والعشائرية الفاعلة في المجتمع ، في مُحاولة منها لإيقاف هذه المهزلة المروعة ، والانتكاسة الحضارية والإنسانية ، مِن خِلال مُعالجات في بُنية الخطاب الديني والمذهبي ، والتأكيد على حقوق المواطنة ، وأهمية التعايش السلمي ، لبناء سوريا الحديثة ، والقضاء التام على الفتن الداخلية التي تَعصف بِأمن المنطقة وتُهدد استقرارها .

٢- أن تَتوحد جُهود العَامِلين في الساحة المعرفية والثقافية ، وأن يَتَّفقوا على كلمة سواء ، وأن يَبنُوا كِياناً مُوحداً مُنظماً ومُتماسكاً ، كي يَشعر الآخر بِهَيبتهم فلا يُفكر المرتزقة وقُطَّاعُ الطرق – شذاذ الآفاق – بِالتَّمَادِي والعدوان مَرة أخرى .

٣- أن تُعقد لِقاءات عَلنية بين أكبر الزعامات الدينية في سوريا ، مِمَّن يُمثل جميع الطوائف الدينية الإسلامية والمسيحية ، والخروج ببيان واضح اللَّهجَة بإدانة هذه السياسات والممارسات الإجرامية ، وللتأكيد على الأخوة الوطنية والدينية بين المسلمين بمختلف مذاهبهم ونحلهم .

٤- مُراعاة الخصوصية المذهبية والعقائدية التي تَصطبغ بها فِئَةٌ مُعينة أو فِئَات من الشعب ، طَالما أنها لا تُخالف ثوابت المجتمع ، مع مُحاولة دَمجِها - بصورة أو بأخرى - في الإِطار الكلي للمجتمع ، وسَحبها إلى المشاريع الوطنية الكبرى التي لا تَدحَض هَويتها .

الطائفية والتطرف الديني ظاهرة خطيرة

التطرف الديني ظاهرة خطيرة ، فَالمسلمون أَنفسهم لم يَقفوا وَراء نموها ، بل كَانَ مَن أوجدها وسعى في إنمائها الغربيون ، ممن يَحملون التطرف الديني ، فَقد عَملوا مُنذ مُدَّةٍ لَيست بالقصيرة على مُصادرة مَا يَمتلكه المسلمون مِن مُعطيات ، ومُصادرة حُرياتهم في إِسقاط هذه المعطيات على واقعهم ، وَوَصَلَ الأمرُ بالغرب إلى حَدِّ التدخل العسكري في البلدان الإسلامية تحت ذَرائع غير مُقنعة ، وبعد مَسيرةٍ طويلة من التدخل الثقافي والاجتماعي عبر حُكومات تَوَاطَأت مَعهم أو مُنظمات أو غير ذلك .

هذا الفعل السَّيِّئُ وَلَّدَ فِعلاً سَيئاً آخر في الاتجاه المعاكس ، بمعنى أن التطرف الديني الغربي هو مَن أوجد في بلادنا التطرف الديني الشرقي ، والقاعدة الفيزيائية تَقول: لكل فِعلٍ رَدُّ فِعل ، يساويه في القوة ويعاكسه في الاتجاه . ونحن نَعتقد: لَو أن الغرب تَرَكَنَا وَشأننا نَختارُ لِحياتنا مَا نُحب لم يَنشأ في بِلادنا أي تطرف ديني .

نتوجه بالنصح أولاً إلى مَن يُمارس التطرف الديني في بلادنا ، أَن لا يَنزلق إلى أسلوب رَدِّ الفِعل ، وأن يَتعامَل مُنطلقاً مِن ثَوابتنا الدينية ؛ لأن رَدَّ الفِعل غَالباً مَا يَكون خَارجاً عن هذه الثوابت ، وتتحكم فيه النوازع البشرية .

ويَجب أن لا نَنسى أَنَّ رِسالتنا الإسلامية خَالدة ، ويجب أن نَعمل على بقائها خالدة ، والتصرف بِرَدِّ الفِعل يضر بهذا الخلود ، فَلَو تَذكرنا فَتح مكة حِين دَخل الرسول ﷺ مُنتصراً ، وَوقف أمام أعدائه وهم أَذلاء ، كان بِمقدوره أَن يُصدِرَ أَمراً بِالإشارة لِيَقتُلَ كُلَّ أَعدائه ، ويَجعل مِن بَاحات مكة مَذابح للرجال ، لَكنه ﷺ لم يَتصرف بِرَدِّ الفِعل وهو النبي المعلم ﷺ ، بَل عفا عن أعدائه وكأنهم لم يُؤذوه ، ووهبهم الحرية وكانوا يَتمنون الحياة ولو أرقاء .

وبهذه الخطوة النَّبَوية بَدأت لَحَظَاتُ الخُلود بِالرسالة الإسلامية ، ولو أنه عليه الصلاة والسلام

أعمل فِيهم السَّيفَ لَم يَكن الإسلام لِيَبسُطَ ذِرَاعَيهُ على طرفي العالم ، وهكذا يَنبغي أن نَكون ، فالتطرف الديني يُلحِقُ بِنَا خَسائر أضعاف ما يَلحق بأعدائنا .

تحريم القتل بِغير حق في الشريعة الإسلامية

زاد القتل في الأمة وانتشرت وَسائل القتل ، وجاء الأعداء مِن الخارج والداخل لِقتل المسلمين تحت ذرائع شتى ، مَا أنزل الله بها من سلطان .

أولاً: التحذير من الفتنة:

١- تحريم القتل الغير: قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: 151] ، وقال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨] .

٢- تحريم قتل النفس: قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

٣- تحريم الاعتداء حين الأخذ بالحق: قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

٤- تعظيم نفس المؤمن: قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ [النساء: ٩٢].

٥- أنَّ القاتل كأنه قتَل الناس جميعاً: قال الله عز وجل: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] .

٦- وضع ضوابط للقتل: روى البخاري عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يحل دم امرئ مسلم ، يشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والمفارق لدينه التارك للجماعة)[١] .

7- ضرورة الإصلاح بين المتقاتلين: قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩] .

8- قتال مَن يَسعى لقتل المؤمنين: قال الله عز وجل: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] ، وفي الحديث المتفق عليه عن أبي سعيد الخدري ﷺ: (لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد وثمود)[٢] . وفي كتاب السنة لابن أبي عاصم عن علي بن أبي طالب ﷺ قال يوم النهروان: (أُمرتُ بِقتال المارقين)[٣] ، المارقون هم الخوارج . وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (تمرق مارقة عند فِرقة من المسلمين يَقتلها أولى الطائفتين بالحق)[٤] .

9- التحذير من السعي في فتنة القتال: روى أبو بكرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إنها ستكون فتن ، ألا ثم تكون فتنة ، القاعد فيها خير من الماشي)[٥] . روى أحمد وابن ماجه قوله ﷺ: (إذا كانت الفتنة بين المسلمين فاتخذ سيفاً من خشب)[٦] . وروى ابن ماجه من حديث مُحَمَّد بن مسلمة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إنها ستكون فتنة وفرقة واختلاف ، فإذا كان

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب قول الله تعالى: ﴿أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ [المائدة: ٤٥] ، برقم: (٦٤٨٤) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد رضي الله عنهما إلى اليمن قبل حجة الوداع ، برقم: (٤٣٥١) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، باب ذكر الخوارج وصفاتهم ، برقم: (١٠٦٤) .

(٣) أخرجه عمرو بن أبي عاصم في كتاب السنة ، برقم: (٩٠٧) .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب ذكر الخوارج وصفاتهم ، برقم: (١٠٦٤) .

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب نزول الفتن كمواقع القطر ، برقم: (٢٨٨٧) .

(٦) أخرجه ابن ماجه في سننه ، باب التثبت في الفتنة ، برقم: (٣٩٦٠) .

كذلك فأت بسيفك أَحداً فاضربه حتى ينقطع ، ثم اجلس في بيتك حتى تأتيك يدٌ خاطئة أو مَنيَّة قاضية)[1] .

١٠- حكاية عواقب القتل: قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] . وقال الله عز وجل: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩] . وروى أحمد عن عقبة بن عامر ﷺ: (إن الله أبى عليّ فيمن قتل مؤمناً ثلاثاً)[2] . وفي الحديث المتفق عليه عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء)[3] . وفي الحديث المتفق عليه عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (سِباب المسلم فسوق وقتاله كفر)[4] . وروى أبو الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا مَن مات مُشركاً أو قتل مؤمناً متعمِّداً)[5] . وعن عبد الله بن عمرو ﷺ ، أن رسول الله ﷺ قال: (لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم)[6] . وعن ابن عباس ﷺ: (لو أن أهل السماء والأرض اجتمعوا على قتل امرئ مسلم لعذبهم الله بلا عدد ولا حساب)[7] . وعن ابن عباس ﷺ: (لا ترجِعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)[8] . وعن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يزال المرء في فسحة م[9]ن دينه ما لم يُصِب دَماً حراماً)[10] . روى الترمذي عن ابن عباس ﷺ ، عن النبي

---

(٧) أخرجه ابن ماجة في سننه ، باب التثبت في الفتنة ، برقم: (٣٩٦٢) .

(٨) كنز العمال ، باب في قاتل النفس ، برقم: (٣٩٨٩٧) .

(٩) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب المجازاة بالدماء وأنها أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة ، برقم: (١٦٧٨) .

(١٠) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب ما ينهى من السباب واللعن ، برقم: (٦٠٤٤) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، باب بيان قول النبي ﷺ سباب المسلم فسوق وقتاله كفر ، برقم: (٦٤) .

(١١) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى ، باب تحريم القتل من السنة ، برقم: (١٥٦٣٩) .

(١٢) أخرجه الترمذي في سننه ، باب ما جاء في تشديد قتل المؤمن ، برقم: (١٣٩٥) .

(١٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ، برقم: (١٢٦٨١) .

(١٤) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب الخطبة أيام منى ، برقم: (١٦٥٢) .

(١٥) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى ، باب تحريم القتل من السنة ، برقم: (١٥٦٣٦) .

ﷺ: (يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة ، ناصيته ورأسه بيده ، وأوداجه تشخب دماً ، فيقول: يا رب سَلْ هذا فيم قتلني ، حتى يدنيه من العرش)[١] .

ثانياً: مبررات وأسباب القتل:

١- عدم الخوف من الله: قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨] .

٢- الحقد والحسد: قال الله عز وجل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ [المائدة: ٢٧] .

٣- الاختلاف في العقيدة: قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٣] . وقال الله عز وجل: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦] . وقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ [غافر: ٢٨] . وقال الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠] . وقال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧] .

٤- الزيادة في الفتنة: قال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ [غافر: ٢٥] . وقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] . وقال الله عز وجل: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ

---

(١٦) أخرجه الترمذي في سننه ، باب ومن سورة النساء ، برقم: (٣٠٢٩) .

الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦] . وقال الله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠] .

٥- تأويل قتال الخوارج للمسلمين: كقتل أسامة لذلك الرجل الذي شهد الشهادة عندما هَمّ أسامة بقتله – وخالد في موقعة أخرى حيث قَتل مالك بن نويرة مُتأولاً إجاباته بأنها ردة عن الإسلام .

6- الحرص على المال: روى مسلم عن أُبي بن كعب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يوشك الفرات أن يحسر عن جبل من ذهب ، فإذا سمع به الناس ساروا إليه ، فيقول من عنده: لئن تركنا الناس يَأخذون منه ليذهبن به كله ، قال: فيقتتلون عليه ، فيُقتل من كل مائة تسعة وتسعون)[١] ، وفي رواية: (يقول كل رجل منهم: لَعلِّي أكون أنا الذي أنجو)[٢] . وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (يوشك الفرات أن يحسر عن جبل من ذهب ، فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً)[٣] .

7- الغضب الشديد: وعنده لا يُدرك الإنسان ما حوله ، ويَغيب عنه العقل فيحدث القتل .

8- تنفيذ أوامر الأعداء: وهذا ما يحدث في سوريا حيث الارتهان للخارج ، وتطبيق الخطط المتآمرة على سوريا .

9- حب الانتصار والظهور على الآخرين: وهذا مَا نجده مِن تحارب وتصارع الجماعات المسلحة في معظم البلدان العربية والإسلامية التي حَدث فيها ما يُسمى بالربيع العربي على الزعامة والرياسة .

---

(١٧) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب ، برقم: (٢٨٩٥) .

(١٨) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب ، برقم: (٢٨٩٤) .

(١٩) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب ، برقم: (٢٨٩٤) .

نصيحة في الله

– لا تُعن أحداً على القتل ، روى الترمذي في حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ قال: (لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبّهم الله في النار)[1] .

– أعِدَّ جَواباً لمن تُريد قتله: (يا رب سل هذا فيم قتلني)[2] .

– لا تحمل السلاح في وجه الحاكم ، فتكن خارجاً وآثماً عند الله .

– لا تُمازح أحداً بالسلاح ، ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال: (لا يُشِر أحدكم إلى أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدري لعلّ الشيطان ينزع في يده ، فيقع في حفرة من النار)[3] ، وفي رواية: (من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى ينزع وإن أخاه لأبيه وأمه)[4] .

– لا تَشهد الزور خاصة فيما يُؤدي إلى القتل .

– لا تتكلّم فيمن قَتَلَ أو قُتِلَ إلا بالحق .

– لا تُعرِّض نفسك لما يُوجب القتل .

– لازم الجماعة فإنها مَحل تأييد الله .

وختاماً لا بد من القول

إنهم دعاة فتنة ، فالمشهد السوري ، ومناداة بعض الخارجين عن الذوق الوطني والأخلاقي ، والذين يطبقون غايات دول الخليج المعروفة ، بالجهاد وإرسال الإرهابيين ، وتأليبهم للرأي العام ، بعد ضخ العصبية الدينية والمذهبية في خطبهم العصماء ، ومن على منابر المساجد ، بينما هُم في الواقع يَستمتعون بأجواء الصيف في شوارع اسطنبول ولندن والشانزليزيه في باريس أو في جنيف ومراكزها الإسلامية التي تَدفع لأولئك الدعاة بالدولارات ، فهذا لا يُمكن وَصفه إلا بالحمق ، وعدم الالتفات إلى الأمن الوطني للشام الشريف .

---

(٢٠) أخرجه الترمذي في سننه ، باب الحكم في الدماء ، برقم: (١٣٩٨) .

(٢١) أخرجه أحمد في مسنده ، برقم: (١٦٦٠٠) .

(٢٢) كتاب الجمع بين الصحيحين ، برقم: (٢٤٥٢) .

(٢٣) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم ، برقم: (٢٦١٦) .

إن إعطاء ما يَحدث في سوريا بُعداً طائفياً – سنياً ، شيعياً – يُمثل خطراً على الوطن وتَعدُّده المذهبي الذي يَجب أن نُحافظ على سَلامته مَهما اختُلف في وَجهات النظر أو حَتى عَقائِده وبُعده الإثني .

إن الإسلام يُقرر أن الانتماء إلى الأمة الإسلامية لا يُلغي انتماءهم إلى الأرض والوطن ، كما أن الإسلام يَقوم على الجمع بين الوحدة والتعدُّد على المستويين التكليفي والتكويني ، استناداً إلى مفهوم الوسطية .

وطبقاً لهذا أقر بالتعددية على المستوى التكويني بإقراره التعدد كسنة إلهية ، ﴿وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨] ، كما أقر بالتعددية على المستوى التكليفي بإقراره تَعدُّد الشرائع ، ولذلك فإن فَرض طائفة ما سُنَنَها على طائفة أخرى ، أو الاستهزاء بها ، وتأليب الرأي العام عليها ، ونقد مُقدساتها ، لا يُعَدُّ نمطاً صحيحاً في المواطنة .

إن المواطن الراشد مُطالَبٌ – ضِمن ميثاق الوطنية – بإقصاء التبعية للموروثات والمرجعية الإثنية ، إذا لامست انتماءه للأرض ، وأن تَكون لَديه القُدرة على تقييم الأفكار الموروثة ، واتباع الصالح بِوعي كامل ، حتى لا تُصبح تِلك الموروثات والمرجعيات عَقبة حَقيقية في سبيل تحقيق المواطنة .

إن انتعاش عوامل المساواة والشورى والمحافظة على الأجيال والعمل على التسامح سَيُوجِد مُجتمعاً يُؤَمِّن حق الإيمان بالمواطنة .

إننا بحاجة الآن إلى إعلام واعٍ يُسهم في تَغيير الموقف والاتجاه نحو المفهوم الحقيقي للمواطنة ، بَعيداً عن مس المقدسات لأي فرد ينتمي للأرض ، وإيجاد مَعاني التسامح على منابرنا الثقافية والدينية والمدرسية من خلال الوزارات المعنية في تلك المجالات .

نحتاج أيضاً إلى مؤسسة للحوار الوطني ، تقوم بدورها الحقيقي بعيداً عن الشعارات والمؤتمرات التي لم تقدم شيئاً على أرض الواقع ، ولم تنفذ ورشة فاعلة في كيفية التعامل مع التنوع الثقافي والديني والمذهبي والعرقي ، لتُحدث تغيراً حقيقياً في عقليات عامة هذا الوطن باختلاف مذاهبهم ، وتوعيتهم بحصر الخلافات السياسية ضمن إطارها السياسي والنأي عن إعطائها بُعداً مذهبياً طائفياً .

وفي الوقت ذاته نحن بحاجة إلى جامعات ومعاهد وكليات متزنة ، تضخ لنا جيلاً جديداً من الدعاة الحقيقيين ، الذين يؤمنون بأن التنوع المذهبي والديني هو سنة الله في أمته الإنسانية ، ومَطلبٌ مهم للثراء المعرفي ، وتأصل الفضاء الحقيقي للحضارة الإسلامية ، وتعاملها مع التعدد والتنوع القائم على قبول المختلف ، باعتباره من سنن الفطرة الإنسانية وصيغة للتعايش والتواصل الحضاري الإنساني .

والحمد لله رب العالمين

الحركة التكفيرية الوهابية "نقد وتحليل"

المحتوى

الفاشية في الاصطلاح الفلسفي ...

الفاشية الدينية ... حقائق في المصطلح ...

الفاشية والإسلام السياسي ...

الوهابية الوجه المقيت للقتل والتكفير ...

بدايات الفاشية الوهابية ... المنهج والسلوك ...

ثنائية الوهابية والإخوان في الانتشار الفكري ...

الفاشية الوهابية ...

التنافس على الفاشية الوهابية الدينية ...

حقائق عن الفاشية الوهابية ...

الجهاد الفاشي ...

المناسك الدينية في دائرة الفاشية الوهابية ...

تجنيد الإرهابيين للقتال في البلدان العربية ...

فوبيا الفتاوى الفاشية ...

الفاشية الدينية ومحاربة الفكر والإبداع والنقد ...

الفاشية الوهابية لماذا لم تطال الصهيونية ...

الغرب ومحاربة الفاشية الدينية ...

الفاشية الدينية والفخ الإعلامي ...

الأحزاب الدينية مدخل للسلوك الفاشي ...

جدلية الدين والخطاب الديني ...

مناشدة ...

وختاماً نقول ..

الفاشية في الاصطلاح الفلسفي

لا بد في البداية أن ننطلق في بحث الفاشية الوهابية من خلال توصيف المعنى الدقيق للفاشية ، وخصوصاً المعنى الفلسفي المتداول غربياً لأصل المصطلح ، حيث "يمكن تعريف الفاشية كشكل من أشكال السلوك السياسي ، يتميز بهَوَس في انحطاط المجتمع ، والشعور بالذلّ والإحساس كالضحية ، كما تتميز بعبادات ذات صفة تعويضية أو بديلة للوحدة وللقوة وللنقاء التي من خلالها يقوم حزب شعبوي مُؤلف من ناشطين وطنيين مُلتزمين ، عاملاً في تعاون غير مستقر لكن فعال مع النخب التقليدية ، بالتخلي عن الحريات الديمقراطية ، وبالسعي عبر عنف خَلاصي وبدون أي قيود أخلاقية أو قانونية ، وراء أهداف التطهير الداخلي والتوسع الخارجي"[1].

وعلى ذلك يمكن استخلاص أيديولوجية الفاشية من خلال عدة أفعال تجمعهم تحت عنوان "تعبئة المشاعر":

– الشعور بأزمة ساحقة أبعد من متناول الحلول التقليدية .

– أولية الجماعة ، حيث على الفرد نحوها واجبات تتفوق على كل حقّ ، أكان فرديّاً أو عائليّاً ، وخضوع وتبعية الفرد لها .

– الاعتقاد بأن الجماعة هي ضحية ، وهو شعورٌ يُبرر أي عمل ، خارج أية حدود قانونية أو أخلاقية ضد أعدائها ، سواء في الداخل أو في الخارج .

– الخوف من انحطاط الجماعة بسبب النتائج المدمرة لليبرالية الفردية ، الصراع الطبقي والتأثيرات الغريبة والمغايرة .

– الحاجة إلى تكامل أوثق لمجتمع أنقى عبر الموافقة إذا أمكن أو عن طريق العنف الإقصائي عند الضرورة .

– الحاجة للسلطة من قبل قياديين بالفطرة دائماً من الذكور ، تبلغ ذروتها بشخصِ زعيم ديني أو وطني قومي ، وحده قادر على تجسيد المصير التاريخي للجماعة ، وهو في الجماعات الدينية الأمير المطلق .

---

(١) معجم المصطلحات الفلسفية ، دار زروق ، الجزائر ، مادة فاشية .

– جمال العنف وفعالية الإرادة ، عندما يتم تكريسهم لنجاحات الجماعة .
– حقّ الشعب المختار في الهيمنة على الآخرين بدون أية عوائق قانونية ، إلهية كانت أم بشرية .
– المعيار الوحيد للحقّ هو قوة وإقدام الجماعة في إطار نضال دارويني[1] .

لذلك ومن هذا المنطلق نجد أن الفاشية تُعتبر "نزعة انتابت بشكل عضويّ حركات سياسيّة متعدّدة ومختلفة ومتعاقبة"[2] ، والنزعة هي الميل أو الاتجاه ، فهي إذن مرحلية جرثومة مؤقتة قد تصيب بعض الأحزاب ، وكذلك التيارات الدينية .

إن هذه الحركات لم تتخل يوماً عن جوهرها الذي تأسست عليه ، وإن قامت ببعض التنازلات أو خففت من حدة خطابها في فترة معينة ، فهذا بداعي البراغماتية السياسية للوصول إلى مبتغاها عبر تفنيد السمات الأساسية للحركات الفاشية ، وهي في رأينا:

أولاً: عبادة الزعيم الذي يعلم كل شيء والذي لا يُخطئ والذي يُجسد الأمّة جمعاء .
ثانياً: تمجيد العنف لا كوسيلة بل كغاية في حد ذاتها .
ثالثاً: بناء منظّمات حربيّة خارجة عن سلطة الدولة .
رابعاً: تبنّي نظريّة المؤامرة كمدخل لتفسير التاريخ كما السياسة .
خامساً: تبرير أي شتيمة منظّمة وأي جريمة منظّمة وأي كذب منظّم ، على قاعدة أنّ كل شيء مباح لمحاربة نظريّة المؤامرة .

الفاشية الدينية ... حقائق في المصطلح

من المصطلحات التي يرددها البعض بقصد الإساءة إلى دين الإسلام وإيهام الجهلة من المسلمين بضرورة فصله عن الدولة أو عن السياسة مصطلح "الفاشية الدينية" ، مستغلين في ذلك المظهر السيئ الذي ظهر عليه الإخوان المسلمين وبعض العلماء والدعاة المنتمين للتيارات الإسلامية خلال الفترات السابقة .

والعارف لمعنى هذا المصطلح وأسباب نشأته يُدرك تماماً بَراءة الدين الإسلامي منه ، وأنه لا يصح وصفه به على الإطلاق ، ومن العار على أي مسلم صحيح الإسلام والإيمان أن ينطق به ،

(٢) المنطلقات الغريزية للنفسية الفاشية ، د. عبد الرحمن الجواد ، دار الوفاء ، مصر ، ص٢١١ ، ط٣ ، ٢٠١٠م .
(٣) معجم المصطلحات السياسية ، عند الحميد دردار ، دار البيان ، الإمارات .

حيث ظهر هذا المصطلح في أوائل عشرينيات القرن الماضي كمذهب سياسي ، وربما ألصق بالدين بعد ذلك تأثراً بتسلط الكنيسة على مُقدرات أوروبا وقرارات حكامها في عصور الظلام ، وما نتج عن ذلك من انتشار محاكم التفتيش وصكوك الغفران واستبداد القساوسة والباباوات .

وعلى هذا الأساس فإنه وإن صح بالنسبة للدين المسيحي في تلك الحقبة فهو لا يصح بالنسبة للدين الإسلامي ، لأنه معروف بالسماحة والرحمة ، وتضمنه مبادئ سامية لا توجد في أي نظم وضعية أخرى ، مثل العدل والمساواة والحرية ، حرية العقيدة والرأي والفكر ، وآية ذلك أنه لم ينتشر إلا بالمعاملة الحسنة وبعظمته وجلاله ، فكيف ولأي سبب يتجرأ أحد على وصفه بهذا الوصف المشين؟

وإذا كان معتنق هذا المصطلح أو مروجه أو مؤيده "يريد به تصرفات الأشخاص ومتاجرتهم بالدين لقهر الشعوب به ، فالأصح أن يطلقه على الأشخاص أو الحكام أو الأحزاب أو غيرهم ، فيقال مثلاً: "فاشية الإخوان" أو "فاشية الوهابية" أو "فاشية حزب الحرية والعدالة" ، بِغَضِّ النظر حول الجدل بشأن صحة هذه المسميات بالنسبة لمن ذُكروا من عدمه"[١] .

لذا ومن خلال ما سبق ننطلق في هذا البحث مُستخدمين لفظ الفاشية الدينية الوهابية كتعبير رفضي للممارسات ، ومستنكرين في الوقت عينه إطلاق المصطلح على الدِّين ، وتشويه معالم الإسلام الحنيف ، إلا أن استخدامنا لهذا المصطلح في بعض مظان هذا البحث لا تعدو عن كوننا نساير وجوده كمصطلح عالمي وللأسف الشديد ، ولكن بعد نسبة هذا المصطلح إلى أصحابه "الفاشية الوهابية" .

الفاشية والإسلام السياسي

كثر الحديث في الإعلام المضاد وغيره في إطلاق صفة الفاشية على الإسلام السياسي المتطرف جرّاء أعماله الإرهابية البربرية البشعة في القتل والخطف والنحر والتمثيل والتعذيب ، وهي أعمال اتخذت أساليب فاشية في همجية ووحشية قساوتها ، إلا أن إطلاق صفة الفاشية على الإسلام السياسي المتطرف لم تَكن دقيقة في صحة مادية موضوعيتها العلمية ، إذ أن أُسس جوهر

(٤) المقالات المحظورة ، فهمي هويدي ، دار الشروق ، ص١٥١ ، ط٢ ، القاهرة ، ٢٠٠٢م .

الحيثيات الفاشية لا تتسق وأسس جوهر حيثيات الإسلام السياسي المتطرف في شكل طبيعة تكوين البناء ، صحيح أن الفاشية يُمكن تعميم مجاز مصطلحها على الأيدلوجيات والحركات السياسية وأنظمة الدولة التي تتخذ مواقف قومية وعرقية شوفينية في التسلط والدكتاتورية ، وفي التاريخ نشأت كتائب فاشية في إسبانيا وبلجيكا ورومانيا وبريطانيا وفرنسا وغيرها من الكتائب الفاشية التي شَهدتها أوروبا في نهاية الحرب العالمية الأولى وفي نهاية الحرب العالمية الثانية .

وإذا كانت مظاهر الأساليب الفاشية المرتبطة بالإسلام السياسي وكما عهدنا فاشية أساليبها مثلاً في قاعدة طالبان في أفغانستان واليمن وفي العراق وسوريا وليبيا والسودان والإخوان المسلمين في مصر التي تكشفت أساليبهم الفاشية البربرية في القتل والإقصاء والسيطرة والإرهاب والتكفير والعداء السافر للثقافة ، إلا أن ذاكرة النازية الفاشية المتمثلة فيما قاله "غوبلز"[١] تتمثل في مواقف الإخوان المسلمين وكراهتهم للثقافة: "إذا ذُكرت الثقافة أضع إصبعي على زناد مسدسي"[٢] ، ذاكرة فاشية تشكلت في حكم الإخوان المسلمين سنة كاملة في مصر العربية ، ذاكرة رافلة بقبح التكفير والإقصاء والكراهية للفن والثقافة ولروح الإنسانية المصرية الزاخرة بحب الحياة ، ورغم أن الإخوان المسلمين رواد الإسلام السياسي في تنظيماتهم الديماغوية والحديدية وادعاءاتهم الباطلة كونهم وحدهم الفرقة الناجية من النار ، وأنهم وحدهم الممثلين الشرعيين لدين الإسلام ، ومن هو خارج حزبهم من الكافرين ، فإنهم إرهابيين وطائفيين وتكفيريين وظلاميين ، إلا أنهم ليسوا قوميين شوفينيين وعرقيين معادين للسامية ، بل إن طابعهم طابع أممي إسلامي عالمي يتجاوز الروح الشوفينية للقومية ، فالانتماء عندهم للإسلام وليس للوطن أو القومية !

إلا أن الإسلام السياسي عند زعماء الإخوان والوهابية يَحمل صفات تراكمية وعلاقات مشبوهة تؤهله مستقبلاً أن يتحول إلى ممثل شرعي للرأسمال الكبير ، ومنتقلاً قلباً وقالباً إلى فاشية إسلاموية دينية تتكرس قولاً وعملاً وارتباطاً وفكراً في شوفينيةِ مغالية جداً ودموية إلى حد كبير .

ولكن أيمكن للتاريخ أن يُعيد نفسه في مظاهر "النيوفاشية" ، وإذا كان التاريخ لا يُعيد نفسه فإن التاريخ يلون نفسه ، أيتلون بفاشية خلاف فاشية "موسليني" في إيطاليا ، وخلاف نازية "هتلر"

---

(٥) غوبلز: محلل سياسي أمريكي ، صاحب برنامج شهير يتحدث عن الأحداث السياسية في أسبوع .

(٦) مقولة مشهورة لعبد الكريم الأرياني ، أحد أكبر غلاة الإخوان المسلمين في مصر في الثمانينات .

في ألمانيا ؟ وفي عملية استقطاب الإسلام السياسي عبر رساميل الشركات المتعددة الجنسيات والانتقال به إلى قواعد فاشية شكلاً ومحتوى وفقاً لمخططات الامبريالية العالمية وحيثيات "النيوليبرالية" وأساليبها المتمثلة في مطامع الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها على صعيد العالم ! أهذا ما يعني التحالف الضمني والسري بين الإخوان المسلمين وجهات أمريكية مخابراتية ؟ كما تُشير جهات مصرية مَوثوقة حِيال الإخوان المسلمين في مصر وما يتفشى في علاقاتهم السرية وارتباطات بعض زعمائهم بالمخابرات الأمريكية[١] !.

وأحسب أن العولمة في أقصى مراحلها الامبريالية ودور رساميل الشركات الاحتكارية والمتعددة الجنسيات تُخطئ في حساباتها في عصر له سمات انجازات علمية تكنلوجية لا يُمكن الاستفادة منه واستغلاله من خلال منظمات دينية رجعية راديكالية محافظة ، ولها ذهنية متخلفة متطرفة في الفكر والدين والعقيدة مثل الإسلام السياسي الإخواني أو السلفي ، ويتمثل بما يحملونه من عقول وأفكار أكلَ وشربَ عليها الدهر ودفعت بها الشعوب واحدة بعد الأخرى إلى مزابل التاريخ !.

الوهابية ... الوجه المقيت للقتل والتكفير

من المؤكد أن الإرهاب المتفشي الآن في العالم بات يُشكل خطراً على العالم وعلى الحضارة البشرية ، وهذا صحيح ، خاصة وأن الإرهاب الفاشي صار مدعوماً بمنابر ومؤسسات تعمل على نشر أيديولوجية تحقير الحياة وتمجيد الموت ، وقد نجح في رفد أعداد كبيرة من الشباب المسلمين الذين يتمتعون بإمكانيات علمية وتكنولوجية ، إضافة إلى الدعم المالي الهائل الذي يتلقاه من أغنى بلد عربي مسلم ، والذي مِن رَحِمِ هذا الفكر والمال وُلِدَتِ القَاعدة ، فلو تتبعنا تاريخ الإرهاب المتفشي الآن ، لوجدناه مرتبطاً بالعقيدة الوهابية منذ ولادتها في الجزيرة العربية على يد مؤسسها مُحَمَّد بن عبد الوهاب (١٧٠٣-١٧٩١) ، حيث تبنى أتباع هذه الحركة تقديس العداء للآخر بأساليب بدائية وهمجية شرسة في نشر الرعب والخراب في كل ما وصلت إليه أيديهم ، ويبررون جرائمهم هذه بتعاليم دينية ونصوص قرآنية ، يقومون بتأويلها وتفسيرها حسب أهوائهم ليلائم

(٧) المقالات المحظورة ، فهمي هويدي ، ص٢٨٧ .

ذلك تعاليم أسيادهم من الغرب المتصهين الذي استطاع أن يستأجرهم لهدم تعاليم الدين بلسان أبنائه .

بدايات الفاشية الوهابية ... المنهج والسلوك

بدأت الحركة الوهابية في الصحراء القاحلة في الجزيرة العربية ، وكان أتباعها من البدو القساة الذين صقلتهم البيئة الصحراوية الحارة والجافة والفقيرة بقساوتها ، فَعُرفوا بالغلظة والقسوة في التعامل ، لذا كان هؤلاء يعيشون على الغزو والنهب ، ولعدم وجود غير المسلمين في هذه المنطقة لجأت الوهابية إلى تكفير من لا يُقرهم على تعاليمهم من المسلمين من المذاهب الأخرى ، وذلك لتوفير غطاء ديني لغزوهم ونهبهم ، لذلك لجأت الوهابية إلى اعتبار العقيدة الوهابية هي وحدها العقيدة الإسلامية النقية الصحيحة ، وأنهم – أي الوهابيون – يسعون لإحياء التعاليم الإسلامية النقية وإعادة الإسلام إلى عهده الأول في زمن الرسول ﷺ والصحابة رضي الله عنهم ، لذلك قامت بتكفير المذاهب الإسلامية من أجل توفير ذريعة للغزو[١] .

لقد مُنح رجال الدين الوهابيون اليد الطولى في إدارة الشؤون الدينية والتعليمية ، وظلت الوهابية محصورة في الجزيرة العربية حتى الستينات من القرن الماضي ، عندما نزح إليها عدد من الإخوان المسلمين من أتباع سيد قطب ، ونشأ حينذاك التحالف السلفي الوهابي ، وتبنيه "الجهاد" ضد الحكومات العلمانية الكافرة[٢] .

ثنائية الوهابية والإخوان في الانتشار الفكري

يُعرف عن أئمة الوهابيين أن سمعتهم سيئة بين المسلمين ، وذلك بسبب تعصبهم واعتمادهم العنف في فرض تعاليمهم ، لذلك اعتمدوا على مُثقفين أزهريين مصريين في بادئ الأمر ، مثل "رشيد رضا" و "حسن البنا" أوائل القرن العشرين ، وحققوا في ذلك نجاحاً باهراً ، فكان من ثمار ذلك تأسيس حزب الإخوان المسلمين على يد "حسن البنا" ، ومن بعده "سيد قطب" صاحب المؤلفات التحريضية الدعوية في هذا المجال ، وكان للإخوان المسلمين دور في الانقلاب العسكري الذي قاده "جمال عبد الناصر" في ٢٣ يوليو ١٩٥٢م ، ومن ثم اصطدم بهم حيث تآمروا عليه

---

(٨) جذور الإرهاب في العقيدة الوهابية ، أحمد صبحي منصور ، دار المجد ، لبنان ، ط ١ ، ص٢٥٦ ، ٢٠٠٥ م .

(٣) جذور الإرهاب في العقيدة الوهابية ، أحمد صبحي منصور ، دار المجد ، لبنان ، ط ١ ، ص٣١١ ، ٢٠٠٥ م .

وقاموا بمحاولة اغتياله ، لذلك تم إعدام زعيمهم "سيد قطب" ، علماً أن الشعب المصري كان من أكثر الشعوب العربية تسامحاً بين مكوناته ، وخاصة التآخي بين المسيحيين والمسلمين ، ولكن بدأت المشكلة بتأسيس حزب الإخوان المسلمين "الإخوان الوهابيون" ، والذي راح يَنشر بذور العداء والبغضاء بين المسلمين وتحريضهم ضد الأقباط المسيحيين ، وكان من نتيجة هذا الالتقاء ولادة ما يعرف بالسياسة الراديكالية ، والتي أنتجت الإسلام السياسي ، حيث "إن التلاقح بين الوهابية المحافظة اجتماعياً وثقافياً بالقطبية "سيد قطب" صاحب السياسية الراديكالية ، أنتج الإسلام السياسي الوهابي المتشدد ، الذي بدوره أنتج تنظيم القاعدة"[١] ، ولم يَتوقف تأسيس حزب الإخوان المسلمين على مصر ، بل راح يُفَرّخ أحزاباً مماثلة في جميع البلدان العربية ، خاصة بعد امتلاك دول الخليج العربي ثروة نفطية هائلة ، فراحت المملكة تَصرِف ببذخٍ عشرات المليارات من الدولارات على نشر التعاليم الوهابية في العالم عن طريق تأسيس الأحزاب الإسلامية في البلاد العربية والإسلامية ، وتقوم هذه الأحزاب باستمالة الجماهير الفقيرة في هذه البلدان عن طريق فتح المؤسسات الإسلامية الخيرية ، إضافة إلى أسواق ومستشفيات ومصحات لمساعدة الفقراء ، حيث استغلت تدهور الوضع الاقتصادي ، كل ذلك ساعد على تفشي الوباء الوهابي في البلاد العربية ، إضافة إلى تمويل دول الخليج العربي لفتح عشرات الألوف من المدارس الدينية وبناء مساجد في باكستان ومصر والدول الغربية ومناطق أخرى من العالم ، وإصرارها على وضع مناهج هذه المدارس وفق التعاليم الوهابية ، وتعيين أئمة وخطباء المساجد من أتباع المذهب الوهابي .

الفاشية الوهابية

فبعد هذا التوصيف الدقيق للوهابية كمنهج وفكر وسلوك ، السؤال هنا ولعله الأهم:

(١٥) الإسلام الراديكالي ، مُحَمَّد معتوق الفضالي ، دار فصلت ، ص٢٨١ ، ط١ ، لبنان .

ما هي الفاشية الدينية الوهابية ؟

نقول هي الفاشية التي تتحدث عن قطع رقاب وأيدي وأرجل وجزية وحساب في الدنيا وإلغاء للآخرة ، والجاهل يصبح قاضي ويصدر أحكاماً بالقتل ، ومواطنين من الدرجة الأولى وآخرون من الدرجة الثانية ، والوطن غائب .

كما يلحق بالفاشية الدينية كل من فاته قطار التعليم ، ويأخذ الدين واللحية سبباً ليحكم ويسيطر ، ومسلمون يقتلون مسلمين ، وأصحاب ديانات سماوية يحتقرون ويكفرون ، وإلغاءٌ لحق ﴿لَكُم دِينُكُم وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] ، ﴿لَستَ عَلَيهِم بِمُصَيطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢] ، والاستعداد لحرب كل العالم قائم في كل وقت ليكونوا على ديننا وإلا الموت ، متناسين قول الله: ﴿وَلَو شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُم أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨] ، وفيها أيضاً القتل الحلال والسرقة الحلال ، والزنا الحلال ، وتحليل القتل لكل من على دين مخالف في فهم خاطئ للدين ، وغيره وغيره[١] .

فالفاشية الدينية تنزع الرحمة والشفقة من القلوب ، ومن تُنتزع الرحمة من قلبه يُصبح حيواناً مسعوراً ووجوده خطر على الجميع .

التنافس على الفاشية الوهابية الدينية

بدأت الوهابية منذ سبعينات القرن الماضي بحشو الفراغ الديمقراطي في المنطقة العربية بشيوخ الإفتاء ، فأنشأت هيئة كبار العلماء يَرأسها مفتي السعودية ، وهي هيئة دينية إسلامية تعمل بديلاً عن البرلمان ، ومع حرب الخليج الأولى عام ١٩٩١م دخلت قطر على خط التنافس السياسي والديني مع السعودية ، ونَشبت حرب فتاوى واضحة المعالم بين جهاز الفتوى القطري وجهاز الفتوى السعودي ، فالسعودية أنشأت "رابطة العلماء المسلمين" ، فما كان من قطر إلا أن قامت بإنشاء "الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين" ، ووضعت على رأسه "يوسف القرضاوي" الذي هو بالأصل عضواً في جماعة الإخوان المسلمين الإرهابية ، كما أنشأت قطر محطة الجزيرة الفضائية ، فردت عليها السعودية بمحطة العربية الفضائية ، وكلا القناتين تقوم بنشر ثقافة الكراهية والتكفير وتغذية التطرف والإرهاب في جميع أنحاء العالم العربي ، ويتنافس كل من زعماء

(١٦) فيروس الوهابية ، د. عماد الدين الشبراوي ، دار السلام ، القاهرة ، ط١ ، ص٩١ ، ٢٠١٠م .

الخليج وأمراءهم على التحكم في الفكر الديني للأمة الإسلامية لتسخيره في خدمة مشاريعهم السياسية ، ويقومون بكل ما من شأنه تعزيز القبضة على الجماعات الإسلامية المتطرفة ومنها جماعات الإخوان المسلمين ، يساعدهم في ذلك العائدات المالية الضخمة التي يدرها عليهم النفط والغاز .

كما يعتمد الفكر الوهابي على افتتاح مئات المساجد والمدارس في أماكن متفرقة من العالم لنشر الفكر الوهابي القاتل والمدمر ، وتأليب المسلمين ضد المسيحيين وضد المذاهب الإسلامية الأخرى التي تعارض الوهابية .

كما أن دول الخليج حاولت خلال الخمسين عاماً الماضية نشر الفكر الوهابي في العالم العربي ، إلا أن الأنظمة الحاكمة في تونس وليبيا وسوريا والعراق مثلاً لم تكن تسمح بهذا التمدد ، ولكن بسقوط هذه الأنظمة استغلت السعودية فوضى غياب الرقابة فاخترقت مصر وتونس وليبيا والعراق ، وجندت المئات من دعاة الوهابية وشيوخها وأرسلتهم إلى هذه البلدان ، وبالتدقيق بنوع المحاضرات التي يقومون بإلقائها على شباب المسلمين في هذه البلاد تَبين أنها "عبارة عن تدريس للعقيدة الوهابية القائمة على تكفير المسيحية وجميع المذاهب والفرق الإسلامية الأخرى كالشيعة والمتصوفة والأشعرية ، والإفتاء بجواز قتلهم وقطع أيديهم وأرجلهم وسبي نسائهم وأطفالهم وأموالهم[١] .

كما أن دول الخليج تلعب نفس الدور الهدام بإنفاقها لأموال النفط على شيوخ التكفير وتحليل قتل كل من لا يرضى عنه حكام الخليج ، فضلاً عن إنفاقها لملايين الدولارات لدعم العديد من الجماعات الإسلامية الإجرامية وتمويل خلايا إرهابية تستخدمها في زعزعة الاستقرار في البلدان التي يغضب عليها حكام الخليج ، فضلاً عن قيامهم بتجنيد وتمويل آلاف الإرهابيين المجاهدين ، وإرسالهم إلى كل من ليبيا وسوريا والعراق للقيام بالأعمال الإجرامية ورفع علم تنظيم القاعدة على أرض هذه البلدان .

(١٧) المناهج التعليمية للفكر الديني الإرهابي ، د. عثمان عبد الرحمن الشدادي ، مجموعة دراسات البحرين الفكرية ، ٢٠٠٩م .

حقائق عن الفاشية الوهابية

الوهابية خطر عقائدي وفيروس تكفيري واضح لا يخفى على عاقل وبصير ، ولكن ما هي النتائج المترتبة على هذا الفكر الفاشي الشاذ ؟

١–لم نعرف في تاريخ بلادنا إرهاباً إلا من جهتين اثنتين: إما مجموعات تكفيرية وهابية ، أو جماعات الإخوان المسلمين التي تستمد عقيدتها من الفكر الوهابي .

٢–لم نسمع في الدين الإسلامي عن فتاوى التكفير والقتل إلا من شيوخ الوهابية المنتشرين في جميع أنحاء العالم العربي .

٣–جميع الفتاوى التكفيرية التي تدعو إلى قتل المخالفين من السنة أو الشيعة ، وتحلل نسائهم وأطفالهم وأموالهم مصدرها شيوخ الفاشية الوهابية .

٤–جميع الفتاوى التي تُكفّر الغرب والشرق وتدعو إلى قتل غير المسلمين كالمسيحيين واليهود والبوذيين وتحلل نسائهم وأطفالهم وأموالهم تصدر من فتاوى شيوخ الفاشية الوهابية .

٥–جميع الفتاوى التي تُسمى فتاوى جهادية مصدرها شيوخ الوهابية .

و**النتيجة**: نستطيع القول أن مصدر الإرهاب كله هو الفكر الوهابي الإجرامي الفاشي ، ولا يتوقف هذا التضليل عند حدود العالم العربي بل يتعداه إلى الخارج ، ونحن لو دققنا في اتجاهات الشارع العربي فإننا لن نجد شعبية جماهيرية للجماعات والأحزاب الإسلامية الإرهابية في الوطن العربي إلا في أضيق الحدود ، لكن لو أخذنا بعين الاعتبار سيطرة المال الخليجي على أغلب أجهزة الإعلام ، لفهمنا حجم التضليل الذي يتعرض له الشعب العربي والعالم عندما يسعى إلى تقييم حجم ونفوذ الجماعات الإسلامية الإرهابية على أرض الواقع .

الجهاد الفاشي

مكونات الدعم الإرهابي للجهاد الفاشي في البلاد العربية

تعتبر الفاشية الدينية الوهابية أكبر ممول لما يسمونه "العمليات الجهادية" في سورية ممثلة بكبار المشايخ السلفيين العاملين في المؤسسات الرسمية الدينية ، وكذلك أئمة المساجد والهيئات الشرعية الذين يحرصون بقوة على تمويل منتظم وإسناد مالي غير محدود للمجهود العسكري التخريبي على أرض الشام والرافدين ،كما أن بعض مشايخ الفكر الوهابي الناشطين يُجبرون الناس وبأشكال

مختلفة عبر الترهيب والترغيب بالتبرع بمدخراتهم ومصوغات نسائهم دعماً لما يسمونه "الجهاد في أراضي المسلمين" ، وقد قدرت تلك التبرعات بملايين الريالات وبضع مئات من الكيلوات من المصوغات الذهبية والفضية .

وللعلم هناك مؤسسات أهلية ذات صلة ببعض شيوخ الفاشية الوهابية تعمل تحت غطاء مؤسسات خيرية ذات النفع العام أصدرت على فترات زمنية وبانتظام إعلانات ومطبوعات مشبوهة دعت فيها إلى التبرع لنصرة الجهاد في أرض المسلمين .

كما أن سهولة الحصول على المال وتمويل العمليات الإرهابية في البلاد العربية تكمن في أن معظم الممولين معجبين بتنظيم القاعدة ومناصرين لفكرها وهم من كبار أصحاب الأموال وذوي الدخول الكبيرة ويظنون أن تبرعهم يزيد من بركة أموالهم وثرواتهم ، ولذلك يبذخون من أموالهم على العمليات الإرهابية في سورية والعراق ، ومن بين هؤلاء تجار يعملون في الاستيراد والتصدير وقضاة ومشايخ وهابيون ائتمنوا على أموال الصدقات والزكاة التي يدفعها المواطنون لهم بغية صرفها على الفقراء والمعوزين والأيتام .

ويقول مطلعون على نسيج المجتمع الخليجي ودورة المال في هذه البلاد أن تقنيات القائمين على تمويل العلميات الإرهابية في سورية معقدة وهي في الواقع شبكة أفقية عريضة تتكون من شركات وهمية ومؤسسات افتراضية مرتبطة بوكالات لها فروع دولية وشبكة بنوك عالمية وإقليمية ومصارف محلية ذات طابع إسلامي ومؤسسات وقفية وصناديق استثمارية ووكالات ادخار المال الخاص ومحلات صرافة متعددة الوظائف وشركات تحويل العملات الأجنبية ، وكل هذه المؤسسات تقوم بتوفير غطاء محكم لعمليات تمويل سرية ضخمة للحرب الإرهابية الدائرة في سوريا ، "ويشارك في السيطرة على هذه الشبكة شريحة كبيرة من مشايخ الفاشية الوهابية ورجال أعمال ممن لهم خبرة واسعة في تبييض الأموال في السوق المحلية والعالمية ، مع العلم أن شبكة تمويل "الجهاد في الشام" – كما يسمونها في الخليج – تتكون من المئات مما عرف بتسميته بـ "خلايا التمويل النشطة" ، ولهم قاعدة جماهيرية واسعة ترتكز عليها مخططاتهم وتتخذ من المساجد في كافة المدن والقرى الخليجية وكذلك المدارس الشرعية والهيئات الدينية وحلقات التبليغ السلفية مروراً بتجمعات

القبائل البدوية والحضرية وانتهاءً بالنوادي الرياضية منطلقاً لجمع الأموال والتحريض على التبرع بالمال لإرساله إلى سوريا لاستخدامه في أقذر حرب دينية ضد المدنيين الأبرياء"[١] .

المناسك الدينية في دائرة الفاشية الوهابية

لا يخفى على أحد أهمية المناسك الدينية في حياة المسلمين وخصوصاً الحج ، وما فيه من مناسك الأصل فيها أن تؤمن الأمن والأمان والسكينة الفكرية والروحية والدينية لحجاج بيت الله الحرام ، ونشر الوعي والتآخي وثقافة التسامح والوسطية ، ولكن ماذا يحدث في الحج مثلاً ؟

تبدأ ثقافة الكراهية والإلغاء والإقصاء حيث يعمد أزلام الوهابية إلى ممارسة التطرف ونشر الكراهية بين جموع الحجيج والملايين من الزائرين إشباعاً لهوسهم الديني العنيف وغرائزهم العقائدية الراديكالية التي أنتجت عقول تجيز قتل الملايين لسبب بسيط فقط وهو الاختلاف في المعتقد أو حتى الرأي .

هذه هي حال دول الخليج التي تحتضن أشرس وأعنف وأخطر دين ومذهب في العالم ، وهو "الوهابية" ، فما يُشاهده الحاج خلال مناسك الحج وخلال جولة دينية واستطلاعية بسيطة وبغض النظر عن مزاعم الخدمات التي يتباهون بها للحجاج إلا أن ما يُشاهده ويلامسه من قريب وعن كثب يجعلنا أمام مسؤولية جسيمة لفضح ما تمارسه المؤسسات الوهابية ، والكشف عن حقائق الدور الرسمي في دعم تلك المؤسسات التكفيرية المتطرفة والإرهابية التي تمتلك نفوذاً واسعاً في كل مكان ولها رموز يعملون على تضليل العباد وتخريب العقول من خلال نشر أفكار التطرف وفتاوى تجيز إباحة دماء الملايين من الناس في كل مكان .

وتحت عناوين المؤسسات الخيرية تعمد على نشر سموم ثقافة الكراهية والأفكار التحريضية الصريحة داعية إلى زرع بذور الفتنة والشقاق بين البشر لتنوعهم الفكري والعقائدي ، إلا أن ما هو مميز أن تمارس الدولة الوهابية مبدأ "التقية" ، وتتقمص دور النفاق في نشر الأفكار المتطرفة رغم فضاحة ما قامت بها المؤسسات الرسمية في إطلاق يد الكلاب الوهابية للتشويش على العقول من خلال حملة تبشيرية واسعة بعد انتهاء موسم الحج – وقبلها أيضاً – عبر نشر كتب الضلال والكراهية

(١٨) حقائق عن الإرهاب في سوريا ، مقال للدكتور عبد الوهاب القحطاني ، السياسة الكويتية ، دوريات الفكر السياسي ، ٢٠١٣م .

وأشرطة الكاسيت التي يتحدث فيها شيوخ الفتاوى والجهاد عن "الشرك" و "البدع" و "الكفر" في محاولة حثيثة لنشر المعتقد الوهابي الفاسد والمتطرف .

تجنيد الإرهابيين للقتال في البلدان العربية

ليس مستغرباً أن تقوم المؤسسات الدينية الوهابية بإرسال المتطوعين إلى سوريا والدول العربية الأخرى كالعراق واليمن للجهاد ، أي لقتل المسلمين العرب ونشر الموت في البلاد العربية ، ولكن المستغرب هو أن يدعي النظام الوهابي أنه يُحارب الإرهاب وأفكار التطرف فيما الوقائع والمشاهدات على الأرض تثبت العكس وتدحض كل تلك المزاعم ، حيث هناك تعبئة خاصة تجري في الوسط الديني وخاصة في المدينة المنورة وبين صفوف ما يُسمونهم "المطاوعة" أو "المطوّعين" أصحاب الأثواب القصيرة واللحى الطويلة والذين يتحولون بعد التجنيد إلى أناس آخرين يلبسون "الجينز" ، ويحلقون اللحى للتمويه ، ويذهبون إلى سورية للانضمام إلى مجاميع القاعدة وجماعات القتل الإرهابية .

ولكن كيف يتم التجنيد ؟

يتم التجنيد من خلال عدة قنوات ومؤسسات رسمية وشبه رسمية ، الرسمية هي هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، هذه المؤسسة التي لها اليد الطولى في المدينة وخاصة أطراف الحرم ، وتقوم بدور الردع لكل من يُحاول أن يُمارس طقوس دينية تخالف المذهب الوهابي ، حيث تَصطاد الشباب وتقنعهم بالذهاب إلى سورية لقتل الروافض والبعثيين ، والمعروف عن هذه الهيئة أنها تملك صلاحيات واسعة تتخطى صلاحيات رجال الأمن والأجهزة الأمنية ، بل نستطيع القول أن الأخيرة تُعتبر أداة تنفيذ بيد الهيئة لا تستطيع عصيان أوامرها ، وهي تملك أقبية تحت الحرم وتحت مقبرة البقيع يتم اقتياد كل من يَشكون أنه يُمارس طقوس أو يُبدي مقاومة في وجه تطرفهم إلى دهاليزها لتنفيذ عقوبة الجلد والضرب والتعذيب ضده .

أما المؤسسات شبه الرسمية فهي الجمعيات الخيرية وبعض المدارس الدينية وحلقات الدروس العقائدية التي تقام في الحرم النبوي أو في الجوامع المنتشرة في المدينة ، والحكومة على اطلاع كامل

عن تلك الحلقات والمجاميع ، ولا تتخذ أي إجراء ضدهم ، بل هناك معلومات مؤكدة بأن النظام يدعمهم ويخصص لهم الأموال الطائلة تحت عناوين مختلفة[١] .

وفي مكة بعد انتهاء المناسك مُباشرة تبدأ عملية توزيع كميات كبيرة من الكتب التكفيرية المحرضة على الكراهية ، وخاصة ما يتعلق بزيارة القبور والأماكن المقدسة ، وفيها دعوة صريحة إلى الفكر الوهابي المتطرف بمجموعة كتب وكراسات في طباعة أنيقة وذات ألوان جذابة وفاخرة تشير بوضوح إلى وجود مؤسسات ضخمة وحكومية تدعم ذلك المجهود التبشيري التكفيري الذي أنتج عناصر وأناس من مدرسة ١١ سبتمبر ، والذين تفاخروا من بعدها بغزوة "منهاتن" الشهيرة[٢] !.

والمؤكد أن الفاشية الوهابية في المنطقة قد أعطت الضوء الأخضر لكل المتطرفين والإرهابيين وأصحاب الأفكار الهدامة التحريضية للشروع بحملة واسعة من التشويش الإعلامي والتحريض على العنف ، وهذا ما يُلامسه الحاج بشكل يقيني وقطعي ، وما زالت ماكينة الإعلام الموالية للفاشية الوهابية تدعم وبشكل علني القوى التكفيرية والمتطرفة في مكة والمدينة ، وتلهب فيهم مشاعر الحقد والكراهية ليقوموا بدور العبث بالعقول في الأماكن المقدسة من خلال الدعاية التبشيرية المكفرة وعبر الكتب المحرضة على التكفير والفتنة والطائفية في الأماكن المقدسة ، وكل هذا يؤدي إلى عودة جديدة إلى الأصولية الدينية الوهابية بعنفوانيتها وكفرانيتها !.

فوبيا الفتاوى الفاشية

لقد استغل بعض المرتبطين بالتوجهات الأمريكية الجديدة حماس بعض الشباب المسلم الذين يعتقدون جهلاً وغباءً بعد غسل دماغهم من خلال بعض فتاوى جماعة من المحسوبين على الإسلام أن ما يقومون به ضد إخوانهم في العقيدة واللغة والانتماء وضد بعض الأجانب إنما هو جهاد في سبيل الله .

لقد جاءت هذه العمليات الإجرامية لتكون حسب الظاهر بمثابة إعلان حرب على كل من يخالف أو يقف أمام توجهات وآراء أولئك الذين يدفعون بهؤلاء الانتحاريين للقيام بمثل هذه

---

(١٩) رسائل الفكر التكفيري المعاصرة ، د. قاسم عبد الحميد الساجري ، ص٩١ ، دار الرشيد ، بغداد ، ط٢ ، ٢٠١٣م .

(٢٠) المصدر السابق ، ص١٢٤ .

الأعمال الإرهابية ممن يجهلون أو يتجاهلون أنها تتنافى كلياً مع حرمة قتل النفس المقرونة بجريمة الشرك بالله ، ومع حرمة الظلم والفساد في الأرض والتواطؤ على الإثم والعدوان .

والسؤال المشروع هنا ، هل هؤلاء المحرضون عبر بعض الفتاوى بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وعبر نشر ثقافة التكفير وتزيين بعض الأعمال الإرهابية التي تُؤدي إلى وقوع مثل هؤلاء الشباب في الضلال ، هل هؤلاء المحرضون هم مقتنعون بما يقومون به ، أم أنهم مجرد أداة فاعلة لقوى خارجية ؟.

ومع التطلعات الأمريكية في تغيير بعض الأنظمة وتغيير التوجهات والمعتقدات في المنطقة وهو ما لقي تجاوباً سريعاً ومفاجئاً من بعض القيادات العربية خاصة التي ظلت تدعي الثورية أكثر من ثلاثين عاماً ، وعدم التجاوب من قيادات عربية أخرى والتي تستمد شرعيتها من تمسكها بعقيدتها وثوابتها السياسية داخلياً وخارجياً كسورية ، حيث يأتي ثقلها الإقليمي والدولي بكونها محور الاستقرار في المنطقة من استمرارها في الحفاظ على هذه الثوابت مما يستحيل عليها المساومة فيها مَهما كلفها ذلك .

أمام هذا الصمود كان لا بد من استخدام وسائل عديدة لزعزعة أوضاعها واستقرارها واقتصادها والتي تمثلت بحملات إعلامية شرسة ، حيث ساعدت وسائل الإعلام الأمريكية في هذا الجانب بالذات بعض وسائل الإعلام العربية التي تقف وراءها بعض الشخصيات العربية بما فيها شخصيات داخلية ممن كان ينتظر منها أن تكون أكثر إخلاصاً ووطنية ، لكن هذه الحملات الإعلامية المستمرة الآتية من ذوي القربى والبعدى لم تُحقق أهدافها المرجوة ، خاصة وأن القيادة السورية كلها تستوعب دروس وعِبَرَ التاريخ جيداً ، وتعرف حتماً أن انهيار الخصوم أمر حتمي .

أمام عدم نجاح هذه الحملات الإعلامية الشرسة والمستمرة كان لا بد من استخدام أهم الجوانب المؤثرة في عقل وتوجه الإنسان السوري ، وهو الجانب العقائدي المرتبط بوجدانه وشعوره ووجوده ، فوجدت هذه القوى الخارجية ضالتها في مجموعة ضالة ومُضِلَّة ممثلة بهؤلاء المحرضين بفتواهم وأفكارهم طمعاً بتغيير النظام ، مما يُؤكد بكونهم مجرد أداة فاعلة لمن يرغب ويتطلع في تغيير النظام والثوابت الأزلية داخل المجتمع السوري .

كل هذه الدلائل الموجزة والتي هي غيض من فيض إنما تؤكد أن هؤلاء المحرضين مرتبطون بحوافز ومبررات وتوجهات خارجية ، مما يؤكد أن اللعبة شبه منتهية ، وأن تعريتهم وتعرية الجهات الخارجية التي هي وراءهم – وهي معروفة – خاصة في ظل استمرار مثل هذه الأعمال الإجرامية والتي بات السكوت عن كشفها شبه مستحيل ، إنما يعني أن الإرهاب في مجتمعنا السوري يلفظ أنفاسه الأخيرة.

الفاشية الدينية ومحاربة الفكر والإبداع والنقد

هناك عدة قضايا تتعلق بمحاربة الفاشية الدينية للفكر والإبداع والنقد نجملها بما يأتي:

القضية الأولى: تتعلق بالفاشية الثقافية التي تلازم الحركات الدينية المتطرفة ، وهي لا تتم حتماً عبر القوانين ، ولكن عبر ممارسة الإرهاب الفكري على كل فكر مخالف ، لأن الفكر الفاشي لا يملك مقومات الصمود أمام التنوع والمجتمع المفتوح .

القضية الثانية: تتعلق بنقد التراث الإسلامي ، ففي حين أن نقد النص الديني بل والهجوم عليه شيء طبيعي في المجتمعات المتقدمة ، تُمارس الحركة الإسلامية المتطرفة توسعاً لا معنى له في تعريف المقدس ، حتى بات يَشمل التراث والفقه والتاريخ والخلافة والحكومات الإسلامية ، بل وصل الأمر أن كل شخص يُطلق لحيته ويرتدي الزي الباكستاني أصبح له حصانة المقدسات الممنوع الاقتراب منها بالنقد ، أي أن كل ما يتعلق بتاريخ وتراث الدولة الإسلامية القديم والمعاصر برمته أصبح بقرة مقدسة .

القضية الثالثة: تتعلق بمصطلح "ازدراء الإسلام" وهو أيضاً جُزء من مصطلحات الفاشية الدينية ، لتعميم الفاشية الثقافية والإرهاب الفكري عالمياً ، والنزول بمعايير الحريات العامة والخاصة الدولية إلى مستوى أدنى ، خاصة بعد تبني مجموعة الدول الإسلامية هذا المصطلح عبر الأمم المتحدة ومؤسساتها ، في الوقت الذي لا تقدم هذه الدول تعريفاً منضبطاً لمعنى كلمة "ازدراء الإسلام" ، بل هي محاولة لنقل المصطلحات المطاطة التي تَفرضها النظم المستبدة على شعوبها إلى المستوى الدولي ، أي أن الدول الإسلامية تَسعى جاهدة إلى تدويل الاستبداد والإرهاب الفكري عبر مصطلحات مثل: "ازدراء الإسلام" و "الإسلاموفوبيا" و "العداء للإسلام" و "التأمر على المسلمين" و "استهداف المقدسات الإسلامية" ...

القضية الرابعة: تتعلق بتقييد أقلية دينية منفتحة نسبياً بمعايير الاستبداد الديني عند متطرفي الأغلبية ، وهذا يشكل مظهر من مظاهر طغيان الأغلبية لمحاولة قولبة الأقلية وتذويبها في ثقافة لا تريدها وتتنافى مع معتقداتها وتراثها .

القضية الخامسة: تتعلق بمفهوم النقد عموماً ، فالفاشية الثقافية تعتبر النقد أداة هدم ، والدولة العصرية المتقدمة تعتبر النقد أداة بناء ، بل هو أهم أداة بناء عرفها التاريخ ، بل يُمكن القول أن النقد هو المحرك الفعلي لنهضة الحضارة الغربية برمتها ، بل ولا يُمكن تحسن وتطور المجتمعات الإنسانية بدون ممارسة النقد على نطاق واسع ، ولكن الفاشية الدينية تعادي وتجرم النقد لأنه يُحطم الأصنام المقدسة التي تصنعها وتجبر المجتمعات على عدم المساس بها .

القضية السادسة: وهي الخطيرة ، وتتعلق بمستقبل بلد تحاصره الفاشية الثقافية ، فلا يُمكن لهذا البلد أن يأخذ بالمناهج العلمية المتطورة ، ولا بأساليب البحث العلمي الحديث ، ولا بأدوات التقدم ، ولا بمنتجات الحداثة ، ولا بمظاهر العولمة ، ولا بمتطلبات الديمقراطية الحقيقية ، ولا بمستلزمات السياحة العصرية ، ولا بمناخ الاستثمار الجذاب ، ولا بالاستقرار السياسي القائم على الحكم الرشيد ، ولا بالإعلام المتوازن الموضوعي المهني ... ، وباختصار: إن البلد الذي تُحاصره الفاشية الثقافية يَخرج من التاريخ .

الفاشية الوهابية ... لماذا لم تطال الصهيونية ؟

هل سيكون الموقف الأمريكي والأوربي من الفاشية الوهابية كما هو عليه الحال اليوم ، حيث غض النظر عن كل أنواع القتل والإرهاب متعدد الأشكال والأنواع ، فمن الدعم المالي المكشوف للعصابات التي تعبث قتلاً وفساداً في سوريا ولبنان والعراق ، ومن قبل ذلك في دول المغرب العربي ، إلى الاحتلال المباشر ودخول الجيوش الوهابية لدول أخرى ، كما يحصل في البحرين اليوم ، وإلى تدخلات بعيدة عن المنطقة ، ودعم الإرهاب التكفيري الذي لا دين ولا عقيدة له . هل يمكن للفاشية الوهابية أن تقوم بذلك بدون الدعم الأمريكي[1] ؟.

(٢١) تساؤلات في الحياة السياسية اليومية للعالم العربي ، موقع الإسلام يتحدى ، عبد الله الأكرمي .

لا يحتاج الجواب شديد ذكاء ، فالموقف واضح على المستوى الدولي من الإرهاب الوهابي بأنها بيادق تحرك من وراء الستار ، قد تكون لها بعض التوجهات العدائية تجاه بعض الدول ، لما يمتاز به حُكامها من تحجر وإغراق بالتخلف البعيد عن تعاليم الإسلام الذي كان رسالة نور وعقيدة ثورة غيرت حياة أمم كثيرة من التخلف إلى واقع متقدم ، لا كما هو حاصل اليوم في الخليج من العودة إلى أفكار منغلقة تحمل بذور القتل والإرهاب[١] .

إن الدول راعية العولمة والمنظرة لها وجدت ضالتها في الفكر التكفيري الفاشي لتحقيق مآرب عديدة دون أن تخسر هي شيء ، منها على سبيل المثال:

-تحقيق أهدافها نحو عولمتها المبنية على الفوضى الخلاقة ، والتي ساهم المال الوهابي والفكر التكفيري في خلقه واقعاً على دول المنطقة .

-تحقيق تقزيم دول المواجهة مع الصهاينة مقابل تدعيم قوة الصهاينة وتثبيت كيانهم الدخيل .

-القضاء على الجيوش العربية الكبرى التي كان من الممكن أن تواجه إسرائيل في أي حرب قادمة ، مثل الجيش العراقي والجيش السوري ، وإشغال الجيش المصري والمقاومة اللبنانية .

-سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية على موارد المنطقة وتحكمها بها .

-الإساءة إلى الدين الإسلامي ومحاولة تشويهه وتصوير القتل والإرهاب الذي تقوم به العصابات التكفيرية وكأنه واقع الإسلام .

-مد يد الصداقة وإقامة علاقات وتفاهمات مع الصهاينة مما لم يحلموا به من قبل ، وفتح سفارات لهم في دول المنطقة ، مما زاد في عنجهيتهم وأطماعهم في المنطقة كلها .

-اكتشفت أمريكا ودول أوروبا أن المواجهات المباشرة تنهكها وتكلفها الكثير من المال والسلاح والعتاد والرجال ، كما حصل في العراق وأفغانستان ، وأن ما يؤديه المرتزقة بواسطة المال الوهابي يُعوض كل هذا الجهد ، وهذا وغيره جعل أمريكا وحلفاءها يُناصرون حكاماً يَغرقون في ظلام العصور المتخلفة ، ولا يذكرونهم بمكروه رغم أنهم لا يَعرفون الديمقراطية ولا روح العصر التي تنادي به عولمتهم العصرية .

---

(٢٢) المصدر السابق .

ولكن السؤال هنا: ماذا لو كان الإرهاب ضد الصهاينة ؟

لو كانت عصابات داعش والنصرة ومثيلاتها قد نفَّذت جزءاً من عملياتها ضد الصهاينة ، فهل كانت أمريكا وحلفاءها سيصمتون كما هو صمتهم اليوم ؟ وهل سيمدون هذه العصابات بالدعم ويعتبروها فئات مقاومة ثائرة رغم أنها عناصر غريبة عن الدول التي تُقاتل فيها وينطبق عليها مصطلح المرتزقة ، وهي بعيدة عن المقاومة ؟.

بالتأكيد إنها أسئلة أجوبتها واضحة ، وإن هذا لا يُمكن أن يحصل لا مع داعش ولا مع جبهة النصرة .

الغرب ومحاربة الفاشية الدينية

إن الجماعات الإسلامية المتشددة القريبة من تنظيم القاعدة تُسيطر على أقاليم تَفوق مساحتها مساحة بريطانيا ، وذلك غربي العراق وشرقي سوريا ، وفي أفغانستان والصومال ، والغريب أن الدول الغربية رفعت شعار "محاربة الإرهاب" لتشن حروباً في العراق وأفغانستان ، وأنفقت أموالاً ضخمة ، وقوضت الحريات ، وانتهكت حقوق الإنسان ، وتغاضت عن التعذيب والاحتجاز دون محاكمة ، والتجسس على بيوت الناس" ، لكنها فشلت في تحقيق الهدف ، ولكن لماذا ؟.

العالم الغربي ظل سنوات طويلة يُعاون حكومات الدول الإسلامية المختلفة للقضاء على الإرهاب بالسلاح والمال والدعم السياسي ، في الوقت الذي فشل هؤلاء الحكام فشلاً ذريعاً لدرجة أن الإرهاب وصل للغرب في عقر داره ، وتجلى ذلك في ١١ سبتمبر ، وبعدها قرر الغرب أن يَترك الإرهاب في منابعه ، فالدول الإسلامية أحق به ، فهي من تُنشئه وترعاه ، وبدلاً من تصديره قرر الغرب أن يتيحوا له الفرصة لتصعيده للحكم ، أو تكوين ما يسعى له ، وهو "الخلافة الإسلامية المزعومة" ، والتي للأسف لا زال في الوطن العربي من الجهال ملايين يصدقون أن الدين أمر بذلك بفضل النشأة المتشددة والفهم الديني المغلوط ، ولذلك حاول الغرب جاهداً مُساعدة الجماعات الإسلامية في إعادة توطينها في الدول الإسلامية ، وانسحب تدريجياً من الحرب عليها ، وسلم الإخوان الراية لتقود الفصائل والجماعات الإسلامية ، وتدريجياً لم يُصبح الغرب وصياً على أحد مثلما يظن المغفلين ، وأن أمريكا وأوروبا ستحرك جيوشها مثلما كان يحدث في السابق ، لو حدث أي مشكلة في دولة عربية ، الغرب فاض به الكيل وفشل في التعامل مع العقول

العربية ، فهو لا يفهم كيف يُربي العرب الإرهابيين من الصغر ، ويريدوا أن يحاربوهم في الكبر ! فإما مع الإرهاب تحتضنوه داخل بلادكم ، وقد يصل للحكم مثلما كان الربيع العربي ، وتريحوا العالم من شروره ، أو تحاربوه وتقضوا عليه وتجففوا منابعه .

كما أن وجود السلفية الوهابية وترعرعها في دول الخليج هي السبب الرئيسي لكي تكون بيئة حاضنة لمشروع التطرف والإرهاب ، فأسلوب التعليم والاهتمام الزائد بالنشأة المتشددة تجعل الشخص مُعداً ومهيأً لكي يكون مَشروعاً إرهابياً لو أُتيحت له الظروف ، ولن نَضحك على أنفسنا ، فالمال الخليجي من مشايخ السلفية هو السبب الرئيسي لانتشار التشدد والإرهاب من شرق الوطن العربي لغربه وحتى امتد لأوروبا مع المهاجرين ، ومن أمثلة ذلك سفير مالي السابق في السعودية ، والذي أصبح قائداً إرهابياً كبيراً في مالي لتحقيق حلم الخلافة الإسلامية الذي قضت عليه فرنسا بأموال خليجية ، والأمثلة غيره كثيرة ، فلا تكاد تخلو حادثة في الغرب دون التشكيك في أي إسلامي متشدد ، كاحتمال أرجح للإرهاب .

ودول الخليج تدفع ثمن غض بصر العالم عن ترعرع الفكر المتشدد داخلها من خلال علاقات وصفقات كبيرة بمليارات ، لدرجة أنها أصبحت من أكبر مُستوردي السلاح في العالم ، في حين أنها لو قامت بإحلال الفكر الوسطى السمح مَحل الفكر الوهابي المتطرف ، فإنها سَتُخرس ألسنة العالم الذي يَسعى لاقتناص الفرص للاستيلاء على البترول في الخليج .

والنتيجة ما هي ؟

سورية أصبحت مُدمرة في أكبر كارثة إنسانية ، ولا زالت دول الخليج تدعم الجماعات الإرهابية لإزاحة النظام ! رغم أن الغرب رَفع يَده عن دعم الإرهابيين ، ولا نعرف متى سَيَعِي هؤلاء أن أموالهم تذهب لإرهابيين وتجار بَشر ، وسينقلبون إليهم بعد الانتهاء من سورية إن استطاعوا ، ووقتها سيتركهم العالم ليشاهد كيف يَقضي الإرهاب على نفسه في منابعه .

الفاشية الدينية والنفخ الإعلامي

فقد انتشر في الآونة الأخيرة استعمال شياطين الإعلام المضلل لمصطلح الفاشية الدينية ، ويريدون به إرهاب الناس من الشريعة الإسلامية والتحاكم إليها ، لذا وجب علينا أن نحرر هذا المصطلح من زيفهم وتضليلهم ، ووصفه غير سياقه السابق الذي تحدثنا عنه ، ويتردد كثيراً على لسان البعض قول: الدولة الدينية ، والفاشية الدينية ... ، ومصطلح الدولة الدينية فيه خداع إعلامي كبير ، فنحن كإسلاميين أول من نتصدى للدولة الدينية الثيوقراطية ، والتي هي ثلاث أنواع: الدولة الكهنوتية وقد أزالتها العلمانية من أوروبا ، ودولة الحاخامات وهي تحكم الكيان الصهيوني الآن ، أما الإسلاميون فيريدون الدولة الإسلامية ، وليس الدينية دولة مرجعيتها في سن القوانين وفي كل ما هو متعلق بالحياة المدنية تكون المرجعية فيه حلالاً وحراماً للشريعة الإسلامية ، ضمن دولة مدنية تحترم الآخر على إطلاقه وتفرز مصير المسلمين ضمن علاقات دولية تعترف بالقوانين الدولية المجمع عليها ، دولة مدنية السيادة فيها للتسامح والأمن والأمان وقبول الآخر وإعطاء المرأة فيها الدور الريادي الأمثل .

الأحزاب الدينية مدخل للسلوك الفاشي

إن قيام الأحزاب على أساس ديني فتح الباب أمام الفاشية الدينية ، وأساء إلى الدين كما أساء إلى الناس باسم الدين ، ولهذا لا يجب إقحام الدين في اللعبة السياسية التي غرضها مصالح فقط ، وهو ما من شأنه أن يشوه الدين[١] .

إن الأصل منع قيام أحزاب سياسية على أساس ديني ، لأن الأحزاب تستخدم الدين لأغراض أخرى ، وتُصدر فتاوى بعيدة كل البعد عن الدين ، ولذلك يَجب فصل الممارسة السياسية عن الدين[٢] .

إن إيجاد أحزاب على أساس ديني هو في حد ذاته تقسيم وتفرقة بين المجتمع ، فهذا سني وهذا شيعي ، وهذا مسلم وذاك مسيحي أرثوذوكسي أو كاثوليكي ، إلى ما لا نهاية ، فالأحزاب التي تُبنى على أساس ديني أو عرقي أو مهني أو أي نوع من أنواع التمييز بين الناس ، هي مدخل

---

(٢٣) النظام في الإسلام السياسي ، د. ضياء الدين الريس ، ص١٠٧ ، دار المجد ، القاهرة ، ط٢ ، ٢٠٠٨م .

(٢٤) المصدر نفسه ص١٢٨ .

رئيس للسلوك الفاشي الموصل للتطرف والعنف والإرهاب ، فالكل سواسية ، وأي محاولة لذلك هي محاولة لبث الفتنة وإثارة النزاع والبلبلة بين صفوف المواطنين .

جدلية الدين والخطاب الديني

هناك لبس واضح وجلي ما بين الخطاب الديني وحقائق الدين الواضحة ، وهذا اللبس الذي أربك أصحاب العقول والفهم والإدراك لمتطلبات الدين والحياة هو ذاته أثار تساؤلات كثيرة عن حقيقة الخطاب الديني الشارح لهذا الدين ، ولعل أهم مصادر اللبس يعود إلى عدم الاعتراف بوضوح وبشكل مباشر وعلني بأن الخطاب الديني شيء والدين شيء آخر ، يُقال بشكل مستمر وعن حق: إن الإسلام مثل غيره من الأديان الأخرى لا يقر الإرهاب بكل أشكاله ، وإنه بريء مما يقوم به الإرهابيون ، لكن لا بد من مواجهة أن هؤلاء الإرهابيين يستندون إلى نصوص دينية ، وقد استندت جماعات أخرى مشابهة قبلهم طوال التاريخ الإسلامي إلى النصوص نفسها لتبرير ممارسات مماثلة . ماذا يعني هذا ؟ يعني أن هذه الجماعات مثل تلك ، قرأت النصوص الدينية بطريقة مغايرة لما تواضعت عليه الأغلبية ، قراءة تخصها هي ، ومن الواضح أنها قراءة متطرفة ومنحرفة من حيث أنها تُجيز لنفسها ممارسة العنف والقتل من دون حق ، وخارج حدود القانون وحدود الدولة ، وهي بهذه القراءة وتَطبيقاتها تُشكل تهديداً للاستقرار والأمن .

إذن نحن أمام قراءة مختلفة وخطيرة للنص ، لكنها بالتأكيد ليست النص ذاته ، والدليل أن هناك قراءات أخرى أكثر استنارة وأكثر التزاماً بمقتضيات هذا النص مما له علاقة بالحقوق والحريات والأمن والاستقرار ، لماذا لا نواجه المسألة من هذه الزاوية التي تميز بين الدين من ناحية وبين الخطاب الديني من ناحية أخرى ؟ والاختلاف بين الاثنين أشبع بحثاً ودراسة ، وإذا كان يتعذر قبول حقيقة هذا الاختلاف وحقيقة خطورته ، فليس أقل من قبول جعله موضوعاً للحوار والمناقشة ، وذلك لمواجهة هذا اللبس الذي لا يقل خطورة عن ظاهرة الإرهاب نفسها .

ويجب الانتباه إلى أن الملاحظات السابقة لا تعني أن الإرهاب يتمتع بقاعدة شعبية في المجتمعات العربية ، ولو كان الأمر كذلك لتغيرت صورة الأحداث ، فالحقيقة أن هناك شبه إجماع على رفض هذه الظاهرة ، كما أن هناك إجماعاً على شرعية النظام السياسي القائم ، لكن الملاحظات السابقة تعكس طبيعة المرحلة التي يمر بها المجتمع ، وطبيعة الارتباك الذي يُعانيه تحت وطأة

تغيرات حدثت للمجتمع ، وتحدث في المحيط الإقليمي الذي ينتمي إليه هذا المجتمع ، وإلى عدم مواجهة الاختلاف بين الدين وبين الخطاب الديني ، ونشير هنا إلى الاعتماد على الخطاب الديني في مواجهة عنف يَنطلق من الخطاب نفسه ، وإن بقراءة مختلفة ، حيث "يجد هؤلاء الشباب أنفسهم مكشوفين أمام مجتمع مرتبك ومنطقة مرتبكة تعصف بها أحداث جسيمة ، في الوقت نفسه يجد هؤلاء الشباب أنفسهم أمام مصادر متعددة ومختلفة من المعلومات والأحداث ، ومن الشحن العاطفي من ناحية ، وأمام أحداث وانكسارات لا يعرفون تفسيراً لها ، ولا يشعرون أن هناك حدوداً يُؤمل أن تتوقف عندها من ناحية أخرى ، حتى الدولة لا تملك – أو هكذا يبدو – ما تقدمه لهؤلاء وسط هذه الحوادث والتحولات الكبيرة"[١] ، هناك جرعات من التاريخ تترى على المنطقة ، جرعات كبيرة ومتتالية يَصعب هضمها واستيعابها بسهولة ، إلى جانب ذلك "يجد هؤلاء الشباب أنفسهم أمام سلبيات وأخطاء اجتماعية وسياسية واقتصادية ، لكن من غير المسموح مواجهتها والاعتراف بها ومناقشتها علناً ، وما هو موجود دائماً هو الخطاب الديني ذاته ، فالمنطقة تغيرت ، والعالم بأسره تغير ، والأحداث تغيرت في طبيعتها وفي الوتيرة التي تسير عليها ، لكن هذا الخطاب لم يتغير ، ولا يبدو أنه قادر على الاستجابة لتلك التغيرات"[٢] .

من هنا يفرض السؤال نفسه إن كان مصدر التهديد هو الإرهاب بحد ذاته ، أم الطريقة التي يتم التعامل بها مع هذه الظاهرة المقيتة .

مناشدة

إن المجتمع الدولي والعالم يتحمل مسؤولية أخلاقية للتصدي لخطر الفكر الوهابي التكفيري المتشدد ، وكما تصدى العالم قبل حوالي ستة عقود من الزمن للفكر النازي في ألمانيا والفاشية في إيطاليا والشيوعية في الاتحاد السوفيتي !.

إن خطر الوهابية كخطر النازية والفاشية ، لأن هذا الفكر متلفع بالدين بالرغم من أنها ليست مذهب من مذاهب المسلمين ولا منهج إصلاحي ، بل هي حركة وفكر تدميري هدام يعتمد

---

(٢٥) التحولات الفكرية الدينية في المجتمعات الإسلامية ، د. مُحَمَّد صدقي عطا الله ، ص٢٥١ ، دار الريان ، القاهرة ، مصر ، ط١ ، ٢٠٠٩م .

(٢٦) المصدر السابق ص٢٥٧ .

على إقصاء الآخر وتكفير وإلغاء وعدم الاعتراف بأي فكر ومذهب ودين آخر ، هذا الفكر ينتهك الأعراض ويستبيح الحرمات باعتماده على العنف والتطرف والحقد وتصفية العدو ، لذا يعتبر هذا الفكر ووجوده خطورة على البشرية والأديان الأخرى ، لأنه فكر متخلف لا يعترف بالتعايش مع الغير ، وهم أصحاب الفكر الشمولي الذي يَعتمد على قيم الجاهلية والبادية والصحراء .

لكل هذه الأسباب والعوامل التي تحدثنا عنها في بحثنا هذا وغيرها لا بد أن يتعاون الجميع إلى القضاء على هذا الفكر الوهابي وقبره إلى الأبد ، والتحرك السريع مع المجتمع الدولي والمنظمات العالمية لإصدار قرار ضد هذا الفكر ، ومحاسبته وكل من يقف خلفه ووراءه ، ويجب أن يُحاكم لأنه أنتج القاعدة وحركة طالبان الإرهابية المتخلفة ومئات الآلاف من الإرهابيين والقتلة في العالم الذين قاموا بأبشع الجرائم التي عرفها العالم ، وعلى اعتبار أن تزايد الأصولية الدينية والمتشددين في الدول العربية والإسلامية كان بسبب هذا الفكر الأصولي المتشدد والمتطرف الذي يَدعم الحركات الإجرامية في العالم كله ، وبما أن هناك ملفات وأسماء وصور وأرقام وتواريخ وحوادث موثقة لجميع الجرائم الإرهابية التي كان سببها هذا الفكر الوهابي الفاشي ، لذا يجب طبعها وتوزيعها على جميع دول العالم وبكل اللغات ، لكي يَتعرف العالم على ما اقترفته أيادي هذا الفكر الإرهابي ، وما حدث في سورية خاصة من قتل للأبرياء من مدنيين وعسكريين مسلمين ومسيحيين وباقي مكونات الشعب السوري على يد القتلة والمجرمين حاملي فكر القاعدة الفاشي ، الذي لا يعترف بالأخر بأي شكل من الأشكال ، كما أن هناك مسؤولية كبرى تقع على عاتق الإعلام العالمي والمحلي لفضح هذا الفكر وما قام به من جرائم ، والتصدي له وإلى الدور الخطير الذي تلعبه البعثات الدينية الوهابية الفاشية في مثل هذه الدول .

وختاماً نقول:

إن الفاشية الدينية والحركة الوهابية توأمان سياميان لا ينفصلان ، وهما السبب الرئيسي لتفشي الإرهاب الإسلامي في العالم ، وهما سبب تأليب المسلمين ضد المسيحيين ، وحتى ضد المذاهب الإسلامية الأخرى التي تعارض الوهابية .

وويلات هذه الفاشية وصلت إلى دول الخليج العربي نفسها حيث باتت تعاني من الإرهاب القاعدي الآن ، ولكنها تُسمي ما يجري في بلادها بالإرهاب ، وفي نفس الوقت تشجعه في سورية وفي البلدان الأخرى ، وتسميه بالجهاد في سبيل الله والإسلام ، وتواصل دعمه بالمال والفتوى ونشر ثقافة الكراهية والموت ، حيث ما زالت دول الخليج العربي تدعم أئمة المساجد من الوهابيين في تحريض شباب المسلمين الجهلة وتجنيدهم وإرسالهم إلى سورية لقتل أبنائه ، لذلك فالمطلوب من العالم المتحضر – وخاصة أمريكا – أن يُدركوا هذه الحقيقة ، وأن لا يَنخدعوا بالمواقف المزدوجة لدول الخليج العربي ، فتعلن أنها حليفة لأمريكا في حربها على الإرهاب ، ولكنها في نفس الوقت تدعم المنظمات الإرهابية بالسر ، كما يَجب على العالم الغربي أن ترغم دول الخليج العربي بلجم المؤسسة الوهابية ، وأن تتوقف عن دعمها للإرهاب ونشر ثقافة الموت ، وإلا فالمستقبل قاتم وخطير جداً على البشرية جمعاء .

ولا بد من قول في النهاية:

لقد دقّت ساعة الخلاص وإلى الأبد من الجماعات الإرهابية التكفيرية لحركات التكفير الفاشي في سورية ، وسيعلم الإرهابيون والتكفيريون وعملاء الاستعمار والصهيونية ومشاريعهم ومخططاتهم التوسعية إلى أي منقلب سينقلبون !.

والحمد لله رب العالمين

الإخوان المسلمون ... النشأة والحقائق

الجزء الثاني

المحتوى

مقدمة البحث ...

الإخوان المسلمون (الأهداف – المناهج – الغايات الغامضة) ...

قادة الإخوان يعترفون بغموض الأهداف ...

وللغموض في الأهداف حكاية ...

تغطية الغموض بشعارات مثالية ...

الغموض في التفاصيل ...

أسباب غموض المناهج ...

التربية الإخوانية للأعضاء ...

البنا يضفي عبقاً سلفياً على دعوته ...

التحايل والالتفاف في مواجهة الموقف ...

الإخوان المسلمون واحتكار الدين ...

الصوفية وأهل السنة يشككون في عقيدة الإخوان ...

وختاماً ...

مقدمة البحث

ليست هذه محاولة للتنديد بتاريخ الجماعة المظلم ، ولا حتى محاولة لإثبات كذب محاولاتها الراهنة في تملق الرأي العام والقول بغير ما تعتقد ، لكنها محاولة لإعطاء الفرصة للجماعة لكي تنظف يديها من هذا التاريخ الملوث فتنتقده ، لعلنا نمنحها بعضاً من التصديق .

فبعد الحديث عن الإخوان المسلمين في الجزء الأول "النشأة والحقائق" ، نأتي في هذا الجزء بشيء من التفصيل عن حقيقة الإخوان في مناهجها الغامضة وغاياتها الضبابية ، وكيفية تربية العضو في الجماعة على المراوغة والمخادعة ، وصولاً إلى التحايل والالتفاف في مواجهة المواقف من خلال الغموض في التفاصيل .

هذا الجزء الثاني ، وهو عبارة عن رؤية نقدية في آلية التربية الإخوانية للأعضاء الجدد ، الذين ينتسبون إلى هذه الجماعة ، وهو في الوقت نفسه يُسلط الضوء بشكل دقيق على حقيقة الأهداف والغايات الإخوانية بتجرد ، بعيداً عن الشطط الفكري والتصدير الحكمي ، وإنما بتوضيح ممنهج لحقيقة الإخوان في البدايات والنهايات .

الإخوان المسلمون

الأهداف – المناهج – الغايات الغامضة

كثر الحديث حول مناهج الإخوان وغموض أهدافهم ، واتهموا من قبل أعدائهم بإخفاء أهدافهم ، واعترف كثير من قادتهم بإخفاء هذه الأهداف ، والتمسوا له المبررات المختلفة ، وتركز الغموض حول الأهداف السياسية ، أما حول توقيت هذا الإخفاء فقد دار تساؤل ، هل أخفى حسن البنا أهدافه بعد فترة من تأسيس الجماعة ، حين بَرزت في الميدان السياسي ؟ أم هل أخفى أهدافه السياسية منذ بدأ تأسيس جماعته ؟.

وبمعنى آخر: لقد بدأت جمعية الإخوان المسلمين كجمعية دينية ، يَقتصر نشاطها على التربية الأخلاقية والاجتماعية ، فهل كان هذا هو هدفها الحقيقي والأصيل ، ثم تطورت مع الأحداث إلى الاشتغال بالسياسة ؟ أم أن هذا كان هدفاً مرحلياً يخفى وراءه الهدف الأصيل ، وهو الاشتغال بالسياسة والتطلع للحكم ؟.

وإذا استعرضنا تاريخ الجماعة وتاريخ حسن البنا ، وجدنا من الشواهد والمواقف ما يُوحي بالاحتمال الأول ، كما وجدنا أيضاً مَا يُرجح الاحتمال الثاني .

فمما يُرجح الاحتمال الأول أن ثقافة حسن البنا ونشاطه العملي قبل تأسيسه لجماعة الإخوان المسلمين كان يَغلب عليه الروح الدينية الصوفية ، كما كان بعيداً عَن التيارات السياسية والنشاط الحزبي ، ولم تبدر منه بوادر نقد للنظام السياسي ، بل كان يبدو منه الرضا والتأييد لهذا النظام ، فرغم الانقلابات الدستورية التي قام بها الملك فؤاد في العشرينيات ، فقد كان حسن البنا يملي على تلاميذه – وهو بالإسماعيلية – قِطَعَ إملاءٍ يُشيد فيها بالملك ، وكان يَحرض العمال على حسن استقبال الملك فؤاد ، وضرورة الخروج إلى الشوارع لاستقباله حين كان يَمر بالإسماعيلية ، وبرر هذا لأحد موظفي شركة قناة السويس الفرنسيين بقوله: حتى يَفهم الأجانب أننا نحترم ملكنا.

وحين تَبرعت شركة قناة السويس – وهي خاضعة للقوى الاستعمارية – لجماعة الإخوان بالإسماعيلية بمبلغ ٥٠٠ جنيه ، كانت تنظر إليها كجماعة دينية يُمكن أن تلعبَ دوراً في التهدئة والمحافظة على الاستقرار ، ومما يُرجح الاحتمال الثاني الواقع العملي الذي تَطورت إليه الجماعة ، واعتراف الكثيرين من قادة الإخوان ، بَل وتَبَاهِيهِم بِقدرة حسن البنا على إخفاء أهدافه ، وخداع كل القوى السياسية الأخرى من الانكليز والسراي والأحزاب .

ومهما كانت النوايا الحقيقية لحسن البنا حين أسس جماعته ، فإننا نرجح أن تطور الجماعة إلى العمل السياسي قد جاء تطوراً طبيعياً لاتساع نشاط الإخوان من جهة ، واحتكاكهم بالقوى السياسية المحلية والخارجية ، وتحقيقاً لطموحات قادتهم وخاصة طموحات حسن البنا الذي كان رغم تواضعه الظاهري يُؤمن بقدراته إيماناً لا حَد له ويثق بنفسه ويعتقد بكفاءته لقيادة الأمة ، وكان ذكاؤه وفصاحته وقدرته الخطابية على التأثير على الناس ، واستلاب أفئدتهم واستهواء نفوسهم ، كان لهذا كله الأثر الكبير في تزايد طموحه .

لقد أراد حسن البنا – بعد أن تعددت عليه التساؤلات حول الأهداف والغايات من الانضمام إلى الإخوان المسلمين ، هذه التساؤلات التي أخذت في بعض الأحيان التشكيك في غموض أهداف الإخوان – أن يُحدد طبيعة الإخوان ، ويعدد الدوافع المختلفة للانضمام لجماعة الإخوان

المسلمين ، يقول حسن البنا: "لا زال كثير من الناس ولا زال كثير من الإخوان الجدد يقفون في شيء من التردد والحيرة أمام أهداف الإخوان ، يَرانا بعض المتعبدين نصلي الصبح فنقرأ الأدعية المأثورة ، فيقول: هؤلاء قوم يتعبدون لله ، فلا بأس أن أكون معهم على طاعة الله ، فيتابعهم على أنهم أهل أوراد ومشايخ طرق ، وبهذا يقع على ضالته المنشودة . ثم يَراهم آخر بعد قليل يَقومون بألعاب رياضية فيقول: هَؤلاء قوم مُجاهدون يُرَبُّون في النشء مَعاني البطولة ، وينمون فيهم القوة الجسمانية وتقوية العضلات ، فينضم إليهم على هذا الاعتبار . ويجيء ثالث فيدخل دارهم ، فيجد على يمينه شركة المعاملات الإسلامية ، وما قامت به من مشروعات فيقول: هذا جميل ، إن الإخوان المسلمين لن يَتحرروا اجتماعياً إلا إذا تحرروا اقتصادياً ، فلا بُد أن نَملأ هذه الناحية الاقتصادية ، فأنا مَعهم على الاستقلال الاقتصادي . ثم يَجيء رَابع فَيجدهم يَتكلمون في الأهداف الوطنية ، فلسطين وسوريا ولبنان واندونيسيا وشمال إفريقيا ... ، يقولون: لا تَصلح أمة ما دامت يَدُ الغاصب تَستغل كل مشروع من مشروعات الحياة فيها ، وما داموا مُكبلين بالأغلال – أغلال العبودية والاستعمار – ، فيقول: هذا جميل ، جميل أنهم يَعملون للصالح العام ، فأنا معهم . وهكذا نَجدهم قد اختلفوا في أغراضهم . ثم يَأتي الأول فيقول: ما لنا والسودان واندونيسيا وما إليها ، لم نَنضم إلى الإخوان إلا على كلمة "لا إله إلا الله" والصلاة والصيام وما إليها ، فما لنا وهذا ؟ فَيدخل في نفسه شيء . ويجيء الآخر فيقول: إننا اجتمعنا على الإخوان للعمل على الأهداف الوطنية ، فما لنا والمأثورات والصلاة والصيام ؟ "دُوْلَ بِتُوع دين" ، مَا لي وهذا . ثم يَجيء الثالث ممن دخلوا على عمل الاستقلال الاقتصادي ، وقد رآهم اتجهوا إلى ناحية الخير ، فيقول: ما لي وهذا ، لقد عاونتهم على عمل الاستقلال الاقتصادي ، فمالي وهذا . وهكذا نجدهم اختلفت وجهاتهم وتغيرت أوضاعهم" .

ثم يقول: والواقع – أيها الإخوان – أن هذه الصورة تتراءى أمام الناس لأنها كلها عند الإخوان ، فالذي يَنظر إلى الإخوان من ناحية واحدة لا يَرى إلا ما وَقع عليه نظره ، أما مَن نَظر إليهم من جميع نَواحيهم ، فإنه يجدنا نعمل للإسلام ، ونستمد من الإسلام ، ولا نخرج عن الإسلام ،

فَهِمنا الإسلام على أنه نظام كامل يُريد أن يُنظم شؤون الحياة ، وأول شأن من شُؤونه إصلاح النفس وحسن الصلة بالله[1] .

وتتكرر الاتهامات الموجهة للإخوان بِغموض الأهداف ، ويتناول حسن البنا هذه الاتهامات ليرد عليها بما يَزيدها غُموضاً وإيهاماً ، ونعرض هنا أحد رُدود حسن لبنا في حَديثِ الثلاثاء عن هذا الاتهام ، حِين يتحدث أحد المترددين على دار الإخوان عن غموض فِكرتهم ، ويريد توضيحاً لها فيقول حسن البنا: "ثم يُذكرنا الأخ بناحية أخرى فيقول: رَغم تَرددي على دار الإخوان المسلمين لم أَستطع أن أَتَبين هذا تبيناً كاملاً واضحاً ، لأنكم تَخوضون في كثير من المعاني العلمية ، ولا نَسمع عن فِكر الإخوان شيئاً ، فنحن نُريد كلاماً يُوضح الغاية ويكشف عن الوسيلة ، لِنَسير معكم على وضوح ، وإني أشكر للأخ هذا التوجيه ثم أقول: إن فِكرة الإخوان وهدفهم يُمكن أن يُوضع في جملة واحدة ، "إننا نريد أن نُحقق رسالة الإسلام" لأن للإسلام رسالة هي أكمل وأوسع وأتم الرسالات الكبرى ، لم تَر الدنيا في تاريخ الرسالات أحسن ولا أتم بالخير والعدل والرحمة منها" .

ثم يقول: "إن فكرة الإخوان هي تَخليص الناس من الآراء الكثيرة التي فَرقت الكلمة وصرفت القلوب ، وتُرجعهم إلى المعين الأول ، وهو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ، ثُمَّ نُحاول أن نَجمع القلوب على رسالة الإسلام حتى يَهُزَّهَا الشوق ويُحييها الأمل"[2] .

وإذا كان هُناك من انتقد مِن داخل جماعة الإخوان المسلمين تَورطها في السياسة ، فَهُناك على الجانب الآخر مَن أسكرته نَشوةُ الانغماس في السياسة ، ورفعت حَرارته الثورية الخطبُ المثيرة والواعدة ، واللهجة الواثقة بالنفس وبالمستقبل ، التي كان يَسمعها من المرشد العام وقادة الجماعة ، فاندفع يَستعجل الثمرة وجني الحصاد ، ولكن البنا يُحاول أن يُمسك بالعنان حَتَّى لا تَفلُتَ مِنه السيطرة على حركة الجماعة ، فيتوجه إلى المتعجلين ببيان مراحل الدعوة ، من تعريف وتكوين وتنفيذ ، لأن الدعوة لا بد لها من دعائم تنهض عليها ، من وضوح الفكرة وتحديدها ، واستخلاص المؤمنين المخلصين لها ، وتكوينهم بحيث يَنهضون بعبء الدعوة ، ويؤمنون بها

(١) حسن البنا ، حديث الثلاثاء ص ٤٩١ – ٤٩٣ .

(٢) حسن البنا ، حديث الثلاثاء ص ٤٨٥-٤٨٦- ٤٨٩ .

ويغارون عليها ، ويكونون من الإيمان والارتباط والقوة بحيث لا يَنالون مِن قَريب ، ولا يَنصرفون عن دعوتهم إذا واجهتهم المصاعب والمشتقات التي لا بُدَّ مِنها في كل دعوة يُراد حَملُ الناس عليها" .

والبنا يُصارح المتعجلين بِأَنَّ المرحلة الثانية لَمَ تَكتمل ، "ولم تتكون بعدُ التَّكوين الذي يَسمح لنا بالتنفيذ العملي" ، وأنه مُصِرٌّ على الاستمرار في الطريق الذي رسمه ، وأن مَن عَصانِي وأبى إلا الفورة الوقتية والحماسة العاطفية والتهور الذي أعتقد أنه لا يُجدي ، فإن الله غفور رحيم ، ولينصرف عني إلى حيث يشاء ، ولكني لا أُريد أن أحمل تبعة طريق لا أثق بفائدتها .

مَن أراد أن يَتعجل فَمَيَادين التعجل أمامه فَسيحة ، فليعمل وليحمل تبعة عمله ، وأنا أعتقد أن البطولة الممتازة هِي جِهاد النفس في الصبر ، حتى يَحين الوقت المناسب لكل عمل ، ولن يطول الوقت الذي نُدعى فيه إلى كفاح جدي ، ولكننا لن نَتقدم بِغير إعداد مهما طال ، فاستعدوا ، وليكن أهم ما يَشغلكم حسن الاستعداد[1] .

وحول هذه المعاني صارح حسن البنا أتباعه – وبخاصة المتعجلون منهم – في خطابه في المؤتمر الخامس بأسلوب غاية في البلاغة والحصافة وبُعد النظر فقال: "إن طريقكم هذا مرسومة خطواته موضوعة حدوده ، ولست مخالفاً هذه الحدود التي اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول ، فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها أو يَقطف زهرة قبل أوانها فلست معه في ذلك بحال ، وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات ، ومَن صبر معي حتى تنمو البذرة وتنبت الشجرة وتصلح الثمرة ويَحين القطاف فأجره في على الله .

أيها الإخوان: ألجموا نزوات العواطف بنظرات العقول ، وأنيروا أشعة العقول بلهب العواطف ، وألزموا الخيال صدق الحقيقة والواقع ، واكتشفوا الحقائق في أضواء الخيال الزاهية البراقة ، ولا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ، ولا تصادموا نواميس الكون فإنها غَلابة ، ولكن غالبوها واستخدموا وحَوِّلوا تيارها واستعينوا ببعضها على بعض ، وترقبوا ساعة النصر وما هي منكم ببعيد[2] .

---

(٣) صحيفة "النذير" ، العدد ٣٤ ، السنة الأولى ، في ٣ ذي الحجة ١٣٥٧هـ ، من مقال بعنوان: "في صميم الدعوة" لحسن البنا ، ص ١١-١٢ .

(٤) حسن البنا ، رسالة المؤتمر الخامس من مجموعة رسائل الإمام الشهيد ، ص ١٦١ .

إن هذا التباين في المواقف مِن داخل جماعة الإخوان المسلمين كَان تعبيراً عن غموض الأهداف وتميُّعِهَا ، وهروبٌ من التحديد العملي لها .

قادة الإخوان يعترفون بغموض الأهداف

هذا عمر التلمساني – وهو المرشد العام الثالث – يذكر أن حسن البنا أخفى أهدافه وخدع الإنكليز والسراي ، حتى ثبت أقدام الدعوة ، فيقول: في الوقت الذي وضع حسن البنا أسس الجماعة ونظامها وتشكيلاتها ، وبدأ في الانضمام للجماعة العشرات بل الألوف ، فإن هذا الأمر لم يَلفت أنظار عناصر وقوى الضغط والنفوذ ، وأبرزها الإنكليز والسراي ، وهكذا نجحت الدعوة ، وهذا من توفيق الله وذكاء حسن البنا في تثبيت أقدامها وترسيخها ، ثم بَدأت رُدود الفعل التي تفاوتت بين الشدة والهدوء . ويقول عمر التلمساني: في بداية الأمر فإن الإنكليز والسراي لم يكونوا مُتنبهين لأداء حسن البنا ، وكانوا يَظنونه شيخاً من مشايخ الطرق الصوفية ، ولم يُقيموا له وزناً أو احتياطاً لما كان يَهدف هو إليه ، فظلت الدعوة تَنشر مطالبة بعودة المسلمين إلى تعاليم دينهم ، ولما تكشفت الحقائق وعلمت السراي والإنكليز أن الإخوان المسلمين يُريدون أن يَكون الحكم شورى بين المسلمين – كما ورد في القرآن الكريم – شعر الطرفان أن دعوة الإخوان كانت تهدف أصلاً إلى تحرير الأوطان الإسلامية من الاستعمار والأجانب ، فأدركوا قوة خطر الإخوان وأدركوا حقيقة أهداف الإخوان المسلمين[1] .

ويذكر عمر التلمساني أن أهداف الإخوان بدأت تتضح في أواخر الثلاثينات ، أي بعد أكثر من عشر سنوات على تأسيسها ، وبدأ الإخوان يَتبينون أهدافها ومراميها في هدوء ، وفي بُعد عن الشعارات والإعلانات[2] .

وفي هذا اعترافٌ بأن حسن البنا كان يَحتفظ لنفسه بكثير من أهداف الجماعة بعيداً عن أعضائها وقادتها ، وأنه وحده الذي كان له الحق في أن يَبوح ببعضها لمن يشاء وفي الوقت الذي يُريده .

ومحمود عبد الحليم – أحد قادة الإخوان والمؤرخ المعتمد لديهم – يَذكر أن المرشد أخفى أهدافه عن الحكومة ، وَمَوَّهَ على الإنكليز الذين فُوجئوا بخطورة الإخوان ، فالحكومة المصرية لم تَفهم –

---

(٥) عمر التلمساني ، شاهد على العصر ، إبراهيم قاعود ص ٣٨ .

(٦) عمر التلمساني ، شاهد على العصر ، إبراهيم قاعود ، ص ٣٩ .

في فترة الإخوان الأولى في الجامعة – فكرتهم ولا أهدافهم ، "ولكن الإنكليز تَنبهوا لخطورة هذه الدعوة ، حين رأوا فَجأةً استجابة لها في أواسط طلبة الجامعة ، وأقول فجأةً لأنهم لم يَكونوا يَعرفون عن دعوة الإخوان شيئاً قبل أن تصل الجامعة ، وتبين لي أن حسن البنا كان حَريصاً مِن أول يوم قام فيه بالدعوة على أن يُموه على الإنكليز ، ويتفادى أي إجراء يَستَلفِتُ نظرهم"[١] .

وكاتب آخر مِن كُتَّاب الإخوان يَعترف بأن حسن البنا لم يُفصح عن جميع أهداف دعوة الإخوان ووسائلها دفعة واحدة ، وأن هذا مِن دواعي التكتيك ، وأن حسن البنا كان قد حَدد مِن أول يوم للدعوة أُسسها العقائدية والحركية ، وأن مَراحلها قد حددها في نفسه ، ولكنه لم يُفصح عنها إلا لخاصته بين الفينة والأخرى ، وأما الآخرون فَلم يَعرفوا إلا الأهداف المرحلية الآتية التي كان يُعلنها للناس كافة[٢] .

وذكر أن الدعوة بقيت مجهولة للأعداء ولم تتضح أهدافها إلا في المؤتمر الخامس ، ويذكر أن هدفه من هذا الاخفاء هو عدم لفت أنظار "الأعداء المتربصين بها ، فَيضربوها قبل أن يَشتَدَّ عُودها ويكثر أتباعها" ... "والحقيقة أن هَذه الدعوة بَقيت مَجهولةً بالنسبة للأعداء ، إذ كانوا يعدونها من الحركات الصوفية ، أو جَمعية دِينية تقليدية مِن الجمعيات التي كانت مُنتشرة في مصر آنذاك ، ... ، ولم تبرز كقوة تُهدد أطماع المستعمرين وتعرقل مُخططاتهم إلا حِينما أَفصح البنا عَن أهداف هذه الدعوة في المؤتمر الخامس لقادة الإخوان الذي عُقد عام ١٩٣٨م"[٣] .

ومما يُؤكد غموض الأهداف المقالات والتصريحات المتعارضة لحسن البنا عن طبيعة الجماعة ، فهو يَتساءل: "هل نَحن طريقة صوفية ، جمعية خيرية ، مؤسسة اجتماعية ، حزب سياسي ؟" ثم يجيب: "نحن دعوة القرآن الحق الشاملة الجامعة ، ... ، نحن نجمع بين كل خير" .

---

(٧) كتاب "الإخوان المسلمون – أحداث صنعت التاريخ" ، محمود عبد الحليم ، ج ١ .

(٨) هذا الاعتراف يعني أن حسن البنا كان يتعامل مع الدعوة والجماعة وكأنها مُلكية خاصة به لا هيئة عامة .

(٩) كتاب "حسن البنا – مواقف في الدعوة والتربية" عباس السيسي ، ص ١٤٥– ١٤٧ .

وفي المؤتمر السادس للإخوان المنعقد في ١٠ يناير ١٩٤١ م ، يَأتي تعريف الإخوان بِأنهم دعوة سلفية .. طريقة صوفية .. هيئة سياسية .. جماعة رياضية .. رابطة علمية ثقافية .. شركة اقتصادية .. فكرة اجتماعية[١] .

ويُعلن حسن البنا في رسالته المسماة: "بين الأمس و اليوم" فيقول:

أيها الإخوان: أنتم لستم جمعية خيرية ، ولا حزباً سياسياً ، ولا هيئة موضعية الأغراض محدودة المقاصد ، ولكنكم روح جديد ، ونور جديد ، و صوت داو"[٢] .

فحسن البنا في هذا المؤتمر يُنكر على الإخوان أنهم سياسيون حزبيون ، وفي نفس الوقت يَعترف بأنهم سِياسيون يَعتقدون أن الحكومة – وهي القوة التنفيذية – جُزء من تعاليم الإسلام .

وفي العدد العاشر من مجلة النذير عام ١٩٣٨ م يَكتب حَسن البنا تحت عنوان "الإخوان بين الدين والسياسة" ، أهو تَدخل حزبي أم قيام بواجب إسلامي ؟ فقال: "ليس هناك شيء اسمه دين وشيء اسمه سياسة ، وهي بدعة أوربية"[٣] .

وفي رسالته إلى الشباب يُذكر أن التفريق بين الدين والسياسة ليس من تعاليم الإسلام ، "فليهجرنا مَن يُريد تحويلنا عن هذا المنهاج ، فإنه خصم للإسلام أو جاهل به" . ثم يقول: "يُخطئ من يَظن أن جماعة الإخوان المسلمين جماعة دراويش ، قد حصروا أنفسهم في دائرة ضيقة من العبادات الإسلامية ، كل همهم صلاة وصوم وذكر وتسبيح ، فالمسلمون الأولون لم يَعرفوا الإسلام بهذه الصورة ، ولم يُؤمنوا به على هذا النحو ، ولكنهم آمنوا به عقيدة وعبادة ، ووطناً وجنسية ، وخلقاً ومادة ، وثقافة وقانوناً ، وسماحة وقوة ، واعتقدوه نظاماً كاملاً يفرض نفسه على كل مظاهر الحياة ، وينظم أمر الدنيا كما ينظم الآخرة ، اعتقدوه نظاماً عملياً وروحياً معاً ، فهو عندهم دين ودولة ومصحف وسيف"[٤] .

---

(١٠) كتاب "الحركة السياسية في مصر" ، طارق البشري ، ١٩٤٥- ١٩٥٢ ، ص ٥٣ .

(١١) كتاب "حسن البنا – بين الأمس واليوم" ، من مجموعة رسائل حسن البنا – ص ١٤٤.

(١٢) كتاب "الحركة السياسية في مصر" طارق البشري ، ١٩٤٥-١٩٥٢ م ، ص ٥٤ .

(١٣) مجموعة رسائل حسن البنا ، ص ٨٧ .

وحول فكرة شمول الإسلام للدين والدولة يَذكر الدكتور إسحاق موسى الحسيني أن تَفكير الإخوان لم يَكن واحداً في كل الأوقات بالنسبة للإسلام كدين ودولة ، وهذه المراوحة بين وجهي الدعوة السياسية والدينية كانت تَخدم الجماعة وتساعدها في فترة توسعها الأولى على النمو ، فقد استطاع تحت سِتار الدعوة الدينية أن يَجذب كثيراً من العناصر ذات الاهتمامات الفطرية الدينية ، بعيداً عن الصراعات السياسية ، وتحت ستار الدعوة السياسية شَدَّ المتطلعين إلى العمل السياسي خارَج نِطاق الأحزاب القائمة ، وهذا يُوحي بأن الغموض كان مفيداً ومُتعمداً يَخدم أهداف الجماعة[١] .

وللغموض في الأهداف حِكاية ...

لقد ساعد هذا الغموض الجماعة في الهرب من تحديد البرامج السياسية الواضحة ، سواء بالنسبة للقضية الوطنية أو القضايا الداخلية التي تَمس مَصالح الجماهير العَريضة من الشعب .

ويُؤكد طارق البشري هذه الحقيقة فيقول: "كان هذا الغموض أيضاً يُعفي الجماعة من تحديد الأهداف الواضحة فيما يَتعلق بالقضايا السياسية الجوهرية التي تُواجه الأمة ، كالمسألة الوطنية ومشاكل نظام الحكم الداخلي ، ويُعفيها من تفسير الموقف العملي الذي تتخذه في كل مناسبة ، ويمنحها القدرة على أن تَطرح للناس موضوعاً أو مشكلة مُغايرة تماماً لما يَشغل الجميع من مشاكل سياسية حالة في أي لحظة ، والحقيقة أن الجماعة بِرَغم ما كان يَصدر عن قادتها من تعريض بالاستعمار أحياناً أو هَجوماً عليه ، كانت أَقل التنظيمات السياسية المصرية تعرضاً للمسألة الوطنية وتحديداً للموقف إزاءها ، وكان هذا مُثيراً للشكوك وملقياً فيضاً من الغموض عليها في أوقات كانت المسألة الوطنية خِلالها هِي بُؤرة الاهتمام العام ، وقد تَضمنت رسالة "نحو النور" مَا سُمي بالموبقات العشر ، ورَدُّ الاستعمار على رأسها ، ثم تَضمنت خمسين مَطلباً مِن المطالب العملية للدعوة تحت عنوان "بعض خطوات الإصلاح العملي" لم يَرد بها مطلب واحد يتعلق بالجلاء أو الاستقلال ، إنما اكتفت بعبارة: "تقوية الروابط بين الأقطار الإسلامية جميعاً وبخاصة العربية ، تمهيداً للتفكير الجدي والعملي في شأن الخلافة الضائعة"[٢] .

---

(١٤) كتاب "الإخوان في دائرة النقد" إسحاق موسى الحسيني ، ص٨٣ ، دار البروق ، القاهرة ، ط ٣ .

(١٥) كتاب "الحركة السياسية في مصر" ، طارق البشري ، ١٩٤٥-١٩٥٢ ، ص ٥٤-٥٥ .

تغطية الغموض بشعارات مثالية

خلاصة القول أن الأثر الإيجابي للجماعة في أحداث المرحلة لم يَكن يتناسب مع حجمها الكبير ، وكما ذكر طارق البشري بأن الغموض يَمنح الجماعة القُدرة على أن تَطرح للناس مَوضوعاً مُغايراً لما يَشغلهم ، فقد حاول حسن البنا تغطية هذا الغموض بإثارة الشباب وإلهاب حماسهم بشعارات مثالية طوباوية ، وإغراقهم في مثل هذه المتاهات ، وإثارة روح الاستعلاء والعنصرية عن طريق استثارة عبق الماضي وأمجاده وما يستنفره من خيلاء .

ففي رسالته بعنوان "إلى الشباب" يُذكر أن الله كتب لهم "منزلة الزعامة بين العالمين ، وكرامة الأستاذ بين تلامذته" ... "إنكم سادة الدنيا ، وأساتذة العالمين" ، وهي شعارات حماسية ومبالغات لاستنهاض الهمم ، ولا بَأس من ذلك . "إن العالم كله حائر يَضطرب ، وكل مَا فيه من النُّظُم قد عجز عن علاجه" ... "فتقدموا باسم الله لإنقاذه ، فالجميع في انتظار المنقذ" .

الغموض في التفاصيل

وليس معنى غموض أهداف الإخوان المسلمين أن أدبياتهم قد خلت من الحديث عن هذه الأهداف ، بل مَعناه أن أهدافهم السياسية الخاصة بالقضايا التفصيلية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لم تَكن بالتحديد الكافي لهيئة تتصدى للعمل السياسي ، هذا عَلاوة على إنكارها أحياناً أنها تَعمل بالسياسة أو أنها حزب ، بينما تُمارس نشاطاً سياسياً وحزبياً ، وتُطالب بإلغاء الأحزاب . أما عن المناهج العامة والخطوط الرئيسة فإننا نَجد الكثير من التصريحات والمقالات النافذة خاصة عند تشخيص الداء ، ففي ١٩٣٤م ، كتب حسن البنا بمجلة "الإخوان المسلمون" تحت عنوان "ناحية واحدة لا تكفي" ، دَاعياً إلى تعدد نواحي الإصلاح ، بل لا بد لها من أن تَتناول كل النواحي بِالتقويم والتجديد ، سواء في ذلك النواحي الاجتماعية أو الاقتصادية أو الخلقية أو الأدبية الفنية أو الفكرية العلمية أو السياسية أو القانونية ، وذلك حتى يُقوي بعضها بعضاً .

وقد اشتملت أهداف الإخوان – بجانب إعادة الخلافة والوحدة العربية الإسلامية ، وإدماج الأحزاب في هيئة واحدة ، وتطبيق نظرية الإسلام الاقتصادية – على إعادة النظر في نظام الملكيات في مصر ، وذلك بتحديد أو اختصار الملكيات الكبيرة ، وتعويض أصحابها ، وتشجيع

الملكيات الصغيرة ، ولكنها لم تَضع حداً أعلى للملكية ، وانتزاع المرافق العامة من الشركات الأجنبية ، وتوزيع أملاك الحكومة على صغار الزراع ، وفرض ضريبة الزكاة على رأس المال والربح ، وإقرار الضرائب التصاعدية وإعفاء الفقراء منها ، وتحريم الربا ، والعودة إلى القرآن والسنة كمصدرين للتشريع[١] .

أسباب غموض المناهج

ونستطيع بعد هذا السرد أن نُجمل الأسباب الكامنة وراء غُموض البرامج عند الإخوان المسلمين فيما يلي:

١- يجذب الغموض إلى الجماعة كثيراً من الجماهير ومن القوى السياسية المتباينة في المواقف السياسية والأهداف العملية ، وقد تَمكنت الجماعة من النمو تَحت شعار الدعوة الدينية البحتة في فترتها الأولى .

٢- يُعطى للمرشد الفاعلية في مُراوغة الحكومات والأحزاب والرأي العام بوجهي الدعوة ، فيؤكد على الطابع الديني إذا وجد في الحكومة رئيساً قوياً ، وينغمس في الصراعات السياسية إذا وَجد رئيساً ضعيفاً .

٣- يُفيد الغموض في الحركة الطليقة التي لا تَتقيد بِأهداف محددة ولا مناهج مُسبقة ، فيعفي الجماعة من تَحديد الأهداف الوطنية وتحديد الموقف مِنَ المشاكل الداخلية وتفسير مواقفها العملية في كل مناسبة ، ويُعطيها القدرة على طرح موضوعات مُغايرة لما يَشغل الناس .

٤- يَحل الغموض مُشكلة تَرتبت على مُطالبتها بإلغاء الأحزاب رغم أنها حِزب سِياسي يَسعى للسلطة ، وهي في هذا تَتستر وراء اللافتة الدينية .

٥- يُفيد الغُموض في انطلاق السلطة الشخصية التي تعتمد على حرية العمل والتصرف ، وانتقاء المحاسبة من قبل الآخرين ، والغموض "يُحيل صاحب الدعوة من عامل مُلتزم بتحقيق فكرة ما إلى صاحبٍ لهذه الفكرة يدور بها حيث شاء ، ويَستر في خَفائها حَركته وبواعثها ، ولا يَكون للآخرين إزاءه إلا الطاعة أو الخروج عليه ، وكذلك بالنسبة لما يَلقى

---

(١٦) كتاب "من قتل حسن البنا ؟" ، محسن مُحَمَّد ، ص ٣٦٣ .

مِن آراء ومَبادئ مُتعارضة تُشيع اللبس ، ويَجري الاختيار مِنها حَسب المشيئة بِغَير التزام"[١] .

ولا يستطيع غيره في أي مَوقف أن يُوضح ما غَمض وانبهم مِن تصرفات الجماعة ، فكان الغموض مُصادرة للمعرفة لحساب المرشد فقط ، وكان غموضاً واعياً ومقصوداً ، وقبلت الجماعة هذا الوضع مما تَرتب عليه نَوع من التقديس للفرد ، أو كما قال "هيوارث دان": إن هناك نوعاً من المهدية في حركة الجماعة ، وإن المرشد العام هو المهدي[٢] .

وقد نتج عن هذا التقديس أن استشعرت الجماعة – بعد اغتيال مرشدها العام – اليتم ، وفقدت الرشد ، واتسم نموها الكبير بطابع الشيخوخة السريعة ، فظهرت الخلافات السياسية بين أعضائها وقادتها ممتزجة بالأطماع الشخصية ، وباختفاء حسن البنا فقد الغموض القوة المتحكمة فيه ، والمسيطرة على الجماعة من خلاله ، وأصبح هذا الغموض هو القوة غير الواعية المتحكمة في الجماعة[٣] .

التربية الإخوانية للأعضاء

أولاً: المخادعة:

من أبرز مناهج الإخوان التربوية الاهتمام بالعضو اهتماماً مُبالغاً فيه لدرجة السيطرة على عقله وفكره وحتى جسده ، وصولاً لمرحلة مُتقدمة من التأثير في تصرفاته السلوكية وحتى النفسية ، فمن الأمور الملفتة للنظر – والتي أثارت نقداً موجهاً لحسن البنا ولجماعته فيما يتعلق بأسلوبه في مواجهة النقد الموجه إليه أو إلى الجماعة – أنه عمل على المراوغة وعدم المجابهة ، وإشاعة جَوٍّ مِن التعتيم التام على الآراء المعارضة ، والقدرة على الهروب من تحديد المواقف الواجبة ، وإبدالها بقضايا جانبية تَستقطب الاهتمام وتمتص الطاقة بعيداً عن المشكلات الرئيسة ، مُستثمراً في ذلك قُدراته الأسطورية في الحديث والخطابة ، وما يَتمتع به من إجلال ومَهابة في قلوب أتباعه ، ويُعَبِّرُ طارق البشري عَن هذه المجابهة والمخادعة فيقول: "اشغلوا الناس عن الفكرة الباطلة بالفكرة

---

(١٧) كتاب "الحركة السياسية في مصر" ، طارق البشري ، ١٩٤٥-١٩٥٢م ، ص ٤٥/ ١٩٥٢م ، ص ٥٤-٦١-٦٢

(١٨) كتاب "من قتل حسن البنا ؟" ، محسن مُحَمَّد ، ص ٣٦٤ .

(١٩) كتاب "الحركة السياسية في مصر" ، طارق البشري ، ١٩٤٥-١٩٥٢ م ، ص ٤٥ / ١٩٥٢م ، ص ٣٦٨ .

الصحيحة" أي صَرف انتباه الناس عما يَنشغلون به إلى مَا يَرى شُغلهم فيه بغير مجابهة ولا نقاش ، وكان يقول: "إن الإشاعة يُقضى عليها بعمل إيجابي نافع يَمتلك الأنظار ويستنطق الألسنة بالقول ، فتحل الإشاعة الجديدة وهي حَق ، مكان الإشاعة القديمة وهي باطل" .

وكان يستثير العواطف لا بموقف حَازم مِن الاستعمار يُجابه به مَا يَشغل الناس فعلاً ، ولكن بإثارة فِكرة جَديدة يُريد شُغلهم بها ، فيقول: "إن الدور عليكم في قيادة وسيادة الشعوب ، وتلك الأيام نداولها بين الناس" ، ثم يتكلم عن أن الدين يُوجه المسلمين إلى أَفضل استعمار وأبرك فَتح ، ... ، وَيُقيم الْمُسلمين أَوصياء على البشرية القاصرة ، ويُعطيهم حَقَّ الهيمنة والسيادة على الدنيا[1] .

هذا في الوقت الذي نَشكو نحن ، ونُجاهد ضد التسلط الاستعماري الانكليزي على أرضنا وشعبنا ، وكأنه – بهذه الروح الاستعلائية الفارغة والنظرة المتعصبة – يُقدم المبرر للسيطرة الاستعمارية الممقوتة في عصر تناضل فيه الشعوب ضد نزعات التسلط والنهب والاستعلاء ، ولا شك كان أسلوب المراوغة والمخادعة والبعد عن القضايا المركزية إلى القضايا السطحية هو منهج اتبعه جميع الخلفاء الذين تعاقبوا على رئاسة الإخوان .

ثانياً: السيطرة على العضو جسدياً وفكرياً:

لقد كَوَّنَ حسن البنا كتائب أنصار الله في خريف عام ١٩٣٧م ، بهدف استيعاب نشاطات العضو البدنية والعقلية والروحية ، وضمان ولائه للجماعة وأفكارها وأعضائها ، وإن كل كتيبة تلتقي على حِدة في ليلة من الأسبوع لِتمارس تَدريباتها في تلك الليلة ، وكانت هذه التدريبات تتضمن السهر ليلاً وأداء أكبر قَدرٍ مُمكن مِن صَلوات الفرد والجماعة والتسبيح ، وأقل قَدر مُمكن من النوم ، وكانت هذه الجلسات يَتخللها تَوجيهاتٌ رُوحية في أَيِّ مَوضوعٍ بَدءاً مِن الصُّوفية وانتهاءً بِالجنس ، يُلقيها حسن البنا في أي وقت من الجلسة ، وكان الالتزام المطلوب مِن عُضو

---

(٢٠) كتاب "الحركة السياسية في مصر" ، طارق البشري ، ١٩٤٥-١٩٥٢م ، ص ٧٢ . وانظر "حسن البنا – مذكرات الدعوة والداعية" ، ص ١١٥. وانظر "الإخوان المسلمون في ميزان الحق" ، أنور السبكي ، ص ٢٨. وانظر "الإخوان المسلمون في ميزان الشعوب" .

الكتائب يَتلخص في ثلاث كلمات: العمل والطاعة والصمت[1] ، وبهذا الالتزام يُصبح العضو مُهيأً للانضمام إلى التنظيم السري .

وحين فَشل نظام الكتائب في إنجاز البرامج والمراحل المعد لها ، وانتقلت الوظيفة التي كانت مَرجوة منه ، وهِي التلقين العقائدي التربوي ، وضمان وَلاء العضو للجماعة ، انتقلت إلى نظام الأسر الذي أُنشئ في أيلول ١٩٤٣م ، هذا علاوةً على مُشاركة فِرَقِ الجوالة في النهوض بَعده بالوظيفة منذ نَشأتها ، فعضو الأسرة يَخضع للتزامات شخصية واجتماعية ومالية تَنعكس على سلوكياته الدينية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، بِهَدف تكوين الشخصية الإسلامية مع التركيز على التنشئة الأخلاقية والاجتماعية للعضو . فالعضو مِن الناحية الشخصية مُلتزم بأداء فَرائض الدِّين وتجنب الكبائر وإثبات الولاء الدائم للتنظيم ومبادئه وقادته وهداية منزله ، ومن الناحية الاجتماعية يُقوي عَلاقاته بالأسرة فَيحضرُ اجتماعاتها ويَقضي مَعها ليلة شهرياً في الهواء الطلق يَتناول معهم وجباتهم جماعةً وينامون معاً ، ويُؤدون صلاة الجماعة الفجر والعشاء معاً وجماعة . ومن الناحية المادية فكل عُضو مسؤول عن بقية الأعضاء يتحملون معاً الأعباء ويقتسمون المكاسب ، والعلاقة بين أفراد الأسرة تُبنى على دَعامات التعارف والتفاهم والتكافل .

وكان مكتب الإرشاد العام في توجيهاته حريصاً على ربط الأعضاء بالجماعة وامتصاص كل وقتهم لحساب برنامج الجماعة ، ففي المنشور الدوري الأول لسنة ١٣٥٨هـ الصادر عن هذا المكتب ، يُعدد مظاهر النشاط الشهري للإخوان ، فَنَجد فيه "يوم النصيحة .. يوم الآخر .. يوم العبادة .. يوم التعارف" كما يُعدد مَظاهر النشاط الأسبوعي ، فَنجد فيه أيضاً: ليلة الدرس الذي يُلقيه المرشد في القاهرة . ويُلخص في "النذير" ليلة الكتيبة – يوم المعسكر[2] .

لقد كانت الجماعة حريصة على أن يعيش العضو كل لحظة من حياته في إطار قيم ومبادئ وسلوكيات وتوجيهات الجماعة ، فلا يَتنفس إلا مِن خلال أوامرها ونواهيها ، فهي لا تَعتمد في ربط العضو بها على الإثارة وحدها ، ولا تَكتفي بعمل العضو بها على الإثارة وحدها ، ولا تكتفي بعمل بين صفوفها في اللجان المختلفة ، ولكنها بعبارة طارق البشري: تضعه كفرد بين

---

(٢١) كتاب "الإخوان المسلمون" ، د . ميتشل ، ج ٢ ، صـ ٧٦-٧٧ .

(٢٢) صحيفة "النذير" ، العدد الثاني ، في ٨ محرم ١٣٥٨ هـ ، السنة الثانية ، ص ٢٣-٢٤ .

عدد ضخم من الواجبات تحيط بحياته كلها ، وترسم له أعماله وسلوكه اليومي وعلاقاته الشخصية ، وتنصحه حتى بالتزام طريقة معينة في التحدث والضحك ، وثمة واجبات لبدنه .. وواجبات لخلقه .. وواجبات لجيبه .. وواجبات لغيره .. وواجبات للدعوة .. وواجبات لربه .. وواجبات قبل النوم .. وثَمَّة تَعليمات عن زيارة الآخرين والتجمل في الحديث . وإن اتباع كل هذه التعليمات والنصائح التنظيمية يجعل عضو الجماعة عضواً بها في كل لحظة من لحظات عيشه ، فَلا تَشمل مَهامه التنظيمية جانباً واحداً مِن جَوانب حياته ، بَل تُحيط بِجوانبه كلها ، فَيُمارس نشاطَهُ اليومي لا باعتباره فرداً عادياً ، ولكن بِاعتباره عضواً وأخاً مُسلماً ، وذلك يعني أن تمتص الدعوة والجماعة كل نشاطه الحيوي ، ويرتبط بها لا فهماً وإيماناً فحسب ، وليس في نشاطه العَام فقط ، ولكن في جميع نَثريات الحياة ، بحيث يُصبح كما لو كان يَستمد وجوده المادي منها ، ويَخلق فيه ذلك الطواعية والسلاسة لجماعته ، ويُصبح هو والآخرون مِن إخوانه مجتمعاً مُنغلقاً يَحيا أفراده حياتهم اليومية وِفق تعليمات وضعتها قيادتهم لا يُشاركهم في الالتزام بها أحد من خارجهم ، وبهذا يَذوب الأفراد في الجماعة وفي زعيمها المعد لها المبايَع على السمع والطاعة ، بواسطة أمور لا تتعلق بهدف سياسي مُعين ، ولا بمنطق عَقلي واضح ، ولا بنشاط عام مُحدد ، ولكن يَذوبون بالانسياق من الداخل ، ويتم البناء النفسي للفرد مع إشاعة عَبق سَلفي يُحيط بالجماعة ومنشآتها وأفرادها .

ثالثاً: امتصاص طاقات الأعضاء بعيداً عن القضايا الرئيسة:

كان طبيعياً بسبب الهيمنة الفردية والأسلوب غير الديمقراطي في التنظيم ، ونوع التربية السياسية التي ربى حسن البنا الجماعة عليها ، أن تتجه طاقات الأعضاء بَعيداً عن القضايا الرئيسة الوطنية والاجتماعية ، وأن تبدو جماعة الإخوان كالتيار الشارد مُنفصلاً ومتعارضاً مع القوى الوطنية والديمقراطية والتقدمية ، ومُقترباً بدرجات مُتفاوتة مع السراي وأحزاب الأقلية ، وبذلك استطاعت قيادة الإخوان المسلمين استلاب طاقات جماهير أعضائها – وهي طاقات كبيرة – عن المشاركة الإيجابية في قضايا الأمة والمجتمع وامتصت ثَوريتها ، ويُعبر طارق البشري عن هَذه الحقيقة حين يقول: "كانت الجماعة تَضم قسماً من الجماهير ، والشباب كان له ثقله السياسي الكبير لو وجه إلى الطريق الصحيح للثورة وأسهم في حل المشاكل السياسية والاجتماعية التي كانت تواجه

الشعب وقتها ، ولكن الجماعة اختزنت ثورية الآلاف من هؤلاء وامتصت طاقاتهم ووجهتهم إلى غير متوجه ، وكأن تنظيم الجماعة بأسلوبه غير الديمقراطي مِن العوامل التي أدت إلى تحكم القيادة في هذه الجماهير ، كما كان لِنوع التربية السياسية التي درب المرشد السابق المحيطين به عليها ، كان لذلك كله أثره في نجاح قيادة الجماعة في عَزل الكتلة الشعبية العريضة المختزنة داخل الجماعة عن المشاركة في قضايا الشعب وقضاياه"[١] .

البنَّا يُضفي عَبقاً سلفياً على دعوته

لكي يُعَمِّق حسن البنا إحساس الأعضاء بدعوته ويُغريهم على الإقبال عليها والتشبث بها ولاستماتته في الدفاع عنها ، أضفى عبقاً سلفياً على الدعوة بمقارنتها بالدعوة في عهد الرسول ﷺ وتشبيهها بها ، فهو يَقف بين أتباعه يُحدثهم حديث الثلاثاء ويقول لهم: كل ما وجدت مع الإخوان في حَفل شَعرت بخاطر ، هذا الخاطر هو المقارنة بين عهدين لدعوتنا: عهدها الأول: حين قام الرسول ﷺ وحده يُجاهد مُنفرداً ، وعهدها الثاني: عهد انبعاثها على أيديكم أنتم أيها الإخوان ، فَقُمتم تُجددون العهد وتحشدون القوى وتبذلون الجهود ، حتى يَرجع للدعوة شبابها وتكتمل قوتها[٢] .

ويُؤكد هذا المعنى في مَوقف آخر حين يُشَبِّه وقفته بين أتباعه بوقفة النبي ﷺ واجتماعه بأصحابه الأول في بطن الصفا ، ويفيض عليهم من رُوحه الكريم ومن آيات الوحي الإلهي ، ويُحاول حَسن البنا بذلك أن يَبعث في أتباعه رُوح الأمل في النصر ، وأن يَستثير فيهم روحاً مِن التعالي والقداسة ، مُستنفراً وُجدانهم الديني فيقول: "أيها الإخوان الفضلاء: إن ما تُثيره في نفسي الليلة ، عاطفة الثلاثاء شعور من نوع جديد ، فهو رجوع بالذهن والفكر والقلب معاً إلى بطن الصفا ، بَدأت نفسي تُحس هذا الشعور لأول ما وقفت في صلاة المغرب الليلة ، وقفت ونظرت إلى الإخوان ، وكانت هذه النظرة هي التي ذَهبت بِفكري وقلبي إلى بطن الصفا ، حيث كان يجتمع رسول الله ﷺ لأول دعوته مع نخبة من مختلف الأعمار والمنازل ، فمنهم الصبي ، ومنهم الكهل ، ومنهم

---

(٢٣) كتاب "الحركة السياسية في مصر" ، طارق البشري ، ١٩٤٥-١٩٥٢م ، ص ٣٧٣ .

(٢٤) مجلة الإخوان المسلمون الأسبوعية ، العدد ١٠٢ ، السنة الرابعة ، في ١٦ جمادى الثاني ١٣٦٥ هـ / ١٨ مايو ١٩٤٦ م ، ص ١٦-١٧ .

الشاب ، ومنهم الغني ، ومنهم الفقير ، ومنهم الظاهر ، ومنهم المغمور ، ومنهم اللقن المثقف ، ومنهم الأمي العامي ، ومنهم العبد ، ومنهم الحر ، وهم جميعاً في عَدَدِ الأصابع لا يَزيدون عن الآحاد ولا يَصلون المائة ، ويجتمع ﷺ مع هذه النخبة في بطن الصفا ، ويفيض عليها من روحه الكريم ، ويُلقنها من كتاب الله العظيم ، ويُملي عليها من آيات الوحي الإلهي ، ويكون منها الأمة الجديدة بالدعوة الجديدة للعالم الجديد .

والله يا إخوان: كنت أَنسى التكبير في الصلاة لأني كُنت أغلب في تصور هذا الموقف ، فَطَويت النفس على ما في النفس ، وانتهزتُ فُرصة هَذه الوَقفة بَينكم لِأُنَفِّسَ عَن نفسي بَعض ما في نفسي ، لم لا يكون من هذا الانعقاد – الصفا – ومن هذه الفئة الجديدة التي يُبني عليها العالم الجديد ؟ وطالعت في أشخاصكم وفي صدوركم هذه النخبة الكريمة بين يدي رسول الله ﷺ" .

ويُذكرهم بأن هذه النخبة التي اجتمعت برجل – النبي ﷺ – ليس بأعظمهم جاهاً ولا بأعزهم عدداً ولا بأقواهم عُدة ، ولكنه رجل منهم ، ثم يَتساءل فيم كان هؤلاء يَحلمون وفيم كانوا يُفكرون حِين اجتمعوا في خِفية وفي مناجاة سرية ؟ ويجيب: إنهم يُريدون أن يَضعوا في رؤوس الناس عقلاً جديداً وأن يُقيموا على ظهر الأرض دُنيا جديدة ، وأن يُرَمِّمُوا مِن هياكل البشرية بناء جديداً .

وأشار إلى أن هذه المجموعة العَزلاء القليلة استطاعت أن تُقيم نظاماً جديداً وإنسانية جديدة ، وأن تَجمع قلوب العباد على رب العباد حِين قامت دعوتها على الإيمان الكامل والحب والتضحية ، وخَتم كلمته بأن هذه الأسس لو قامت في أنفسنا كما قامت في أنفسهم لَسلكت بنا من مسالك العزة والنصر ما سلكت بهم[1] . وهو في مكان آخر حين يتحدث عن ذكريات الهجرة وعن نشوة اللقاء بالإخوان ، يتمنى أن يَخرج مِن أتباعه "جيش الخلاص والإنقاذ" ، مثل أهل مكة والمدنية ، تجمعهم عاطفة الإيمان الجبارة ، وتجمعهم فكرة واحدة تجعلهم صفاً واحداً . فكم مِنَّا يَستطيع يا أخي أن يَكون هَواه تبعاً لما جاءت به الدعوة ؟.

فمتى تَصل فِكرتنا – أيها الإخوان – إلى درجة أن تَكون هي المهيمنة الأولى على كل أعمالنا ؟ فما وافقها قَضيناه وما خالفها خالفناه ، ولو أن الفكرة سَيطرت على مجموعة مثل مجموعتنا هذه

---

(٢٥) حديث الثلاثاء ، حسن البنا ، ص ٩٦-٩٨ .

إلى هَذا الحد لأحدثت في العالم حدثاً ، هذَا شأن بعيد كاف لالتفاف القلوب حولكم وحدبهم عليكم[١] .

وحين يُضفي حَسن البنا على دعوته عبقاً سلفياً وروحاً قُدسية يَلتمس لنفسه السبب في أن نَجاح الأعمال وانتصارها لا يَتوقف في رَأيه على كَثرة العدد ، وإنما يَتوقف على القوى الروحية ، فهي القوى الكبرى والوسيلة المجدية ، ولها فِعل السحر وتأثير الكهرباء ، فإن الإيمان بالفكرة والالتفاف حولها هو كل شيء[٢] .

ولقد كانت الإثارة العاطفية بالعبق السلفي مِنَ الوسائل التي تَبعث الحَمِيَّة في نفوس الأعضاء ، وكانت مِنَ العوامل التي جَدبت انتباه الأعداد الكبيرة التي تَبنَّت فِكر الجماعة في الأربعينات في حياة حسن البنا ، ولذلك حِينَما تَغيرت أساليب التَّلقين العَقائدي في عَهد المرشد الجديد "حسن الهضيبي" فَشلت الجماعة في جَذب انتباه هَذه الأعداد الكبيرة ، فَلقد ابتعد المرشد الجديد عن التوجه العاطفي إلى الجماهير على غرار ما كان يَحدث في فترة حسن البنا ، وكان الهضيبي يَكره استعراضات القوة ، ويَنتقد كُلَّ مُستلزمات الاجتماعات الجماهيرية ، بَدءاً من الأحاديث النارية إلى إلقاء الشعارات وتأجج المشاعر والتظاهر ، وكان "الهُضَيبي" يَعترض على ترديد الشعار التقليدي "الله أكبر ولله الحمد ... الخ " أثناء الاجتماعات العامة ، وكان هذا جزءاً مِن سياسته في مكافحة الشعارات ومبالغات الماضي ، وكان اعتراضه على الشعارات الصوتية بمثابة إطفاء لجذوة حماس العضو[٣] .

ولقد اتبع حسن البنا في تربيته للأعضاء منهجاً مُتدرجاً يَأخذ بالعضو مَرحلة بعد الأخرى حتى يصل به إلى مَرتبة المجاهد ، فَقد قَسَّمَ الأعضاءَ إلى ثلاثِ مَراحل:

---

(٢٦) حديث الثلاثاء ، حسن البنا ، ص ٢٣٦ .

(٢٧) مجلة الإخوان المسلمون الأسبوعية ، العدد ١٥٦ ، السنة الخامسة ، ٢٥ رجب ١٣٦٦ هـ / ١٤ يونيو ١٩٤٧ م ، حديث الثلاثاء ، "نظرات في كتاب الله" لحسن البنا ، ص ١٢ .

(٢٨) كتاب "الإخوان المسلمون" ، د . ميتشل ، ج ٢ ، ص ٧٠-٧٢ .

المرحلة الأولى التمهيدية: وقد وَضع لها منهجاً مُيسراً يَتلاءم مع العضو المبتدئ ، فعلى هذا العضو أن يُلِمَّ بِالمبادئ الأساسية للإسلام ، وعلى المنهج في هذه المرحلة أن يَغرس العقيدة الصحيحة في القلوب ، مع قِراءة القران الكريم وتعليم التجويد ... الخ .

المرحلة الثانية التكوينية: ومنهجها يُوضِّحُ أركان الإيمان فهماً والتزاماً ، ويُفسر القرآن ، ويَشرح الحديث ، ويُعمق العقيدة ، ويَضع خطة للتربية الروحية والخلفية ، والدراسة العلمية والثقافية ، ... الخ .

المرحلة الثالثة: وفيها يُلزَمُ الأخ بدراسات خاصة ، كالفقه وأصوله ، والسنة ومكانها في التشريع ، وتاريخ الإسلام والحركات المعاصرة ، وما يُدبره أعداء الإسلام ، كما يُلزَمُ الأخ بقيام الليل وتلاوة القران وتدبر معانيه ، مع إعداد النفس وتهيئيها للبذل والتضحية ، والقيام بالواجب نحو أمته وأوطانه[١] .

وقد اتبع حسن البنا – بجانب الدراسات النظرية للأعضاء – نماذج من التربية بالقدرة ، فكان يَلتقي بتلاميذه من الشباب في رحلات تَستمر يوماً أو بَعض يوم خارج المدينة ، أو في لقاءات داخلها يَنتقل بهم في مجالات مُختلفة ، من صلاة إلى تلاوة ، إلى إطعام مُشترك ، إلى تدريبات رياضية ، إلى جلسات روحية ، إلى تدريب على الخطابة ، وكان بِذلك يَربط بين النظرية والتطبيق العملي ، فكان يُصلي بهم صلاة طويلة مُطمئنة يَقرأ فيها من طِوَالِ المفصل من آيات القران الكريم ، وكان يُقَدِّم تَلاميذه تباعاً للإمامة لِيُدَرِّبَهُم عليها ، ويزرع فيهم الثقة بأنفسهم ، ويَضطرهم مِن بُعدٍ للحفظ والتجويد ، وأثناء تناولهم لطعامهم المشترك يَذكُرُ لَهم بَعض الأحاديث التي تتعلق بآداب الطعام والشراب ، وحِين يَقودُهُم إلى تدريبات رِياضية يُذَكِّرُهُم خِلالها بآداب الرَّميِ وَالسِّبَاق والجهاد ... ، ويَدعوهم لقيام الليل للعبادة فرادى وجماعات ، ويَضرب المثل بنفسه فيكون أسبقهم ، ويَجلس بَينهم جَلسات روحية للذكر والتلاوة ، ولا مانع مِن سرد القصص والحكايات المشوقة اللطيفة ، وأحياناً يَصل التأثر الذي تَرق به القلوب إلى حَدِّ البُكَاء

(٢٩) كتاب "كبرى الحركات الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري" ، د. مُحَمَّد السيد الوكيل ، ص ٥٧-٥٨ .

، وكان يُعلمهم أساليب الخطابة والدعوة ، ويَعقد الجلسات للنقد المتبادل بَين الخطباء ، فَيُدربهم بذلك على مُواجهة الجماهير وقيادتها ، ويَفُكُّ عُقدة ألسنتهم فتنطلق فَصيحة مُعبرة ومُؤثرة ، وكان الحب يَحوط هذه الرحلات واللقاءات ، ويترك ذكريات حُلوة تَزرع الرغبة في تكرارها ، وَكان لحسن البنا قُدرَةً خَارقةً عَلى التأثير في أتباعه ، يَستَثِيرُ العَاطفة بإقناع العقل ، ويُلهِبُ الروح بالمعنى لا باللفظ[1] .

التحايل والالتفاف في مواجهة الموقف

كان لحسن البنا أسلوبه الماهر في الالتفاف والتحايل والبعد عن المجابهة ، فهو يقول: "اشغلوا الناس عن الفكرة الباطلة بالفكرة الصحيحة" . ويقول: "إن الإشاعة يُقضى عليها بعمل ايجابي نافع يستلفت الأنظار ويستنطق الألسنة بالقول ، فتحل الإشاعة الجديدة وهي حق مكان الإشاعة القديمة وهي باطل" . ويقول: "إن الدور عليكم في قيادة الأمم وسيادة الشعوب ، وتلك الأيام نداولها بين الناس" . ويقول: "إن الدِّين يُوجه المسلمين إلى أفضل استعمار وأبرك فتح"[2] . ويقول حسن البنا في رسالة "الإخوان المسلمون تحت راية القرآن": إن مُهمتنا أن نقف في وجه هذه الموجة الطاغية من مدينة المادة وحضارة المتع والشهوات التي جَرَفَت الشعوب الإسلامية ، حتى تَنحسر عن أرضنا ، ولسنا واقفين عند هذا الحد ، بل سَنُلاحقها في أرضها وسنغزوها في عقر دارها ، حتى يَهتف العالم كله باسم النبي ﷺ[3] .

وهو بهذا كأنه يُشَرّعُ للعدوان الواقع علينا ، فكيف يَستسيغ ذلك ؟ وكيف نُوفق بين الموقفين لندعم شرعية مُطالبنا في الاستقلال والحرية ؟

---

(٣٠) كتاب "حسن البنا – إمام وقائد" ، مُحَمَّد الشلبي ، ص ٢٢-٢٣ . وانظر "كيف تَدعو الناس" لعبد العزيز صقر .

(٣١) كتاب "الحركة السياسية في مصر" ، طارق البشري ، ١٩٤٥-١٩٥٢ م ، ص ٧٢ . وانظر "مذكرات الدعوة والداعية" حسن البنا ، ص ١١٥. وانظر "الإخوان المسلمون في ميزان الحق" ، أنور السبكي ، ص ٢٨ .

(٣٢) حسن البنا من مجموعة رسائله ، ص ٩٩ . وانظر "كبرى الحركات الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري" ، د . مُحَمَّد السيد الوكيل ، ص ٥١ .

وفي رسالة "إلى أي شيء ندعو الناس" يقول: "إن القرآن الكريم يُقيم المسلمين أوصياء على البشرية القاصرة ، ويعطيهم حق الهيمنة والسيادة على الدنيا لخدمة هذه الوصاية النبيلة" ثم يقول: "مهمتنا سيادة الدنيا وإرشاد إنسانية كلها"[١] .

فما هدف هذه العنتريات ؟ وهل هي نعرة تعصب واستعلاء ، أم مُحاولة لِبَثِّ الثقة في النفوس واستنهاض الهمم ؟ أليست هذه مُبالغات حَماسية تشغل الشباب وتدفعهم إلى التلهي بها عن دراسة الواقع الأليم والخروج بالحلول الواقعية والممكنة بدلاً من التعلق بأهداف خيالية تتناقض مع حقائق العصر وتتصادم مع قيمه ، وتُسيء تفسير الإسلام بما يَتعارض مع حقوق الإنسان وحق الشعوب في تقرير مصيرها ، وتدفع في النهاية إلى اليأس أو التهور ؟.

وفي العدد الأول من مجلة "الإخوان المسلمون" السنة الخامسة ، سنة ١٩٣٧م ، نشر حسن البنا كلمة كان قد ألقاها في حَفلٍ خِتامي لِطلاب الإخوان المسلمين تحت عنوان "فليطمئن الزعماء" ، وتستشعر في كلماته أيضاً رُوح الاستعلاء والتعصب والعزلة ، فقد جاء في حديثه عن طبيعة دعوة الإخوان: "فدعوتنا تبني ولا تهدم ، وتأخذ بالإيجاب دائماً ، فعلينا أنفسنا قبل كل شيء ، ... فعلينا أن ندرس قانوناً وفيه الكفاية ، ونقتدي بما يَقول قادتنا ... ، وفي رسالة المأثورات غناء" .

وفي موقفه مِن الدعوات الأخرى دينية واجتماعية واقتصادية وسياسية ، نلمس إلى جانب الاستعلاء التعصب والعزلة ، ونلمس روح التلاعب والمراوغة أمام نداءات الوحدة أو الجبهة ، فيقول: "إن خير طريق نَسلكها ألا يَشغلنا الالتفات إلى غيرنا عن الالتفات إلى أنفسنا ، وإن أُمتنا والميادين الخالية فِيها مُحتاجة إلى جُنود وإلى جهاد ، والوقت لا يَتسع لِنتطلع إلى غيرنا ونشتغل به" .

وهذا الكلام المنمق يُغلف المراوغة والتلاعب ، لأن الميادين الخالية التي يتحدث عنها تشغل بكفاءة أكثر مع الوحدة والعمل الجبهوي ، وهو يُطالب بعدم الرد على ما توجه هذه الهيئات من اتهامات للجماعة: "ولا يشغلكم الرد عليه عن الجد فيما أخذتم أنفسكم بسبيله ، وستسمعون

---

(٣٣) حسن البنا من مجموعة رسائله ، ص ٣٣-٣٤ .

أن هيئة تتهمكم بالاتصال بهيئات أخرى تَكرهها أو تصادمها ، فلا تهتموا بذلك ، ولا تحاولوا أن تنفوه أو تثبتوه ، فإن على المتهم أن يُثبت والبينة على من ادعى ، وستسمعون أن قوماً يُريدون أن يَتصلوا بكم ، وأن تتصلوا بهم من أهل العمل ، إما صادقين أو غير صادقين ، فأحب أن أقول لكم هُنا بكل وضوح إن دعوتكم هذه أسمى دعوة عَرفتها الإنسانية ، وإنكم ورثة رسول الله ﷺ ، وخلفاؤه على قرآن ربه ، وأمناؤه على شريعته ، ... ، وإذا كنتم كذلك فدعوتكم أحق أن يَأتيها الناس ولا تأتي هي أحداً ، وتستغني عن غيرها ، إذ هي جِماع كُل خير ، وما عداها لا يَسلم من النقص ، إذن فأقبلوا على شأنكم ، ولا تساوموا على مناهجكم ، واعرضوه على الناس في عز وقوة ، فمن مَدَّ لَكم يده على أساسه فأهلاً ومرحباً ، أخٌ لكم يَعمل معكم ، ويؤمن إيمانكم ، وينفذ تعاليمكم ، ومَن أبى ذلك يَأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه .. لا تستعجلوا .. وستكونون من المطلوبين لا الطالبين" .

الإخوان المسلمون واحتكار الدين

لم تَكتَفِ عَقيدة الإخوان بالانعزال عن مشاكل الناس ، وإنما أرادت أن تُعمق عُزلة الإخوان عن بقية طوائف الشعب ، وتبعدهم عن التفاعل مع التيارات والهيئات المختلفة ، وتخلُقَ فيهم روح التعصب وضيق الأفق ، ففي البند الرابع مِن عقيدتنا "نص على مقاطعة كل الصحف والنشرات والكتب والهيئات والفرق والأندية التي تناوئ تعاليم الإسلام" ، وهي تَرى أن كل ما عداها من الهيئات مُناوئٌ لتعاليم الإسلام ، لأن المؤتمر الثالث أيضاً قَد اتخذ قَراراً يَحتكر به الإسلام لحساب الجماعة ، فذكر أن على كل مسلم أن يَعتقد أن هذا المنهج كله من الإسلام ، وأن كل نقص منه نقص من الفكرة الإسلامية الصحيحة[1] .

وقد علق الدكتور مُحَمَّد عمارة على هذا القرار بأن "الجماعة تُصادر به الدين لمصلحتها ، وبهذا لا تُصبح مُجرد جمعية تُطبق الدين كما يُحاول غيرها أن يَفعل ، وإنما تُؤكد أن مَنهجها وحده هو الإسلام الصحيح ، ومِن ثَمَّ فإن مَن يَقف ضِدها كجماعة يَكون خارجاً على الإسلام ذاته ، إنه مبدأ يَسعى للسيطرة على الإسلام لا للاتصاف به فقط[2] .

---

(٣٤) كتاب "مذكرات الدعوة والداعية" ، حسن البنا ، ص ١٩٦-١٨٩ .

(٣٥) كتاب "الحركة السياسية في الواقع المصري" ، طارق العلايلي بن سرور ، ص ٥٣ .

ويعلق أحد الكتاب "خليل سيد عبد العال" على هذا التحليل بقوله: "وبهذا يُمكننا أن نفسر حملات القتل والاغتيال التي نَظَّمَهَا أعضاء الجماعة ضد خصومها"[١] .

كما يمكننا أن نبصر في هذا الاتجاهَ المتعصب وضيق الأفق ، والذي ظهر في مؤتمر الإخوان عام ١٩٣٥م البدايات الأولى التي مَهدت في السبعينات والثمانينات لفكر جماعات التكفير والهجرة ، وكلها خَرجت من تحت مِعطف الإخوان المسلمين . وبهذا المنهج الديني الأخلاقي البعيد عن السياسة عاشت جماعة الإخوان المسلمين في مَرحلتها الأولى ، بَعيدة عن الأضواء ، مغمورة بين الهيئات السياسية ، ومجهولة من هذه الهيئات ، ومَن يَعرفها يَعرفها كهيئة دينية مع محاولة البعض الاستفادة منها في تحقيق أطماعه في الصراع الدائر بين التيارات السياسية والاجتماعية .

وما يدل على أن حركة الإخوان كانت مغمورة وغامضة وغير واضحة بالنسبة للهيئات السياسية أن مصطفى النحاس باشا لم يَكن يَعرف حسن البنا حين قابله ضمن وَفد لِعرض مقترحات خاصة بالتعلم والتربية الدينية ، وكان مصطفى النحاس باشا يظن أن حسن البنا أحد العمد الذين يتَألف منهم هذا الوفد[٢] .

الصوفية وأهل السنة يُشَكِّكُون في عقيدة الإخوان

ورغم أن حسن البنا قد أقر التصوف والسنة – كفكرتين مُجردتين وليس كدعوتين – باعتبارهما عنصرين من الدين والسياسة الشاملة ، ورغم أنه قد تَشَبَّع بأفكارهما واعتقدهما وأخذ نفسه بهما ، غير أن هاتين الفِكرتين بِاعتبارهما دَعوتين يَحملهما طائفتان قَد عَارضتا فَهمَ حسن البنا وجماعة الإخوان للإسلام ، فَهُمَا يَريَان أن نشاط الإخوان السياسي مَا هُو إلا إقحام للإسلام فيما لا يَعنيه ، فدعاة السنة اتهموا حسن البنا بأنه يَدعو إلى السفساف والتافه من أمور الإسلام ، ويدع العظيم والخطير منها وهو العقيدة الصحيحة وتطهيرها من البدع والخرافات ، ورماه الصوفيون بأنه تَنكب الطريق الإسلامي بِدعوته إلى التدخل بأمور الدنيا ، ولذلك أعرض حسن البنا في دعوته عن أهل التصوف ودعاة السنة ، واتجه إلى الطائفتين المحايدتين ، وهما طائفة من الصالحين من غير الطائفتين السابقتين ، وطائفة الذين لا يُبالون بالدِّين لجهلهم به ، وهما ممن لا تَشغل بالهم

---

(٣٦) كتاب "حسن البنا – متى .. كيف .. ولماذا ؟" ، د. رفعت السباعي ، ص ٦٨-٦٩ .

(٣٧) كتاب "الإخوان المسلمون" ، د. زكريا بيومي ، ص ٨٩ .

قضايا الخلاف . وقد رَدَّ حسن البنا على انتقاد أهل التصوف ودعاة السنة لَه بمجلة الإخوان المسلمين في أواسط الثلاثينيات بمقال قال فيه: "إن إخواننا الذين ينتقدوننا يحصرون دعوتهم في حدود المربع الصغير الذي يقع في مركز الدائرة ، وهم بذلك يقصرونها على الذين اكتمل فيهم كل ما يَرون أنه العقيدة الصحيحة ، وهذا عدد ضئيل ، أما نحن فنتوجه بالدعوة إلى كل من يشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّداً رسول الله ، مَهما كان مُقصراً فيما سوى ذلك من تعاليم الإسلام وأفكاره ، وكل ما نطالبه به هو أن يَرتبط معنا برباط الأخوة الإسلامية للعمل على استعادة مجد الإسلام ، وهذه الدعوة غير المشروطة بشيء إلا بالإقرار بالشهادتين ، يَستجيب لها طوائف على درجات متفاوتة من الإيمان بالتعاليم الإسلامية والعمل بها ، وفي ظل رُوح الأخوة التي تجمع بين كل هذه الطوائف ، وتحت لواء المبايعة على العمل لاستعادة مجد الإسلام ، وعلى ضوء توجيهات قيادة الدعوة الممزوجة بروح الحب والمودة تنصهر كل هذه الطوائف في بوتقة هذا المجتمع ، فترقى كل طائفة في إيمانها وعملها وعقيدتها وفقهها .

وقد هاجم الصوفية وأهل السنة حسن البنا ، وشككوا في عقيدة الإخوان وفهمهم للإسلام ، مما دفع حسن البنا إلى إصدار رسالة التعاليم ، ليحدد فيها رؤية الإخوان المسلمين للتعاليم الإسلامية الأساسية ، ورأيهم في مواطن الخلاف بين الطوائف[1] .

وختاماً

الإخوان المسلمون تَحدثنا عنهم في البدايات مُعتمدين الوثائق والحقائق لفكرهم ومنهجهم ، ولا بد من تتمة النهايات في الجزء الثالث وللحديث بقية .....

والحمد لله رب العالمين

(٣٨) كتاب "الإخوان المسلمون – أحداث صنعت التاريخ" ، محمود عبد الحليم ، ج ٢ ص ٣٣٧-٣٤١ .

الإخوان المسلمون – النشأة والحقائق

الجزء الثالث

المحتوى

مقدمة البحث ...

موظفون بدرجة إرهابي ...

الإخوان ومنظومة الفتاوى الدموية الشاذة ...

الكل في دائرة التكفير القاعدة والإخوان والإرهاب ...

الإخوان ... ضد الوحدة الوطنية في البلاد ...

الإخوان المسلمون – طلاق الديمقراطية ...

الإخوان والتعددية السياسية والحزبية ...

الإخوان والسياسة – نظرية التناقض والإلغاء ...

الإخوان – الفشل الذريع والمتوقع ...

ما حدث في مصر ليس حكماً باسم الإسلام بل إرهاباً ...

الإخوان أرادوا الحكم حصراً فأزاحهم الشعب قسراً ...

وختاماً لا بد من القول ...

مقدمة البحث

الإخوان والسياسة كانا على موعد في استغلال الشعوب ، هكذا هم دوماً المتأسلمون ، يتخذون من الدين شعاراً يُحاولون أن يَخدعوا به السُّذَّجَ مِن المسلمين ، مستهدفين فقط تحقيق أهداف شخصية ومطامح ذاتية لا علاقة لها بما يُعلنون ولا علاقة لها بصحيح الدين . أسلوب استفزازي اتبعته الإخوان لتحقيق غاياتهم السياسية والعقائدية وحتى الاقتصادية ، مُبتعدين عن روح التطلعات الشعبية لبسطاء الناس .

في هذا الجزء نُسلط الضوء على الأفكار الإجرامية للإخوان المسلمين ، من خلال دراسة أسباب فشلهم الذريع والسريع في الحكم ، وكذلك نقد نظرية الإسلام السياسي في منهجهم ، كما نسلط الضوء على الممارسات العملية للإرهاب والتكفير والغطاء السياسي للجماعات المتولدة من عباءة الإخوان ، كأنصار بيت المقدس ، وجماعة الهجرة والتكفير ، وعلاقتهم جميعاً بالقاعدة داعمة الإرهاب العالمي . هذا الجزء مُتَتِّم للجزأين السابقين ، لدراسة منظومة وفكر الإخوان المسلمين من البدايات وحتى النهايات .

موظفون بدرجة إرهابي

إنه من الخطأ إطلاق تسمية "جماعات إسلامية" على الإرهابيين الذين يرتدون عباءة الإسلام ، وأنهم المتحدث الوحيد باسمه ، فيقتلون هذا ويكفرون ذاك ، فالإسلام بريء من هؤلاء لأنهم في الحقيقة يَدعون الانتساب إلى الإسلام وهم أبعد ما يكونون عن أخلاقه ومبادئه ، والإرهاب عادة ما يبدأ فِكراً ثم يتم الخلط بين صحيح الدِّين الممثل بالقرآن والسنة وبين الاجتهادات التي هي آراء قابلة للصواب والخطأ ، ثم مُحاولة فَرض هذه الآراء على أنه الدِّين ذاته ، ويتميز أعضاء الجماعات الإرهابية بأنهم محترفون ، أي أن كل واحد منهم موظف بدرجة إرهابي ، يحاول فرض رأيه بالقوة تحت مفاهيم ومسميات مغلوطة ، مثل "جماعة المسلمين" و "أهل الحل والعقد" ، مع أنهم أبعد ما يَكونون عن جماعة المسلمين الحقيقية التي تَتميز بفهم سماحة دينها دون تعصب .

كما يجب أن لا ننسى بأن أهم مصادر الإرهاب أيضاً "الانتقاء والتفسير" ، أي محاولة تبرير تصرفات تخدم أهدافاً معينة ، عن طريق استخدام آيات قرآنية أو أحاديث نبوية ، لهذا قال الإمام علي ﷺ: "القرآن لا ينطق بنفسه وهو مكتوب ، ولكن ينطق به البشر ، وهو حمال

أوجه" ، والخطأ هنا يتم عندما يحاول البعض تأويل الآيات وتفسيرها وفق أهوائهم ومصالحهم ، وتكفر كل ما يخالفها في ذلك ، مع أن أئمة الفقه الإسلامي اجتهدوا واحترموا اجتهادات بعضهم ولم يكفر بعضهم بعضاً ، بل أن من عظمة الإسلام أن ترك بعض الأمور ليطبق فيها المسلمون ما يرونه يصلح لحياتهم ، مثل نظام الحكم وكيفية اختيار الحاكم .

الإخوان ومنظومة الفتاوى الدموية الشاذة

منذ أن عَلَت رايات الجماعات الإسلاموية في هذا العصر الحالك راحت ترد علينا أخبار "الفتاوى الشرعية" الذي يصدرها هذا الزعيم أو ذاك في حق البشر وأفعالهم والمجتمعات وأحوالها والمؤسسات ومدى إسلاميتها إلخ ، وكل هذا دون أن يستفتيهم أحد في أي من الأمور العامة أو الخاصة التي طفق سدنة الجماعات الإسلاموية على إصدارها في محاولة لرفض رؤاهم وفهمهم الأحادي للإسلام على الآخرين بالقوة ، وغالباً ما تكون الفتوى جواز مرور للفتك بالخصوم أو لإضفاء شرعية على ما يقوم به أعضاء الجماعات من غرائب الأفعال .

رُوي عن أحد زعماء الجماعات في مصر ويدعى "شوقي الشيخ" – مؤسس تنظيم الجهاد الجديد عام ١٩٨٨م ، وهو تنظيم منشق عن تنظيم الجهاد الأصلي – أنه تَسَمَّى بأمير المؤمنين ، وأصدر ثلاث فتاوى:

أعلن في الأولى أن جميع مَن في مصر يُعتبرون من المشركين بمن في ذلك علماء الأزهر . وفي الثانية كَفَّرَ كُلَّ مَن لا يُوافق على مُحتوى فتواه الأولى . أما في الثالثة فقد أفتى بأن كل إثم يَرتكبه المؤمنون في مَعرض حَربهم على المشركين يُعتبر عَملاً صالحاً . وبالطبع واضح من السياق ما المقصود بالمؤمنين بعد أن اتسعت دائرة المشركين لتشمل كل من لم يتبع الأمير .

تفاقم هذا الضرب من الفتاوى في مصر في الثمانينات والتسعينات ، وبرزت فيه أسماء لعل أشهرها "عمر عبد الرحمن" مفتي الجهاد ، وإن كان بإمكان الأخير ادعاء المعرفة الفقهية بحكم تأصيله ، فهذا لا يَجعل فتاواه صائبة تلقائياً ، على أن العلامة البارزة هي أن السواد الأعظم من مفتي الجماعات ممن لا تتعدى درايتهم بأحكام الفقه دراية عامة للناس ، ومع ذلك ما انفكوا يُوزعون الفتاوى يمنة ويسرة ، فمنهم من حَرَّم السياحة ، ومنهم من أفتى ببطلان جميع الزيجات ، أما فتاوى الردة والكفر فهذه توزع بسخاء بالغ ، وكان من ثمارها اغتيال العديد من قادة الفكر

والعمل العام ، ولعل من أبرز القوائم في هذا السياق اغتيال الكاتب "فرج فوده" وما تعرض ويتعرض له العديد من العلماء والدعاة أصحاب الفكر المعتدل .

الغريب في فتاوى أهل الجماعات أنها بقدر ما تقسو وتتشدد مع الآخرين – حكاماً ومحكومين – وتسارع في إخراجهم من ملة الإسلام توطئة للفتك بهم ، تترخص لأعضائها ترخصاً مذهلاً ، فهم قد أباحوا لأفراد جماعتهم التصرف في أموال الآخرين ودمائهم وأعراضهم باعتبارها غنيمة للمجاهدين ، وحللوا لهم السرقة ، بل أفتوا بإعادة تزويج المرأة – فيما بينهم – دون عِدَّة ، إلى غير ذلك من العجائب .

فقد وجهت الجماعة الإسلامية المسلحة بياناً لمصلحة الضرائب تحذرها فيه من جباية أي ضرائب من المواطنين ، لأن الإسلام لا يَعترف بأي ضريبة عدا الزكاة ، وكأنهم اطلعوا على سنن الخلفاء الراشدين ، والنظم الضرائبية لما تَبعهم من خلافات ، وكتاب "الخراج" لأبي يوسف .

ووجهت الجماعة نفسها إنذاراً للقصابين تُطالبهم فيه ببيع اللحوم للجمهور بربع قيمتها الراهنة ، لأن الأسعار الحالية ليست من الإسلام في شيء ، والويل لم لا يستجيب لهذه الفتوى .

ولعل أكثر الفتاوى بَشَاعة تلك الصادرة بحق الكاتب الجزائري المرموق "رشيد بوجدرة" حيث أفتوا بأن من قتله يتعشى مع الرسول ﷺ ، ولا ندري بَعدُ مِن أين تَحصل صاحب الفتوى المعنية على بطاقات العشاء هذه .

والفتوى لغة: هي أخبارٌ بالحكم الشرعي ، والحكم الشرعي المعني قد يتعلق بالشعائر التعبدية ، أو فقه الأحوال الشخصية ، أو فقه المعاملات .

وحين كان الفقه أَصلياً ونتاج لعقل المجتهدين أو حتى المقلدين ، كان الناس يَتوجهون لمن يتوسمون فيه المعرفة لإعانتهم على فَهم ما غَمِضَ عليهم من فرائض وشعائر ، أو حَلِّ ما أشكل عليهم من معاملاتهم الشخصية والاجتماعية . وقد كان فقهاء العصر الإسلامي الأول يتمهلون في إصدار الأحكام والفتاوى قبل إمعان النظر في مختلف جوانبها ، وإعمال الفكر والاجتهاد في مكان حُكمها وأدلته ، واشتهر بينهم التحرج عن إبداء الرأي في وجود مَن هو أعلم ، كما تلخص ذلك العبارة الذائعة الصيت "لا يُفتَى ومالك في المدينة" .

ومع كل ذلك لم تَكن الفتوى في يوم من الأيام مُلزمة واجبة التنفيذ كالحكم القضائي ، فالفتوى هي مشورة خَبير لا يَملك إلا سُلطة إبداء الرأي ، لا على سبيل الإلزام ولكن على سبيل النصح لمن طلبه .

هكذا كان الأمر في عهود الإسلام المتقدمة التي شهدت نمو وازدهار الفقه بمختلف مدارسه ، وتطور النظم التفصيلية للشعائر التعبدية ، وفق الأحوال الشخصية والمعاملات ، كما ظل كذلك في عصور التقليد اللاحقة ، إذ ظَلَّ الناس يَتوجهون للفقهاء وأهل العلم مُستفتين مُستنصحين فيما أشكل عليهم مِن أمور دينية ودنيوية ، حتى استقرت نظم الإفتاء تقليداً وممارسة وضوابط .

وحين ولجت المجتمعات الإسلامية مرحلة الحداثة الراهنة ، طرأت عليها مُتغيرات مُهمة لعل من أبرزها فيما يتصل بموضوعنا هذا انتشار التعليم والكتابة والطباعة ووسائل الاتصال الجماهيرية ، وقد أدت هذه – ضمن ما أدت – إلى إقامة الفرصة لعدد مُتزايد من الناس للاطلاع على تفاصيل الشعائر الدينية والمسائل الفقهية ، وتزامن هذا مع استقرار فِقه الشعائر التعبدية واكتمال أساسياته ، بفضل اتساع النشر والكتابة ... إلخ .

من كل ما تقدم تتضح قضيتان:

الأولى: ضرورة ارتباط الفتاوى بالاجتهاد والتبحر في علوم الدين ، والمقدرة على استخراج الأحكام ومعرفة ضوابطها .

والثانية: تقلص دائرة الفتاوى في عصرنا الراهن ، لما تقدم من انتشار التعليم ووسائل الاتصال وانتشار الكتب، وبالتالي اتساع دائرة المعرفة .

كل هذا أدى إلى تضييق دائرة المفتي وانحصارها في جزئيات المسائل الفقهية .

ولما كان مُعظم فُقهاء اليوم مُقلدين ، كان بإمكان كل من له إلمام بالقراءة والكتابة البحث عن حل لمشكلته في بطون الكتب .

المشكل الأساسي في هذا الوضع هو أن المجتمعات الإسلامية الراهنة وجدت نفسها تواجه عالماً جديداً متجدداً بفقه أُنتج في عصور لَبَّت حاجة تلك العصور وبأدوات معرفتها .

وقد أدرك زعماء وقادة الحركات الإسلاموية المعاصرة هذه المفارقة باكراً ، وجعلوها ركيزة شريعتهم ومحور نشاطهم ودعوتهم التي تمحورت حول تجديد الدين وفق مُتطلبات العصر ، بل أضافوا أن

الفقه القديم على إنجازاته كان يُعاني من نقطة عمياء في ميدان السياسة لاهتزاز شرعية الحكام ووقوع العلماء فريسة التبرير والبراغماتية ، كما طعنوا في مؤسسة الإفتاء الراهنة التي أصبحت ترتبط بحكام اليوم وأحد أركان دولتهم ، تحلل ما يشاؤون وتحرم ما يكرهون .

هذه الادعاءات في مجملها صحيحة ، ولكن التحدي لمن نذر نفسه للإصلاح ليس فقط في تبيان المعضلة وتشخيص الداء ، وإنما في تقديم البديل ، وبالتالي كان واجب الجماعات المعنية العمل على تقديم فقه بديل يُلبي حاجة اليوم وفق اجتهاد مسؤول وتشاور واسع ، واستعداد لمواجهة المعارضين بالحجة والمنطق دون ادعاء بأن ثمار اجتهادهم هو الحقيقة المطلقة والنهائية .

دون كل هذا طريق طويل وشائك ليس عدته الشعارات وديماغوجية السياسة ، وإنما كدح العلماء وصبرهم وتقواهم .

وحتى الآن لم يظهر مِن بين صفوف الجماعات من يَتصدى لهذا الدور بِتَحَرٍّ وأمانة ، ولعل أسباب هذا القصور كامنة في طبيعة هذه الجماعات نفسها .

فالجماعات الإسلاموية – على اختلاف مشاربها – لا تَعدو إحدى فرقتين:

الأولى: غرقت حتى آذانها في مستنقع السياسة ، وأصبح الفقه عندها – في المحصلة النهائية – تسويقاً لنهجها السياسي وليس العكس ، وأصبحت "الضرورة" لديهم هي ضرورة العمل السياسي ، و "المصلحة" مصلحة التنظيم ، وربما قادته فقط ، و "الاستحسان" هو ما يستحسنه هؤلاء حسب هواهم ، وليس جلباً لمنفعة عامة ودرءاً لمفسدة ، و "الاستصحاب" هو ما استصحبه هؤلاء من منظومات الغرب المرفوض ومؤسساته ومعداته لزيادة فعالية التنظيم وتوسيع قادته ، وقس على ذلك .

الثانية: الجناح الإرهابي التكفيري ، فقد اختارت طريقاً مختصراً يقضي بتكفير المجتمع كافة – حكاماً ومحكومين ورجال دين – ومِن ثَمَّ إعلان حرب شعواء عليه ، والويل لمن تُسَوِّل له نفسه الوقوف في طريق هذه الفرقة ناقداً أو متسائلاً أو متشككاً ، و "الفتوى" عند هؤلاء تعني في المقام الأول انتزاع صفة العلم والمعارف الفقهية مِن مراكزها الأصلية ، وحصرها في دائرة الجماعة الضيقة ، وهي في المقام الثاني إضفاء شرعية على أفعالهم مهما كانت شاذة أو غريبة أو حتى لو كانت إثماً ظاهراً ، مثل السرقة والقتل .

ولأنهم اختاروا العنف وسيلة تعبيرهم الأساسية فقد أصبحت الفتاوى عندهم تشريعاً للإرهاب ، ولأنهم لا يمتلكون أي أهلية للاجتهاد ولا شرعية قبول من بقية المسلمين ، أصبح الإرهاب وأعمال القتل والخطف والترويع والتهديد ...إلخ ، شعارهم المعاصر لتحقيق غاياتهم .

الكل في دائرة التكفير

القاعدة والإخوان والإرهاب

الكل في دائرة التكفير والقتل والإرهاب مِن خلال تماسك العلاقة الفكرية ما بين القاعدة والإخوان ، وصولاً إلى بعض الجماعات التي انبثقت من عباءة الإخوان ، فالرسالة التي وجهها "أيمن الظواهري" – زعيم تنظيم القاعدة بمناسبة اعتداءات سبتمبر / أيلول ٢٠٠١ م – تضمنت أفكاراً شَديدة بالنسبة لمستقبل الأوضاع في مصر ، والسيناريوهات الإخوانية المحتملة لإسقاط ما يعتبرونه انقلاباً عسكرياً ضِد الشرعية المتمثلة في حُكم الرئيس مُحَّد مرسي الذي أسقطته ثورة الثلاثين من يونيو ٢٠١٣ م ، فخطاب الظواهري تَضمن تَهديدات مباشرة للولايات المتحدة الأمريكية ، ووعد بهزيمتها في ميدان المواجهة ، مع ما أسماه بالأمة المسلمة ، لكنه تَضمن أيضاً انتقادات صريحة لجماعة الإخوان في مصر وتونس ، واتهمهم بالتخلي عن الشريعة وحكم الشريعة ، والقبول ببرلمانات وانتخابات داستها جنازير الدبابات ، وأزهقت أرواح الآلاف من أنصارهم وقتلت المئات في الشوارع .

خطاب "الظواهري المفعم" بالتكفير الديني – أي تكفير المسلمين وتكفير مجتمعاتهم لأنها مجتمعات خارج حكم الشريعة – جاء أيضاً تكفيرياً من منظور الوطنية ، فالوطن عنده ليست له قيمة معنوية ، وأنه مجرد وجود مادي ، والولاء للوطن ورموزه لا يَخرج أيضاً عن دائرة الكفر ، ولذلك تعمد النيل من كل انتصار وطني واعتبره هزائم ، وتعامل مع كل التاريخ الوطني باعتباره تاريخاً مِن الهزائم تحت حُكم ما أسماه بالعسكر ، فحرب عام ١٩٥٦م ، التي أعقبت تأميم "جمال عبد الناصر" لقناة السويس مِن أجل بناء السد العالي بِكل ما يَعنيه بناء السَّد كانت من وجهة نظره هزيمة امتدت إلى ١٩٦٧م ، من دون أي اعتبار أو تقدير لانتصار أكتوبر / تشرين الأول ١٩٧٣م ، فالدولة المدنية أو العسكرية لم تُحقق غير الهزائم ، ولذلك وجب إسقاطها لأنها دولة كافرة .

هذا المنظور التكفيري كان شديد الوضوح في البيان الصادر عَمَّا يُسمى جماعة أنصار بيت المقدس بخصوص مُحاولة الاغتيال الفاشلة لوزير الداخلية المصري "مُحَمَّد إبراهيم" ، فالبيان تحدث عن الجماعة باعتبارها جزءاً من الأمة المسلمة في مصر ، مما يؤكد أن التنظيم لم يَعد يَحصر نشاطه داخل شبه جزيرة سيناء ، وخَاصة في مُحافظة شمال سيناء ، لَكنه امتد بنشاطه إلى العُمق المصري كله ، وعلى الأخص في القاهرة ، لكن الأهم أنه عَرضَ نَفسه باعتباره أحد أذرع جماعة الإخوان ، وأنه استهدف بمحاولة اغتيال وزير الداخلية القصاص لشهداء "رابعة العدوية وميدان نهضة مصر" ، وما أسماه بالاعتداء على النساء والأطفال ، واقتياد حرائر نساء أرض الكنانة إلى السجون ، مُفردات بيان تنظيم أنصار بيت المقدس ، تَكشف أنه لم يَعد تنظيماً فلسطينياً أو حَماسياً فقط ، ولكنه أضحى تنظيماً إخوانياً مصرياً ، وأنه يَسير على طريق تنظيم القاعدة ، ويستقي من النبع ذاته الذي أسسه الزعيم الإخواني السيد قطب ، الذي أرسى قواعد شرعية الاغتيال السياسي في كتابه "معالم في الطريق" ، حيث نَصَّ على أنه يَتحتم على الإسلام أن يُزيل هذه الأنظمة فهي معوقات التحرر العام ، والإزالة هنا تكون بإزالة رموز الأنظمة ، فهذه الاغتيالات هي – وفق مفاهيم السيد قطب – اغتيالات شرعية .

هذا المفهوم هو جَوهر عَقيدة تنظيم القاعدة وتفريعاته من أنواع تنظيم: "أنصار بيت المقدس" و "جماعة التوحيد والجهاد" التي تعد من أشهر وأخطر التنظيمات التكفيرية في سيناء ، والتي انحرفت بالرسالة الجهادية نحو العدو الصهيوني إلى الجهاد ضد نظم الحكم العربية ، من منطلق تكفير هذه الأنظمة ، لذلك لم يكن غريباً أن يُسمي تنظيم أنصار بيت المقدس مُحاولة الاغتيال الفاشلة لوزير الداخلية المصري بـ "غزوة الثأر لمسلمي مصر" ، ولم يكن غريباً أن يَتبع هذه المحاولة باعتداء على مَقر المخابرات الحربية المصري في رفح ، وهو الحادث الذي راح ضحيته أحد عشر شخصاً من عسكريين ومدنيين ، وأسفر عن إصابة سبعة عشر آخرين .

هذه التنظيمات التي انحرفت بالجهاد إلى التكفير ؛ باتت تنظر إلى القوات المسلحة المصرية باعتبارها جيش طواغيت لحماية العدو الصهيوني ، على نحو مَا جاء في البيان الخاص بعملية مَقر المخابرات الحربية المصرية في رفح .

وهكذا تتوحد المفاهيم والآليات بين القاعدة ، والتنظيمات التكفيرية داخل مصر ، وعلى الأخص في سيناء أو جماعة الإخوان ، الكل ينطلق الآن من منطلق تكفيري أرساه السيد قطب في مؤلفه "معالم في الطريق" ، واتخذه الإخوان نهجاً فكرياً وحركياً ، وكلهم الآن مُوحدون حول هدف إسقاط الدولة من قاعدة استهداف الجيش والشرطة .

اعتراف واضح بالإرهاب والقتل والتهديد ، والمتهم بذلك ليس فقط تنظيم أنصار بيت المقدس ، ولكن جماعة الإخوان ، فالعلاقة عضوية بين الطرفين حسب ما سبق أن أكده القيادي الإخواني "مُحَمَّد البلتاجي" ، عندما ربط بين عودة الشرعية وتحرير الرئيس "مُحَمَّد مرسي" ، وبين وقف عمليات التفجير التي تحدث في سيناء ، كما أكده تَوقف تنظيم أنصار بيت المقدس عن تفجير خط أنابيب الغاز المصري داخل سيناء خلال حكم مرسي ، والعودة إلى مسلسل هذا التفجير يوم ٣٠ يونيو / حزيران يوم تَفَجُّر الموجة الثانية للثورة المصرية .

هذا يعني أن ما يحدث الآن ليس مجرد اختلاف في الرأي أو مُجرد صراع سياسي سلمي ، ولكنه إرهاب وتكفير للدولة والمجتمع ، وتهديد وإصرار على اغتيال الرموز الوطنية ، وخوض حرب استنزاف ضد الجيش والشرطة من أجل إسقاط الدولة ، تمهيداً لعودة الإخوان وأعوانهم إلى الحكم مجدداً ، ولكنها عَودة تحت رايات تنظيم القاعدة والجماعات التكفيرية تفرض ما يُسمونه بحكم الشريعة كما يَفهمونها هم ، وليس كما في الكتاب والسنة .

الإخوان ... ضد الوحدة الوطنية في البلاد

الجماعة تنسى أن مجمل تاريخها يدينها ، وأن مجمل تصرفاتها تدينها ، وكل ما هناك أن الجماعة اعتادت دوماً على ممارسة الجريمة والتنصل منها في آن واحد ، اعتادت كما قلنا من قبل أن تقتل القتيل وتمشي في جنازته .

وللإخوان تاريخ حافل ضد الوحدة الوطنية ، ففي مايو ١٩٤٧م ، أقامت جماعة الإخوان حفلاً اختارت له مكاناً ملائماً بالنسبة لها ، أمام كنيسة "مارجرجس" ، وكان خطيب الإخوان يَصيح بأعلى صوته ، وكأنما ليسمع الموجودين في الكنيسة: "غداً تؤول شركة المياه إلينا فلا نترك فيها قبطياً واحداً ، وغداً يُسيطر المسلمون على جميع الشركات فلا يبقى فيها قبطي واحد" .

سيد التطرف ومفكره "سيد قطب" الذي لم تزل جماعة الإخوان تعتبره شهيدها ومفكرها ، فإنه يحذر من دور المسيحيين في العملية التعليمية ، فالإسلام عند "سيد قطب" لا يتسامح في أن يتلقى المسلم منهج تاريخه ، وتفسير نشاطه ، ولا مذهب مجتمعه ، ولا نظام حكمه ، ولا منهج سياسته ، ولا موحيات فنه وأدبه وتعبيره ... من مصادر غير إسلامية ، ولا أن يتلقى عن غير مسلم يثق في دينه وتقواه في شيء من هذا كله .

بل إن "سيد قطب" يقول في الظلال: "إنه يجب قتال أهل الكتاب المنحرفين عن دين الله حتى يُعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، فلم تعد تُقبل منهم عُهود مُوادعة ومهاونة إلا على هذا الأساس ، أساس إعطاء الجزية"[1] .

بل إن "سيد قطب" يرفض فكرة الوطن القائمة على أساس الأرض والحدود ، فهو يقول في كتابه "معالم في الطريق": "فعقيدة المؤمن هي وطنه ، وهي قومه ، وهي أهله ، ومِن ثم يتجمع البشر عليها وحدها ، لا على أمثال ما تتجمع عليه البهائم مِن كلأ ومرعى – أرض الوطن – وقطيع – شعبه – وسياج – حدوده —"[2] .

وهكذا نمسك بخيوط الموقف من بداياتها الأولى ، فالإخوان لم يأتوا بجديد ، فموقف الجماعة كان دائماً ضد الوحدة الوطنية وضد أقباط مصر ، لكن الجماعة اعتادت أن تخفي وجهها القبيح ، وأن تحاول أن تقدم نفسها على غير حقيقتها ، وإن كانت لا تكف عن أن تتسلل ببعض المواقف ، تصرح بها أو تثبتها على الورق ، فإن مرت دون أن تثير ضجة كان بها ، وبقيت ضمن التراث الفكري وضمن مواقف الجماعة ، وإن أثارت ضجة أو ضجيجاً تراجعت عنها واعتصمت بالتقية التقليدية .

ولم تكن تصريحات قادة الإخوان زلة لسان ، ولا كانت سهواً ، ولا حتى عملاً عفوياً ، بل كانت جريمة مبيتة ، أي كما يقول القانونيون: "مع سبق الإصرار والترصد" ، ففي الوقت الذي حَوَّلَ فيه الإرهابيون المتأسلمون سهامهم المجرمة ضد المسيحيين في بعض قرى الصعيد ، وفي الوقت الذي يحاولون أن يجبروهم على دفع الجزية ليستخدموها لتمويل نشاطهم الإرهابي وشراء الأسلحة

---

(١) تفسير في ظلال القرآن ، سيد قطب .

(٢) كتاب "معالم في الطريق" ، سيد قطب .

والمتفجرات ، في هذا الوقت تحديداً يأتي زعماء الإخوان ليقدم للإرهابيين الفتوى والمبرر كي يواصلوا إرهابهم الإجرامي ضد الإخوة المسيحيين ، هذا هو الهدف الحقيقي وهذه هي الجريمة ، وهذا ما يؤكد لنا أن هذه الجماعة كانت على الدوام ضد الوطن وضد الوحدة الوطنية .

الإخوان المسلمون – طلاق الديمقراطية

فالجماعة تندب – الآن – ومنذ فترة حظها ، مدعية أنها مع الديمقراطية ومع التعددية الحزبية ، وأنها تريد لنفسها مكاناً في ساحة "الديمقراطية" . فهل هذا صحيح ؟ أم أنها مناورة من تلك التي اعتادت عليها جماعة الإخوان ، إذ تتلون حسب ما تقتضيه مصلحتها .

لكن تاريخهم ووثائقهم الموثقة تؤكد أنهم كانوا دَوماً ضد الديمقراطية ، ضد التعددية الحزبية ، ضد الدستور .

ولنقرأ: "في الثامن عشر من ربيع الأول ١٣٧٥هـ ، تقدم وفد من الإخوان المسلمين بخطاب إلى الملك ، يَلتمس العمل على إدماج الأحزاب المصرية في هيئة واحدة ذات برنامج إصلاحي إنشائي ، يرتكز على قواعد الإسلام وتعاليمه ، وحسبنا ما لقينا من بلاء الحزبية وعناء الانقسام السياسي[١] .

ولكن الجماعة لا تَكتفي بهذه الرسالة بل تُشفعها بتهديد تقول فيه: "إن الإخوان سيجدون أنفسهم مضطرين – إن لم تفد النصيحة وحدها ولم يفد الأدب والهدوء – إلى أن يسلكوا كل سبيل إلى غايتهم ، وأن يُناضلوا في سبيل فكرتهم بكل سلاح" .

ثم يوجه "حسن البنا" خطاباً إلى الملك يُحرضه فيه ضد الأحزاب قائلاً: "إن الحزبية السياسية التي تفشت بين الناس فَرقت الكلمة ومزقت الوحدة وأفسدت الأعمال وعطلت كل النواحي .. " .

ثم يقول: "إن الضرورات التي أوجدت التعددية الحزبية قد انتهت ولم يبق منها شيء ، فلا مَعنى لبقاء هذه الأحزاب" .

---

(٣) صحيفة "النذير" ٣٠ ربيع الأول ١٣٥٧هـ .

بل يَدعو الملك إلى الاقتداء بالنازية الهتلرية قائلاً: "إن الأمم الغربية التي ليس فيها كتاب قيم ككتابنا ، وليست له شرعية مطهرة كشريعتنا ، أدركت بحكم مَصلحتها القوية ضَرر الخصومة ، فقضت عليه من أساسها واستأصلتها من ديارها" .

ثم يُؤكد في ختام رسالته: "إن الإسلام يُحرم هذه العصبية الحزبية"[١] ، وعندما وقع خلاف بين الوفد والملك رددت دوائر القصر الملكي شائعة تقول: إن الملك يُفكر في إلغاء الدستور وحل الأحزاب ، ويسرع "حسن البنا" ليؤيد ذلك فينشر مقالاً في صحيفة "النذير" السياسية ، فهذا ما نادى به الإخوان المسلمون من زمن غير قصير ، وقد سجلته مؤتمراتهم ومذكراتهم التي رفعوها إلى جلالة الملك الصالح . فإذا فكرت الجهات العلية في حل الأحزاب السياسية جميعاً ، فإن هذا التفكير صحيح ومنطق سليم ، وتحقيق لرغبات الأمة .

الإخوان والتعددية السياسية والحزبية

لقد كتب حسن البنا في "النذير" قائلاً: "إن الحائل دون النهضة ، والمانع من تقدم الأمة ، والمعول الذي يَهدم كل خير فيها ويحطم كل عنصر سليم ، شيء واحد فقط هو الحزبية البغيضة"[٢] .

والمشكلة عند حسن البنا أنه كان يعتقد – أو هكذا كان يقول – أن الدستور والتعددية الحزبية والديمقراطية هي مجرد بلاء ورد إلينا من الغرب ، فقد أكد أكثر من مرة على ضرورة أن نتخلص من هذا البلاء الداهم الذي وقعنا فيه من جراء تقليد الغرب من غير تبصر ولا تقدير لعواقب الأمور[٣] .

ثم هو يكتب في "نظام الأسرة ورسالة التعاليم": "لا ندري ما الذي يفرض على هذا الشعب الطيب المجاهد المناضل هذه الشيع والطوائف من الناس التي تُسمي نفسها الأحزاب السياسية . إن الأمر جد خطير ، ولم يعد يحتمل أنصاف الحلول ، ولا مناص بعد الآن مِن أن تحل هذه الأحزاب جميعاً" .

---

(٤) صحيفة "النذير" ٧ ربيع ثاني ١٣٥٧هـ .

(٥) نقلاً عن السيد يوسف ، "الإخوان المسلمون" ، ص٥– ٢٧ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٢٨ .

ولعل النموذج الأمثل الذي استند إليه الإخوان دفاعاً عن فكرة حل الأحزاب وإلغاء التعددية الحزبية هو النموذج الفاشي ، والغريب أنهم لم يخفوا ذلك ، بل قالوه صراحة ، فإذ تهاجم جريدة "المصري" موقف الإخوان من الأحزاب ، ويرد عليها واحد من قادة الجماعة "حلمي نور الدين" قائلاً: " ألا تتذكرون ألمانيا وقد أحيط بها وضيق عليها الخناق ومزقت شر ممزق ؟ ألا تتذكرون إيطاليا وقد كانت مفككة تهددها الشيوعية ؟ حدثوني بربكم من فك عن ألمانيا الأغلال ؟ ومَن أنقذها من هاوية الاضمحلال ؟ واذكروا لي بربكم مَن أنقذ إيطاليا مِن خطر كان مُحيطاً بها ؟ هل كان ذلك مِن تَعدد الأحزاب ، وكثرة البرامج وتنوع الأغراض ؟ أم أن ذلك كان لوجود حزب واحد في كل دولة منها ؟"[١] .

ولم يكن ذلك كله في الزمن القديم ، بل امتد هذا الموقف المعادي للحزبية حتى السنوات الأخيرة ، فالمرشد العام "عمر التلمساني – ثالث المرشدين العامين" يقول: "مؤكد أن الأحزاب ما هي إلا لعبة استعمارية ، كما أن الدستور فِكرة استعمارية" ويقول" "استقر رأيي أخيراً على أن فِكرة قيام دستور وإنشاء أحزاب أصلاً كانت فكرة استعمارية قُصد منها الوقيعة بين أبناء الوطن الواحد"[٢] .

والتلمساني يكتب ذلك في نهاية السبعينيات ، وبعد كل ما جره نظام الحزب الواحد وعدم الإعمال الصحيح للدستور من بلايا ومصائب ، فهو ما يكاد يخرج من "المحنة" – هكذا كانوا يسمون فترة عبد الناصر – هو وإخوانه ، ويفرج عنهم السادات ، ويعطيهم ما لم يكن أحد يتوقعه من حرية الفعل والحركة والوجود ، ما أن استرد التلمساني أنفاسه حتى يُهاجم التعددية الحزبية من جديد ، ويهاجم الدستور من جديد ، بل ويعتبرهما مؤامرة استعمارية .

أما "مصطفى مشهور – المرشد الخامس للجماعة" ، فقد كشف الأوراق جميعاً ، فطالما هم خارج الحكم لا بأس بالتعددية الحزبية – أليس المجتمع كافر ، أو كما يقولون هم تعلوه رايات الكفر ، فلا بأس من أن تعلوه أساليب كافرة – أما عندما يصل الإخوان إلى الحكم فلا مجال للتعددية الحزبية .

---

(٧) صحيفة "النذير" ١١ ذي القعدة ١٣٧٥ هـ .

(٨) "عمر التلمساني – شاهد على العصر" ، إبراهيم قاعود ، ص٢٦ .

والآن ها نحن نضع الجماعة أمام تاريخها المشين ، فهل لها من قول إزاء ذلك ؟ وليس بالإمكان أن تتنصل بأن الموقف قديم ، بل هو موقف ممتد متواصل ، بما يعني أنه المبدأ الأصيل ، تواصل منذ المرشد الأول حتى المرشد الأخير ، ولا مناص أمام الجماعة من أن تُعلن موقف الآن ، أما أن تدين أو حتى تنتقد أو على الأقل تستبعد هذه المواقف ، أو أن تكف عن استخدام العبارات المستهلكة التي تدعي فيها الآن أنها مِن التعددية الحزبية ، لا مناص . لكن هل تفعلها الجماعة ؟ أغلب الظن لا ، فقد عاشت الجماعة واستمرت متمسكة بالمراوغة والتلون والكذب ، ومن شب على شيء شاب عليه .

الإخوان والسياسة – نظرية التناقض والإلغاء

أكد الإخوان دوماً ضرورة الاشتغال بالسياسة ، أكدوا ذلك نثراً وشعراً:

الدين شيء والسياسة غيره دعوى نحاربها بغير سلاح

بل إن حسن البنا يتورط معلناً: "أتحسب أن المسلم الذي يَرضى بحياتنا اليوم ويتفرغ للعبادة ، ويترك الدنيا والسياسة للعجزة والآثمين ، يَسمى مسلم ؟ كلا إنه ليس بمسلم"[١] .

لكن حسن البنا يريد أن يحتكر السياسة لحزبه وحده ، فهو يعتبر نفسه حزب الله ، والآخرين جميعاً حزب الشيطان ، ويُعلم أتباعه فيقول: "ستخاصمون هؤلاء جميعاً في الحكم وخارجه خصومة شديدة لديدة إلى أن يستجيبوا لكم"[٢] .

وهو يرفض التعددية الحزبية ، "فالوحدة جزء أساسي في حياة المجتمع الإسلامي ، لا يتساهل فيها بحال ، والإسلام يعتبر الخلاف فرقة ، والفرقة قرينة الكفر ، ومِن ثَمَّ فيجب أن تُحَلَّ هذه الأحزاب جميعاً ، وتجمع قوى الأمة في حزب واحد"[٣] .

وهو يعتبر أن حزبه وحده حزب الحق ، لكنه يردف فيقول: "القوة أضمن طريق لإحقاق الحق ، وما أجمل أن تسير القوة والحق جنباً إلى جنب"[٤] .

---

(٩) الإخوان المسلمون ، ١٩٤٥/٣/٤ .

(١٠) صحيفة "النذير" ، مايو ١٩٣٨م .

(١١) كتاب "مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي" ، حسن زيادة ، ص٣٧٣ .

(١٢) كتاب "إلى أي شيء ندعو الناس" ، حسن اللبابيدي .

إذاً ، نحن الآن أمام دعوة غريبة ، أبرز دعائمها ما يلي:

- تسييس الدين أو تدين السياسة .
- من لم يعمل بالسياسة ليس بمسلم .
- مخاصمة الآخرين جميعاً .
- رفض الاختلاف في الرأي ، فالخلاف فرقة ، والفرقة قرين الكفر .
- الحق يجب أن يَقترن بالقوة لتستخدم ضد خصوم دعوته .

هو إذاً يرفض التعددية الحزبية ، بل هو يعتبر أن رفض التعددية هو المبدأ والأساس ، وهو مستعد لقبول النظام البرلماني شريطة ألا يكون معترفاً بالتعددية ، فيقول: "بزوال الحزبية لا يُصبح النظام النيابي بَعيداً عن النظام الإسلامي ولا غريباً عنه"[١] ، لكن رفض التعددية ليس الشرط الوحيد ، بل هناك شرط طبقي حاسم ، فلا مانع من انتخاب أهل الشورى بشرط "أن أهل الشورى يكونون إما من رجال الدين ، أو من الرجال المتمرسين على القيادة ، مثل رؤساء العائلات والقبائل ، ولا تَكون الانتخابات مقبولة إلا إذا أسفرت عن اختيار أُناس مِن هذين الصنفين"[٢] ، وهو إذاً يختزل السياسة في حزبه ، ثم يختزلها في طبقة ، ثم بعد ذلك يختزلها في نفسه وحده ، "فالشورى غير مُلزمة لفضيلة المرشد"[٣] ، بل إن حسن البنا يُؤكد أن طاعته شخصياً "من طاعة الرسول ، وطاعة الرسول من طاعة الله ، ومن أطاع الله أفلح"[٤] .

وكان المرشد يتشبه بالرسول ﷺ ، إذ يَستند إلى الآية الكريمة مُحتجاً بها في مواجهة خصومه أو الرافضين لسلطته ، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] ، بل هو يُؤكد بلا تردد: "إن القائد جزء من الدعوة ، ولا دعوة بدون قائد ، وإن قوة الجماعة في الثقة بالقائد ، وللقيادة في دعوة الإخوان حق الوالد بالرابطة القبلية ، والأستاذ بالإفادة العلمية" .

---

(١٣) كتاب "مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي" ، حسن زيادة ، ص ٣٦٥ .

(١٤) المرجع السابق ، ص ٦٠ .

(١٥) صالح عشماوي ، الدعوة ، ١٩٥٢/١٢/١٢م .

(١٦) الإخوان المسلمون ، مجموعة ١٩٣٦م .

نحن إذاً أمام دعوة أو ادعاء يَستهدف تسييس الدين أو تديين السياسة ، ثم يَختزل السلطة كلها في يد فرد واحد ، ثم يكون ما هو أخطر عندما تُؤكد الجماعة في صراحةٍ غَريبة بل ومُريبة "أن أي اضطهاد للإخوان هو اضطهاد للدين"[١٧] .

وإذا كانت الجماعة والدعوة كلها تُختزل في إرادة فرد واحد ، فمن الطبيعي أن يَعتبر هذا الفرد أن الوقوف ضده أو ضد آرائه ومواقفه هو وقوف ضد الدين ، فأي فَرق بين هذا التفكير وهذه المواقف ، وبين ما يُعلنه أمراء الإرهابيين ؟ بل وبين ما يمارسونه ، إذ يلعبون هم أيضاً لعبة تسييس الدين ؟ بل أي فرق بين هذا وبين ما يقوله المتأسلمون في الجماعات الإسلامية ، إذ يَفرضون حكمهم الإرهابي الديكتاتوري ؟ لا فرق ، ومن وجد فرق فَليُفِدنا به وإنا لمنتظرون .

الإخوان – الفشل السريع والمتوقع

الإخوان المسلمون ونظرية الحكم في الإسلام ، والتي قام الفكر الإخواني على أساسها ، باستغلال الأحداث في مصر ، حتى استطاعوا – بطريقة أو بأخرى – الوصول إلى الحكم ، ولكن السؤال الأهم هنا: لماذا فشل الإخوان .... ؟

على نقيض ما توقع كثيرون فشل الإخوان ، واللافت للنظر أن هذا الفشل جاء أسرع مما كان في الحسبان ، في مُختلف مَناحي الحياة ، فشل منقطع النظير ، دستور مختلف عليه ، رئيس يُناصب المعارضة العداء ، مُظاهرات واعتصامات وإضرابات ، لم يَشأ النظام أن يَتعامل معها إلا من خلال الاعتقالات . هذا على المستوى السياسي ، فإذا نظرت إلى الاقتصاد ، هَالَكَ ما ترى ، نقص في الوقود يَشُلُّ كل عجلات الإنتاج ، تَضخم متزايد يَلتَهم دخل الغالبية العظمى من المواطنين ، وأخيراً الاستدانة ، التي يَبدو أن النظام قد قرر اعتبارها خياراً استراتيجياً .

هل – لما سبق – فشل الإخوان ؟ وهل كان فشلهم حتمياً ؟ لا شك أن الإخوان قد تولوا الحكم والبلاد تمر بفترة عصيبة ، وأن هُناك تحديات غير مسبوقة ، كان لا بد أن تُؤثر على أداء النظام أيا ما كان توجهه أو رموزه ، ولكن مِن الواضح للعيان أنَّ تَعَامُل النظام الحاكم مع تلك التحديات كان مذهلاً بكل المقاييس ، فَبِدَايَة لم يضع النظام نُصب عينيه أنه قد أتى إلى السلطة بنسبة حرجة "٥١ %" ، وبعد تفاهمات ، وبشروط ووعود يرتهن بقاءه بتنفيذها ، ومِن ثَمَّ فإنه

(١٧) صلاح عشماوي ، الدعوة ، ١٩٥١/٤/٢٤م .

بمجرد تنحيته جانباً لتلك الوعود الواردة – باتفاق فيرمونت – خسر قطاعاً لا يُستهان به من المواطنين ، وهو القطاع الأكثر سِلمية أو براجماتية داخل معسكر الثورة ، والذي كان يُمكنه أن يستند إليه في أكثر الأوقات صعوبة ، فيضمن له قدراً مِن الاستقرار يُعينه على مواجهة التحديات على الأقل الاقتصادية .

لم يَهتم النظام كذلك بطمأنة نصف الناخبين الذين لم يُعطوه أصواتهم "٤٩ %" من المصوتين ، ولم يتعامل مع الأسباب الواضحة التي دفعتهم للتصويت ضد مرشح الإخوان ، بل على العكس جاءت كل ممارسات النظام لِتدفع نحو تنفير هذا القطاع العريض واستثارته .

فقد النظام أيضاً – خلال مسيرته التي لم تتجاوز عدة أشهر – قطاعاً يُعتَدُّ به من المواطنين الذين صوتوا له بالفعل أو رَحَّبُوا بقدومه ، نتيجة استعانته بكوادر الحزب الوطني المنحل تارة ، وهو ما عكس – فضلاً عن نقص الخبرات والكوادر الإخوانية – براجماتية مفرطة ، أودت بآمال كل من اعتبره ممثل الثورة ، أو بديلاً حقيقياً للنظام السابق ، ومحاولات الأخونة ، وتقديم أهل الثقة على أهل الخبرة تارة أخرى ، الأمر الذي تجلى في التعديلات الوزارية الأخيرة والكثيرة .

أضف لما سبق أن النظام الإخواني ليس له أيديولوجية أو انحياز اجتماعي للفقراء أو للعدالة الاجتماعية ، أو حتى لمكافحة الفساد ، ومِن ثَمَّ فَهو لا يستند إلى مشروع له مؤيدوه الذين يُوفرون له الدعم لِيظل مُحتفظاً برضا الجماهير ، وتتضح أهمية ذلك عند مقارنته بالنظام الناصري الذي جاء أيضاً بعد ثورة ، وواجه تحديات مشابهة .

وأخيراً فإن فشل النظام الإخواني يُعزَى إلى حدٍّ كَبير إلى مُخاصمته لما يُعرف "بالحكم الرشيد" الذي يَستند إلى ثلاثة مقومات أساسية: الشفافية ، والمحاسبة ، وحكم القانون ، وجميعنا يَعلم أين يَقفُ الإخوان من تلك المقومات الثلاثة .

ما حدث في مصر ليس حُكماً باسم الإسلام بل إرهاباً

ما حدث في مِصر بعد اعتلاء الإخوان سُدة الحكم يُعيدنا إلى البداية ، حين أطلقوا الشعار الشهير "الإسلام هو الحل" ، يُريدون به مداعبة عواطف العامة والبسطاء ، واستغلال احترام الناس للدين والمتدينين ، ولكن ماذا حصل ؟

"الإسلام هو الحل" شعار انطلقوا به مِن أجل النفاق السياسي أولاً ، والاقتصادي ثانياً ، حيث: أقاموا شركات إسلامية لتوظيف الأموال ، نَهبوا مُدخرات الفقراء وسرقوا أموال اليتامى ، وضحكوا على الناس في أكبر عملية نَصب شَهدها القرن العشرين ، عِندما جمعوا الملايين باسم الإسلام ، وعاثوا في الأرض فساداً ، ولم يَتركوا جَريمة إلا ارتكبوها ، ولا موبقاً إلا كانوا سَبَّاقِين إليه ، واستعانوا بكل أنواع الفساد ، من رِشوة ومُخدر وجِنس ، وزَيَّنُوا جرائمهم بفتاوى من علماء كنا نعتقد أنهم لا يرتشون ولا يبدلون القول ، وكذلك مناطق كاملة – قرى وأحياء – استولوا عليها ، وأقاموا فيها النموذج الذي يُريدونه الطَبَّالون والسباكون ، كانوا الأمراء والمحافظين والوزراء ، جَلدوا الناس في الشوارع ، وفرضوا الإتاوات ، وسرقوا المحلات ، ونهبوا الأموال ، تزوجوا بلا أوراق ، وارتكبوا الرذائل ما ظهر منها وما بطن .

فهل يُعقل أن يَحكم مِصر مجموعة من الطبالين والسمكرية تحت شعار الجهل المدفوع والمركب ؟ يَرتكبون أفظع الجرائم وهم بذلك يُمهدون الطريق أمام الذين يُعلنون استنكارهم للقتل على استحياء ، ويُدلُون بالأحاديث إلى الصحف ، ويَحتلون المواقع في النقابات وفي غيرها .

لقد عَوَّدَنَا الإخوان دائماً أن تَكون لهم تنظيمات سرية يُنكرونها ثم يُعلنون عنها بعد سنوات ، إنه توزيعٌ مَرسومٌ للأدوار ، فِئة تَكسب على السطح بالاعتدال ، وفئة تَكسب تحت الأرض بالسلام .

وهكذا فالمتطرفون والأصوليون هم وحدهم فقهاء الإسلام ودارسوه والعالمون به ، وما عداهم زنديق كافر جاهل بأصل الدين .

الإخوان أرادوا الحكم حصراً فأزاحهم الشعب قسراً

بِغَضِّ النظر عن مسألة التوقيت ، كان ما حدث في مصر متوقعاً جداً ، ففشل الإخوان ثم هذا السقوط المريع كان لا بد له من أسباب ومُبررات ، فِقِيَادَةِ جماعة الإخوان المسلمين التي تَتَّسِم بِغَبَاءٍ سِياسي مُطلق ، ارتكبت أخطاءً فادحةً كثيرةً كان باستطاعة أي سياسي مُبتدأٍ أن يَتجنبها ، لعل أهمها:

- **لم يَستوعب الإخوانُ أن مَن يَحكم دولة بحجم مصر لا يَجوز أن يَتَّبِعَ دَولةً مِثل**

قطر: ظَهرت القيادة المصرية الإخوانية بِمظهر التابع والمنفذ لسياسات شبه جزيرة قطر

وأميرها الأُمّي ، مما أضر بصورة ومكانة مِصر كَأَكبر دَولة في المنطقة ، وربما لعب القرضاوي – بما له من نفوذ داخل الجماعة – دوراً في تجيير الموقف الإخواني المصري لصالح تنفيذ المشاريع القطرية في المنطقة ، بِحَيث كان واضحاً أن السياسة المصرية بَاتت تُردد بصورة بغبغائية مَواقف الخارجية القطرية بِخصوص مُجمل القضايا الإقليمية ، بَدءاً مِن القضية الفلسطينية ، ومروراً بالمسألة السورية . نَاهيك عن تَدخل قطر السياسي والمالي في الشأن المصري الداخلي ، فالتسهيلات غير العادية التي مُنحت للأموال القطرية في السوق المالية ، ومناقصات قناة السويس ، والتنقيب عن الغاز ، وغير ذلك من الاستثمارات الحيوية ، أثارت حَفِيظة مُعظم الكتاب والمثقفين والسياسيين المصريين ، حتى المحسوبين منهم تقليدياً على التيار الإسلامي . ولو ثبتت صحة السند المالي الذي وَجَدَهُ المتظاهرون المقتحمون لِلمقر العام للإخوان ، والذي يُشير إلى استلام قيادات إخوانية رفيعة مِنحاً مالية مُنتظمة من أمير قطر ، فإن ذلك سَيضيف بُعداً أخر للعلاقة الغير مُتوازنة بين الطرفين .

- **لم يَستوعب الإخوان أن تَمَلُّقهم وتقربهم من السلفيين أضر بصورتهم ، وأظهرهم وكأنهم يَنتمون لثقافة مغايرة ، فمصر ليست السعودية:** غلب على معظم قيادات الصف الأول الإخواني الانتماء للتوجه السلفي المعروف بتشدده ، وذلك بعد استطاعة التيار المتشدد بين الأعوام ٢٠٠٥–٢٠١٠ م إزاحة التيار الإخواني المعتدل والأقرب لنبض وثقافة الشارع المصري الوسطية ، هذا التشدد الديني والمظهري والسلوكي لم يَتقبله الشارع المصري بأريحية ، وكذلك ساهم وجود أصوات مُغالية في تشددها الديني ضمن الإخوان وحلفائهم السلفيين في تَخويف قُطاع عَريض مِن أبناء الشعب المصري ورَسم صُورة قَاتمة للمستقبل ، بحيث لم يَستطع هَؤلاء إِقناعَ الشباب المصري غَيرِ المتحزب أنهم سَيُحافظون على هامش الحريات الشخصية والسياسية الموجودة . طبعاً لاحظ أن المظهر الخارجي من ناحية سيكولوجية مُهم ، لأن السياسي عليه أن يُشبه في مَظهره الخارجي مُعظم أفراد شعبه ، لَذلك لم يَظهر أصحاب اللحى الطويلة والأثواب الخليجية القصيرة ، وكأنهم جزء

من المجتمع المحيط بهم ، مما ساهم في تكوين صورة نمطية عند رجل الشارع البَسيط ، أن الإخوان والسلفيين شيء والمصرين شيء آخر .

- **لم يستوعب الإخوان أن الرئاسة غير النقابات واتحادات الطلبة ، لذلك فنسبة ٥٠ % وكسور لا تؤهلهم للاستحواذ على السلطة كاملة:** بما أن الإخوان وجماهيرهم جَديدون على ممارسة اللعبة الديمقراطية ، فإنهم لم يَستوعبوا أن نسبة ٥٠ % وكسور التي حَصل عليها مُرسي لا تُؤهله للاستحواذ على كامل مَقاليد السلطة في البلاد ، لأن رئاسة الدولة تَختلف عن الفوز في اتحادات الطلبة والنقابات المهنية ، فرئيس الدولة يَجب أن يُراعي حَجم وثِقَلَ مُعارضيه في الشارع لذلك ، وحتى يضمن فترةً مُستقرةً لحكمه – إذا علم أن شَعبِيَّتَهُ في أحسن حالاتها لم تَتعد النصف – عليه أن يَظهر بمظهر الأب الراعي للجميع ، ويَضمن مُشاركة مُقنِعَة للأطياف الأخرى ، في المجتمع ، في إدارة شؤون البلاد ، في تقلد المناصب العامة .
- **الانبطاح للسياسة والأوامر الأمريكية ، والليونة الشديدة مع إسرائيل ، لا أقنعت أمريكا ولا استوعبها الشعب المصري ، وصورت الإخوان أمام الإدارة الأمريكية كأنهم مُنافقون يُظهرون غَير ما يُبطنون ، وأظهرتهم أمام الشعب وكأنهم كَذَبُوا على جماهيرهم التي عَوَّدُوهَا على خطاب مُعادَاة الغَرب:** لطالما شتم خُطباء الإخوان أمريكا وإسرائيل طَوَال العقود الماضية ، ولطالما وَعَدُوا الشعب بالرخاء والاستقلال والتحرر من التبعية بِمُجَرَّدِ أَن يَصل الإسلامُ إلى الحكم ، ولطالما هَتَفُوا للقدس وللمقاومة ، ولكن ما أن وَصلوا للسلطة حَتَّى سَارعوا بِسَحبِ السفير المصري من سوريا ، وَتَعينِ آخر على وجه السرعة في إسرائيل ، ثم تَطِيرُ رَسائلُ المودة والمحبة باسم الشعب المصري لِصديق الرئيس المخلص "بيرس" ولشعبه ، حَسب وَصف مُرسي نفسه ، كذلك وقع مرسي في فَخٍّ سَهلٍ لا يَقع فيه إلا السُّذَّجُ والمغفلون ، وضعه له أردوغان ، حيث أقنعه بممارسة نُفوذه على حركة حماس ، التي لا تَقِلُّ قِيادتها السياسية غَباءً وحُمقاً عن نَظيرتها المصرية ، لِتَدخل في التزامٍ مَضمونٍ بِضَمَانَةٍ مَصريةٍ تُركيةٍ لِوَقف الاعتداءات على إسرائيل ، ووقف أية أعمال

عُدوانية على الشريط الحدودي ، مُقابل لا شيء عملياً سوى وَقف الاجتياحات الإسرائيلية التي لم تَكن إسرائيل بِحَاجَةٍ لَها لَو يَكن هناك اعتداءات فلسطينية !. لم تفهم قيادة حماس الغبية طبيعة الفخ ، فأوقفت المقاومة وحولت كتائبها لحراس حدود على طول الشريط الحدودي لضمان عدم الاعتداء من الجانب الفلسطيني ، وفي المقابل لم يَجرؤ مُرسي – بِفِعل الضغوط الأمريكية – على رفع الحصار عن قطاع غزة ، بينما رجع أردوغان إلى دِيَاره تَتَمَلَّكُهُ السخرية من سَذاجة العرب .

وهناك الكثير من الأسباب تحتاج إلى كتاب لسردها ، لكن في الحقيقة يَبدو أن الله تَدخل بِلطفه لوقف هذه المهزلة في مصر ، لكي لا يَصل الأمر بالشعب المصري لأن يَخرجوا مِن دين الله أفواجاً لَو استمر حُكم الإسلاميين لهم بهذه الطريقة لفترة أطول .

الأخوان أرادوا الحكم حصراً فأزاحهم الشعب قسراً ، دَرسٌ يَجب علينا جميعاً أن نَتعلمه ، لأن الواقع على الأرض في كل الدول العربية يُشير إلى تَنوع ألوان الطيف بِوضوح ، لِذلك لن يَطغى لون على بقية الألوان إلا أن يَكون أحمراً فَاقعاً جِداً ، فالمطلوب الآن وجود سياسيين يُتقنون ممارسة الفن التشكيلي ليتمكنوا من التعامل مع كل هذه الألوان بطريقة منسقة .

وختاماً لا بد من القول

إن الإخوان في البدايات وحتى النهايات لم يستطيعوا أن يقدموا أنفسهم على أنهم دُعاة مَنهج إسلامي واضح ومعتدل ، بَل كانت هذه الجماعة لا مَبدأ لها ولا موقف ثابت ، مع كل وَضع تتلون ، ومع كل تَلوُّن تُؤكد أن ما تَقوله هو صحيح الإسلام ، وأن ما عداه ليس كذلك ، ثم يتغير الموقف فيتغير على يديها صحيح الإسلام .

وهذه الجماعة تُرَاكِمُ المواقف المتناقضة إلى جوار بعضها لِتَختارَ مَا تَجِدُهُ مُفيداً لَهَا ، مُعلنةً أن هَذا هو الإسلام ، وهذه الجماعة تَكذب وتتلون وتخادع ، فَدَعونا نُمسكها مِن رَقبتها ونسألها: إن كنتم تُرون أن مُرشدكم الأول قال صواباً ، فما هو وَصفكم لما تقولون الآن ؟ وإذا ادعيتم أن ظروفاً قَد تَغيرت ، فماذا تَغير حتى يَتغير موقف الإسلام من الحزبية ؟ وإذا تمسكتم بما تقولون الآن ، فَهل يُمكن أن تَنطِقُوا – ولو همساً – بكلمة نَقدٍ إلى إعمالكم الإرهابية وقياداتكم التكفيرية ، فهل يمكن ؟

ولنا قولٌ في الإسلام: الإسلام دين السماحة والسلام ، دين الحق والوضوح ، دين الاعتراف بالآخر ، دينٌ يَرفض الإرهاب والتطرف والعنف والتشدد والغلو ، دينٌ يَحترم إنسانية الإنسان ويحترم الآخر للمشترك الإنساني العام ، دينٌ يَرفض الإلغاء والإقصاء ، دينٌ قَائم على الفطرة والاعتدال . فهل في هذه المعاني السامية لِلإسلام وُجود أو حقيقة في فِكركم ؟

إِننا بعد الرؤية العملية لممارساتكم اليومية للإرهاب والتكفير ، نشك في ذلك ...

والحمد لله رب العالمين

المواطنة في الإسلام

مفهومها ومقوماتها

المحتوى

أولاً : المواطنة لغة

ثانياً: المعنى الاصطلاحي للمواطنة

ثالثاً : مقومات المواطنة

رابعاً : المواطنة في التراث الإسلامي

خامساً : المواطنة في الفكر الإسلامي المعاصر

أولاً: المواطنة لغةً:

قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: الواو والطاء والنون كلمة صحيحة ، فالوطن محل الإنسان ، وأوطان الغنم مرابضها ، وأوطَنتُ الأرضَ اتخذتها وطناً"[١] .

وقال الجوهري في الصحاح "تاج اللغة وصحاح العربية": "الوطن محل الإنسان ، وأوطنتُ الأرضَ ووَطَّنتُهَا تَوطيناً واستوطنتها ، أي اتخذتها وطناً ، وكذلك الاتّطان هو افتعال منه"[٢] .

فالوطن عند الجوهري محل الانسان ، أي المكان الذي اتخذه مقاماً وسكناً ، مع غض النظر عن صلته به ، ويشهد له قول رؤبة: أوطَنتُ وَطنَاً لم يَكن مِن وَطَني .

وقال ابن منظور في لسان العرب: "الوطن: المنزل تقيم به ، وهو موطن الإنسان ومحله"[٣] .

وذكر قول ابن بري: أن الذي في شعر رؤبة:

كيما ترى أهل العراق أنني أوطنت أرضاً لم تكن من وطني

والجمع: أوطان .

ومواطن مكة: مواقفها ، وهو من ذلك .

وطن بالمقام وأَوطَنَ: أقام ، وأَوطَنَهُ: اتخذه وطناً ، يُقال: أوطن فلان أرضَ كذا وكذا ، أي اتخذها محلاً ومسكناً يُقيم فيها ، فالوطن عند ابن منظور ما يُتخذ محلاً للسكن والإقامة .

وبالتالي فإنَّ المواطنة مُفاعلة مِن أَوطن ، وهي مَا يَكون بين اثنين فَأكثر من اتخاذ مَكان وَطناً أي مسكناً ومحلاً للإقامة .

وبالتالي فإن للمواطنة لغةً ثلاثة مقومات هي:

١- الأرض .

٢- مجموعة من الأشخاص يسكنون بها .

٣- أن يكون الرابط المأخوذ بالاعتبار بينهم هو السكن لا غيره .

---

(١) أحمد بن فارس ، "معجم مقاييس اللغة" ، ج٦ ، ص١٢٠ .

(٢) إسماعيل بن حماد الجوهري ، "الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية" ، ج٦ ، ص ٢٢١٤ – ٢٢١٥ .

(٣) مُحَمَّد بن مكرم "ابن منظور" ، "لسان العرب" ، ج١٣ ، ص ٤٥١ .

وإذا كانت المواطنة مُشتقة من أوطن وطناً وهي مفاعلة منه كما ظهر من البحث اللغوي ، فإن الموطن في علم البيئة هو الوسط الذي تحتله الجماعة الإنسانية والذي عليه حَياتها ، والموطن يعني الساحة المسكونة ، ولذلك يمكن لكلمة الموطن أن تَعني طريقة السكن ، أو طريقة احتلال الموقع الخاص وأنماط النشاط التي تعود إليه[١] .

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن المواطن هو الذي ينشأ مع أعضاء الجماعة الإنسانية في وطن واحد ، ويقيم معهم داخل حدود معينة[٢] ، وهذا يُساوق ما ذكرناه من المعنى اللغوي ومقوماته من أن الوطن والموطن هو المكان مع غض النظر عن أي شيء آخر ، والمواطنة هي المشاركة في العيش والإقامة في ذلك المكان ، دون أن يتضمن ذلك أي إشارة إلى أي علاقة سياسية أو قانونية بين ذلك الفرد والمكان والجماعة ، ولعل هذا يرجع إلى حاق اللفظ[٣] ، باعتبار أن الألفاظ تُوضع للدلالة على معانٍ مُعينة تُريد أن تشير إليها المجتمعات البشرية كلٌّ بحسب حياته وما يدور فيها من اعتبارات وأنشطة ، ولما كان المجتمع العربي في عهوده القديمة لم يَعرف الدولة بمفهومها السياسي والقانوني إلا بشكل محدود ، وكان السائد فيه حياة القبيلة القائمة على التنقل والترحال في الأعم الأغلب ، لم يكن الوطن يعني بالنسبة إليه أكثر من المكان ، والمواطنة تعني المشاركة فيه .

ويمكن الإشكال على ما تقدم بإشكالين:

الأول: إنه من غير الصحيح أن نوازن بين هذه اللفظة الموضوعة لذلك في اللغة العربية في الماضي البعيد ، وبين المفهوم الاجتماعي والسياسي للعلاقة بين الفرد والدولة ، أو بين مجموعة الأفراد الذين يتشاركون العيش فيها ، لأن هذه المرحلة مرحلة لاحقة لذلك الوضع اللغوي ، وبالتالي لا نَستطيع أن نُناقش هذا المفهوم ، وأن نتحدث فيه سعةً وضيقاً بحسب تطور استعمالات الألفاظ

---

(١) سامي ذبيان وآخرون ، "قاموس المصطلحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية" ، دار رياض ، الريس للكتب والنشر ، لندن ، ١٩٩٠م ، ص٤٣٣ .

(٢) هديل مصطفى الخولي ، "التعليم وتغير مفهوم المواطنة في المجتمع المصري" ، أطروحة دكتوراه في كلية الشريعة في جامعة حلوان ، عام ٢٠٠٩م ، ص٢١ ، نقلاً عن: سعيد إسماعيل علي ، "المواطنة في الإسلام" ، ط١ ، دار السلام للنشر ، القاهرة – الإسكندرية ، ٢٠١١م ، ص ١٣ .

(٣) حاق اللفظ: أصله وجذره .

في اللغة ، لأن هذا سيُبقي المعنى الذي استعمل فيه اللفظ ، ومن ثم انتقل إليه[1] حَبيساً ضمن الساحة التي رسمها المستعمل ، وهذا يُحوِّل القضية إلى سجال لفظي لا طائل من ورائه سوى إلقاء اللوم على الواضع الأول واتهامه بضيق نظره ، أو على المستعمل الذي أدت كثرة استعماله إلى النقل ، أو على انتهازية المولِّد المستجدِّ الذي يُريد أن يُضفي على نفسه مَسحة من التطور والمواكبة للفكر الحديث ، وما يدور في ساحته من مفاهيم ليدفع عن نفسه تهمة التخلف والجمود ، فيحاول أن يَجر اللفظ للدلالة على مَفهوم جَديد لم يَأخذه الواضع أو الناقل بالاعتبار .

والجدير بالباحث الموضوعي أن ينطلق إلى المفهوم الاجتماعي والقانوني الذي يُريد أن يُعبِّر عنه ويبحث في مقوماته ، ثم يُسميه بما يعبر عنه على سبيل الاصطلاح دون التقيد التام بأبعاد المعنى اللغوي ومقوماته ، ثم يَبحث عن وجوده في مفردات الحياة الاجتماعية والقانونية في البيئة التي يَعيش فيها ، أو عن مدى مناسبته للمبتنيات القبلية السائدة فيها ، لابتناء المفاهيم المقبولة عرفاً على تلك المبتنيات التي تُمثل منطلقاً قبلياً يتحكم بتصورات الإنسان وبطبيعة قراراته ، وهذا ما يظهره البحث في مفردات المواطنة والحرية وحقوق الإنسان والديموقراطية ... إلخ ، بما هي هي ، مع غض النظر عن أي شيء آخر ، وعندما نُريد أن نَبحثها في إطار إيديولوجي ديني أو علماني كالرأسمالية والاشتراكية ، فإن الإيديولوجيا سوف تصبغ البحث وتؤدلجه بلونها لا محالة ، قليلاً كان ذلك أم كثيراً .

الثاني: إن صيغة "مفاعلة" تعني الاشتراك بين اثنين أو أكثر في أمر ما ، والأصل في الاشتراك أن يكون على نحو المساواة العرفية في الحقوق والواجبات بحسب طبيعة الشيء المتشارك فيه ، ولا يلزم على هذا الإشارة الصريحة من واضع اللفظ إلى الحقوق السياسية والاجتماعية التي تتضمنها الكلمة ، بل إن عملية الوضع تعني إيجاد تعبير لفظي عن صورة المعنى المتخيل بكل ما فيه من قيود وشروط ، ومن الطبيعي أن تكون القيود والشروط المتصورة في ذهن الواضع وليدة الظروف الموضوعية الزمانية والمكانية التي كان يعيشها ، فليس من الضروري أن يكون متصوراً لأشكال

---

(١) وضع اللفظ لمعناه يتم على نحوين: بعمل الواضع الذي يتصور معنى ما ويضع اللفظ بإزائه ، وبتكثر استعمال اللفظ في معنى جديد ينتقل بعدها اللفظ للدلالة عليه وتهجر دلالته على المعنى الأول وهو المنقول ، أو تبقى كلتا الدلالتين فيصبح اللفظ مشتركاً يدل على كليهما وهو المشترك اللفظي .

الحكم الحديثة ، وعارفاً بشرعة حقوق الإنسان ؛ لأن أنماط الحكم الحديثة وشرعة حقوق الإنسان إنما أوجدها الذهن البشري رداً على الانحراف التطبيقي وأشكال الظلم الذي لحق بالإنسان ، فصار من الضروري النص على المساواة والحرية والعدالة وتبني الديموقراطية وما شابه ، ولكن هذا كله لا يَخرج عما هو مأخوذ في أصل المشاركة ، وما يتضمنه معناها من العدالة والمساواة العُرفيين ، فنحن في المواطنة أمام أصل له تطبيقاته المختلفة بحسب الزمان والمكان ، وجميعها ترجع إليه .

وإذا أضفنا إلى ما سبق بعض المقولات التراثية التي هي جُزء من أدبياتنا الدينية ، كالحديث المروي عن رسول الله ﷺ: (المسلمون شركاء في ثلاث الماء والكلأ والنار)[١] ، وقوله ﷺ: (الناس سواء كأسنان المشط ، وإنما يتفاضلون في العبادة)[٢] ، وقوله ﷺ: (كلكم بنو آدم ، وآدم من تراب)[٣] ، وهي تُشير إلى المساواة في القيمة المعنوية للإنسان وإلى المشاركة في الموارد الأصلية وغير ذلك ، وقوله ﷺ: (لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر ، إلا بالتقوى)[٤] ، وإلى قوله الإمام علي رضي الله عنه: (لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً)[٥] ، الذي يُشير إلى أن الحرية حق طبيعي للإنسان ، وغيرها من الأقوال ، أمكننا أن نستخلص من المجموع ما يشبه المعنى الاصطلاحي الحديث للمواطنة بأوسع تصوراته .

فمن العجيب ما فَعله بعضهم[٦] من اتهام المعنى اللغوي للفظ "الوطن" في اللغة العربية – وهو المنزل تقيم به – بأنه السبب وراء عدم استعمال لفظة "المواطن" بالمعنى العميق لها ، كما هي في

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، باب في منع الماء ، برقم: (٣٤٧٧) .

(٢) أخرجه ابن عساكر في كنز العمال برقم: (٢٤٨٢٢) .

(٣) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ، والبزار في مسنده ، برقم: (٢٩٣٨) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ، برقم: (٢٣٤٨٩) .

(٥) الإمام علي بن أبي طالب ، "نهج البلاغة" ، شرح مُحَمَّد عبده ، ج٣ ، ومن وصية له لولده الحسن ، وقد جمع ... ، ص٥١ .

(٦) هيثم مناع ، "المواطنة في التاريخ العربي الإسلامي" ، ط١ ، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان ، ١٩٩٧م ، ص٥-٦ ، حيث ذكر أن الدخول السهل للفظة المواطنة في اللغة العربية قد قلل من استعمالها بالمعنى العميق لها ، وقال: "إن أول رجاء هو أن نضع جانباً المعنى اللغوي العربي التقليدي ، لأن أولى الإشكاليات تكمن في الأصل اللغوي للكلمة ، فالمواطنة والموطن في العربية من الوطن: المنزل تقيم به وهو موطن الإنسان ومحله" ، واعتبر أن هذا الأمر غَيب عن الواقع ، وأبعد عن الذهن ضرورة الحديث في مفهوم المواطنة وأهميته في بناء وَعي حضاري إنساني جديد يسهم في تجاوز المجتمع العضوي إلى المجتمع المدني والحق المطلق إلى حقوق الإنسان ، وقال: "وغالباً ما انحسر معناها في ذهن القائل والسامع بأبناء هذا الوطن أتباع لقادة أو رعايا لسلطان أو ..." .

المصطلحات السياسية والحقوقية الحديثة ، لأن كل ما هو مَلحوظ في المعنى الاصطلاحي للفظة ومصرح به في شرحها سياسياً وحقوقياً إنما هو قيود احترافية في قبال الظلم مختلف الألوان الذي لحق بالناس عبر التاريخ ،كما هو قيود توضيحية من باب شرح الاسم ، أي بيان مفهوم المواطنة بعد كل الذي أصابه من التشويه بفعل الممارسات الإنسانية الخاطئة ، والابتعاد الذي أصابه عن العدل والمساواة في الحقوق والواجبات ، مع أنهما ملحوظان فيه بمقتضى أصل المفاعلة والمشاركة ، ومن المعلوم أن بيان المطالب الإضافية بالنسبة إلى أي شيء إنما يكون وليد الحاجة إلى ذلك البيان بعد الغفلة أو التغافل عن بعض مستلزمات القضية الأصلية ، وبالتالي فإن الانتقال من التلويح والمعنى الضمني إلى التصريح في بيان مقومات المواطنة وشرح مصطلحاتها إنما جاء بعد الانحراف في تطبيقها ، ومن الْمُقَرِّ به عرفاً أن القيود والشروط الضمنية المعتبرة في شيء لا تختلف من جهة قيمتها الحقوقية عن القيود والشروط المصرح بها .

وبالتالي تَكون البداية الفِطرية للحياة وما استعمل للتعبير عَنها هي الغاية النهائية الأسمى التي يريد أن يصل إليها الباحثون[1] في العصر الحاضر بعد كل تلك التعقيدات اللفظية والعُقد النفسية من الدين والحضارة ، ومما يدور من حولهم ومن كثرة القيل والقال .

وبعد هذه المناقشات في المدلول اللغوي لكلمة "مواطنة" لا بد لنا مِن مُقاربة مُختصرة لمفهومها كمصطلح اجتماعي وحقوقي في العصر الحديث وتحديد مقوماته ، تاركاً البحث المفصل إلى دراسة لاحقة إن شاء الله ، ولا بد كذلك من الإشارة إلى مدى موافقته للإسلام ، وبيان ما يقدمه من حلول لمشكلات التنوع المذهبي في عالمنا الإسلامي ، ومشكلات الإثنيات الدينية والعرقية .

ثانياً: المعنى الاصطلاحي للمواطنة:

(١) وهي الدعوى إلى الانتقال إلى المواطنة الحقيقية التامة ، إلى عصر حقوق الإنسان ، عندما يصبح كل شخص مواطناً أينما حل وأقام . المصدر نفسه: ص ٧١ .

عَرَّفَت دائرة المعارف البريطانية "encyclopedia Britannica": المواطنة بأنها: "علاقة بين فرد ودولة كما يحددها قانون تلك الدولة ، وبما تتضمنه تلك العلاقة من واجبات وحقوق في تلك الدولة" ، وتؤكد كذلك على أن المواطنة تدل ضِمناً على مرتبة من الحرية مع ما يُصاحبها من مسؤوليات .

وتُعَرِّفُهَا موسوعة كولير "Collier,s Encyclopedia" الأمريكية ، كلمة "citizenship" ويقصد بها مصطلح المواطنة ومصطلح الجنسية دون تمييز بأنها: "أكثر أشكال العضوية في جماعة سياسية اكتمالاً"(١) .

وتطرح دراسة حديثة المواطنة على أنها تجسيد لنوع من الشعب يتكون من مواطنين يَحترم كل فرد منهم الفرد الآخر ، ويتحلون بالتسامح تجاه التنوع الذي يَزخر به المجتمع ، وأن يُعامل القانون على قدم المساواة كل الذين يعتبرون بحكم الواقع أعضاء في المجتمع ، بصرف النظر عن وجوه التنوع العرقية والدينية والثقافية التي ينتسبون إليها(٢) .

وما يهمنا من الحديث عن مفهوم المواطنة ومقوماتها ليس عرض تعريفاتها المختلفة والتدقيق في وجوه الفرق بينها ، فهذا شأن البحوث الخاصة بهذه المسألة ، وإنما غرضنا بيان المفهوم العام لها ، وإثبات أنها هي الحل لمسألة الأقليات ، لذا فإن ما ننشده من المواطنة هو ذلك القدر من الحرية والاحترام الذي يَرفع الإكراه واضطهاد عن جميع أطياف المجتمع في دولة ما ، ويمنحهم حرية ممارسة شعائرهم والتعبير عن آرائهم .

وإن كان لنا أن ننتقد الدراسة السابقة إذ جعلت الحديث عن المواطنة يتجه الى حل مشكلات الفرد ونيله لحقوقه ورفع الظلم عنه ، فمثلت بذلك حلاً لمشكلاته ، ولكنها لم تتجاوز حدود الفرد لتبلغ حدود الأمم والمجتمعات ، حيث قد تكره الأمم والشعوب والكيانات السياسية على اتخاذ الموقف الذي لا تريده بداعي الإكراه أو الاضطرار ، وحصرت المواطنة بين أبناء الشعب

---

(١) علي خليفة الكواري ، "المواطنة والديموقراطية في البلدان العربية" ، ط ١ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت لبنان ، ٢٠٠١م ، ص ٣١ ، نقلاً عن الدجاني أحمد صدقي "مسلمون ومسيحيون في الحضارة العربية" ، مركز يافا للدراسات والأبحاث ، القاهرة ، ١٩٩٩م ، ص ٩٦ .

(٢) انظر: "المواطنة والديموقراطية في البلدان العربية" المصدر نفسه ، ص ٣١ .

الواحد ، ولم تُعالج طغيان شعب على بقية الشعوب في هذا العالم ، كما يحصل الآن في الكثير من المؤسسات الدولية ، أو في بعض الإجراءات الاقتصادية ، أو بغض النظر عن إساءات البعض لعدم القدرة على مواجهته ، أو عن الاكتفاء بدورٍ ذيلي بعيد عن الحق والموضوعية في بعض القضايا السياسية ، وتاريخُ القضية الفلسطينية والعلاقات السياسية والاقتصادية بين بعض دول الشرق الأوسط والدول الكبرى زاخرٌ بمثل هذه التصرفات .

وإذا كانت المواطنة تتضمن المساواة والحرية والعدالة بين المنتسبين إلى وطن واحد ، فإن هذه المبادئ لا تكتمل إلا إذا اتسعت المواطنة لتأخذ بُعدها الأممي ، وتجعل المواطنة مَبدأً يَضم بين جناحيه جميع البشر على هذه الأرض ، فالمواطن هو الإنسان ، والوطن هو الكرة الأرضية جمعاء.

ثالثاً: مقومات المواطنة:

وسنكتفي بعرض تلك المقومات بحسب الدراسة التي قدمها "داون أوليفر" و "ديريك هيتر"[١] ، حيث نصت الدراسة على المقومات الآتية:

١- تواجد مجموعة بشرية في مكان .

٢- قيام العلاقة الإنسانية بينهم على أساس الاحترام والتسامح تجاه التنوع بكل أشكاله .

٣- أن ينظر القانون إلى الجميع ، ويعاملهم على أساس المساواة مع غض النظر عن العرقية أو الطبقة الاجتماعية أو الاقتصادية أو الجنس أو الثقافة أو أي وجه من وجوه التنوع .

٤- يتكفل القانون بحماية كرامة واحترام الإنسان واستقلاليته وسائر حقوقه ، وأن يقدم الضمانات الكافية لذلك ، وبالخصوص حقوقه المدنية والسياسية .

٥- يضمن القانون قيام الشروط الاجتماعية والاقتصادية لتحقيق العدل والإنصاف .

٦- يتكفل القانون بتمكين الأفراد من المشاركة الفعّالة في اتخاذ جميع القرارات المؤثرة في حياتهم .

---

(١) علي خليفة الكواري ، "المواطنة والديموقراطية في البلدان العربية" ، مصدر سابق ، ص٣١ ، نقلاً عن:
Dawn Oliver and Derek Heater The Foundations of citizenship , New York : Harveter wheat sheef 1994 ,p .209-210

فالاحترام المتبادل هو جوهر القضية والهدف المنشود ، والعدالة ، والحرية ، والكرامة ، والمساواة ، هي من نتائجه ، ولا يقوم الاحترام في النفس الإنسانية ويستقر مع وجود ما يُزري على الطرف الآخر ، فلا بد من أن تكون محترماً حتى تواجه بالاحترام[١] .

وهذا يعني أن كافة التصرفات وأشكال السلوك التي تُزعج الآخرين وتُسيء إلى مقدساتهم هي عمل خاطئ ضار يَرفع الاحترام بين الناس ، وهو من العمل الحرام ، وقد أمرنا تعالى أن ندعو إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة فقال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٢] ، وقال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[٣] .

وفي الحقيقة إن النهي المذكور – أي النهي عن سب آلهة الذين كفروا – غير مرتبط فقط بسب الكافرين بالله عدواً بغير علم ، وإنما هو في حقيقته نهي عن ذات السب ؛ لما يُوجده من حواجز في العلاقات الإنسانية ، ولما يُولده من عداوة بين البشر ، ولما يُصيب به الدعوة إلى الحق من حَرفٍ لها عن مقاصدها ، ولما يُدخل فيه الناس من عِنادٍ سَخيف قائم على تبادل الشتائم وتطاول على المقدسات .

إن الاكتفاء بذكر ما يمكن أن يسببه سب آلهة الذين كفروا من عدوان على الذات الإلهية دون ذكر غيره من النتائج إنما هو لِضآلةِ أي أمر آخر أمام العظمة الإلهية ، ولوجودِ مَا يَدُلُّ على تلك النتائج بالملازمة ، وبما تحصل به الغاية من الآيات الأخرى الدالة على الطريقة المثلى في الدعوة إلى الله[٤] ، والآمرة بحسن الخلق مع الناس[٥] ، فإن الداعية الحقيقي هو من يَفتح قلبه للآخر ، ليفتح الآخر له عقله ، وسيدنا رسول الله ﷺ هو خير داع إلى الله عز وجل ، وكان يُجَادل الكفار

---

(١) ذكر لي المرحوم الأستاذ الدكتور مصطفى الخن في منزله كلاماً يتعلق بالسيد محسن الأمين العاملي فقال: أنا لم أدركه ، ولكنني سمعت من أساتذتي أنه كان يحترمهم ويحترمونه .

(٢) سورة النحل: الآية ١٢٥.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٠٨.

(٤) كقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ سورة النحل: الآية ١٢٥ .

(٥) كقوله تعالى في حق رسوله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيم﴾ سورة القلم: الآية ٤ ، ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسنَاً﴾ سورة البقرة: الآية ٨٣ ، وكقول: (لا تسبوا الناس فتكسبوا العداوة بينهم) مُحَمَّد باقر المجلسي بحار الأنوار ، مصدر سابق ، ج ٧٥، ص ١٦٣ ، وكما روي عن الإمام الكاظم ﷺ: "ما تساب اثنان إلا انحط الأعلى إلى مرتبة الأسفل" المصدر نفسه ، ج ٧٨ ، ص ٣٣٣ .

والمشركين ويقول لهم: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (١) ، فيجعل نفسه مطالباً مثلهم بالبحث عن الحقيقة وهو يعلم علم اليقين أنه هو الحق وما يقول .

ولا بد بعد هذا البيان من التوجه إلى أبناء الأمة الإسلامية بجميع مذاهبهم وفرقهم ، وبيان أن إساءة بعضهم إلى مقدسات بعض ، وإلى بعض مسائله العقدية ، والإزراء عليه ببعض فروعه الفقهية ، هو عمل حرام حرام إلى أن ينقطع النفس ، وأن الفاعل له مُفَرِّقٌ لجماعة المسلمين ، ومعين للكافرين ، يجب على الأمة ردعه وأن تبين له عاقبة عمله وسوء اختباره ، ولأن المخالف لغيره ببعض الفُروع العقدية والفقهية قد وصل إلى ما وصل إليه مِن خلال ما استظهره من الكتاب الكريم ، وما صح عنده من السنة الشريفة ، وما قام عليه عنده من الإجماع ، أي قد وصل إلى ما وصل إليه عن طريق ما هو حجة عنده ، أو لا أقل من وجود شبهة في أن حاله كذلك ، فهو غير مشمول بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُون﴾(٢) ، كما لا بد من أن نلاحظ أن غير أصحاب الاختصاص من عامة الناس ، فضلاً عن الكثير من الباحثين والعلماء ، لا يستطيعون أن يُميزوا في موارد الخلاف القول الصواب من القول الخاطئ ؛ نظراً إلى تعارض روايات الفرقاء وتباين التوثيقات ، واختلاف الاستظهارات من الكتاب والسنة ، وكثرة القيل والقال ، وتطاول الزمان ، خصوصاً مع تسليط سيف الخروج عن الجماعة على الرقاب ، ودخول الأمة بقضها وقضيضها لتصبح عبد المكتوب ، فيتحكم كلام السابق في استنباط اللاحق ، ويمثل ذلك لكل فرقة مبتنياً قبلياً يتدخل في الاستدلال ، وتستظهر على أساسه مَضامين آيات الكتاب ، ويحتاج التخلص من ذلك إلى التعمق في العلوم الدينية ومراعاة الباحث للدقة والموضوعية ، ودون ذلك عقبات وعقبات بحاجة إلى رعاية الله وتوفيقه .

كما أن علينا أن نَغُضَّ الطرف عن مسلك السلف في مصنفاتهم وكتبهم ، وأن لا نَتبنَّى كل ما قالوه ، فكم من كلمة جارحة مُفَرِّقَة للأمة سَقطت من أقلامهم ، وكم مِن هَفوة نسبوا فيها ما

---

(٣) سورة سبأ: الآية ٢٤ .

(٤) سورة البقرة: الآية ١٥٩.

بجانب الحق إلى الآخرين ، ولن نُسأل عن ذلك ما دُمنا لا نتبناه ، فـ ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُون﴾[1] .

ومما يساعد على حل الكثير من المشكلات ويقي من الوقوع في السقطات ، أن يقرأ بعضُنا بعضَنا في مصادره الأساسية ، ويتعرف على مباني مسائله العقدية وفروعه الفقهية ، فالناس أعداء ما جهلوا .

رابعاً: المواطنة في التراث الإسلامي:

لا بد لنا عند البحث عن المواطنة في التراث الإسلامي من أن نأخذ بالاعتبار أنه يَنبغي أن نتجه نحو وجود المضمون الإجمالي للمواطنة ، لا نَحو وجود لفظها ومشتقاته ، وذلك لسببين:

الأول: إن لفظ "المواطنة" أو أحد مشتقاته على فرض وجوده في التراث الإسلامي ، فإنه سيكون مستعملاً في معناه اللغوي – المنزل تقيم به – ؛ لسبق زمن صدور النصوص التراثية على زمن الاصطلاح ، ولذلك لن نستطيع استنتاج المعنى الاصطلاحي للمواطنة في التراث الإسلامي اعتماداً على استعمال لفظها في ذلك التراث ، لأنه سيكون استعمالاً في المعنى اللغوي لِلّفظ . نعم ، يُمكننا أن نتعرف على جهة الارتباط بين المعنيين التي دعت أصحاب الاختصاص لاختيار لفظ المواطنة بدلالته اللغوية لإطلاقه على المعنى الاصطلاحي – المفهوم السياسي أو الحقوقي – الذي أرادوا التعبير عنه ، والذي تشكل المساكنة في مكان واحد أحد عناصره .

الثاني: إن المفهوم السياسي والحقوقي للمواطنة يختلف بحثاً وتطبيقاً بين باحث وآخر ودولة وأخرى ، حيث دمجه بعض الباحثين وبعض الدول بالجنسية فصار عندهما شيئاً واحداً[2] ، وفصل بينهما آخرون فاعتبروا المواطن هو المقيم في بلد مع أدائه بعض الضرائب المالية لصالح خزينة ذلك البلد ، وجعلوا له حقوقاً جزئية تتعلق بإدارة الخدمات العامة وبعض الشؤون المعيشية

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٣٤ .

(١) ذكرت دائرة المعارف البريطانية أن المواطنة علاقة بين فرد ودولة كما يحددها قانون تلك الدولة ، وبما تتضمنه تلك العلاقة من واجبات وحقوق في تلك الدولة ENCYclopedia Britannica : Imc Ibid vol3 P331 . وتعرف موسوعة كولير Colliers Encyclopedia الأمريكية كلمة citizenship وتقصد بها مصطلح المواطنة ومصطلح الجنسية دون تمييز: بأنها أكثر أشكال العضوية في جماعة سياسية اكتمالاً . (المواطنة والديمقراطية في البلدان العربية ، مصدر سابق ، ص٣١ ، نقلاً عن أحمد صدقي الدجاني ، مسلمون ومسيحيون في الحضارة العربية ، مصدر سابق ، ص ٩٦) .

[1] ، ونادى بعض المواطنين بالمواطنة العالمية لتكون الكرة الأرضية وطناً واحداً والمواطن هو الإنسان [2] ، كما اختلف موقف الباحثين من أخذ بعض القيم المعنوية أو الأخلاقية في المواطنة فأصر بعضهم على ضرورة وجودها ، وأعرض عنها آخرون [3].

ونكتفي في هذا البحث بعرض نصوص من التراث الإسلامي تدل بمضمونها على العيش المشترك القائم على الحرية والعدل والكرامة ، وعلى القيم الذي يؤسس عليها .

النصوص القرآنية:

١- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٤] .

يخاطب الله تعالى البشر جميعاً بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاس﴾ ، ويقرر على أسماعهم أنه لا تمايز في الخلق بينهم ، لأنه تعالى هو الذي خلقهم ، وأن الذكر والأنثى فردان للإنسان ، لا تَفاوت في المكانة بينهما ، لاستوائهما في الطبيعة الإنسانية ، وهو ما يشير إليه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾[٥] ، حيث بيّن أن الزوج والزوجة نفس إنسانية واحدة ، وإن كان ثمة اختلاف فهو في بعض الشؤون مما يتبع فيزيولوجياً الخلقة الإنسانية ، وضرورة رعايتها في تقسيم المهمات والأدوار ، وهو ما يظهر من قوله رسول الله ﷺ عندما جاؤوا يسألونه عن جهاد المرأة فقال: (جئتم تسألوني عن جهاد المرأة ؟ جهاد المرأة حسن التبعُّل)[٦] ، فجعل صيانة بيتها

---

(٢) (مُحَمَّد قباطي ، المواطنة والديمقراطية في البلدان العربية ، ط١ ، مركز دراسات الوحجة العربية ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠١م ، ص ٥٢-٥٣) .

(٣) (هيثم مناع ، المواطنة في التاريخ العربي الإسلامي ، مصدر سابق ، ص٧١) .

(٤) حيث يعتبر تالكوت بارسونز (talcott parsons 1902-1979) أحد أبرز علماء الاجتماع المعاصرين في الولايات المتحدة الأمريكية: أن المجتمع بالضرورة هو نظام أخلاقي مستند إلى الدين . (مُحَمَّد قباطي ، المواطنة والديمقراطية في البلدان العربية ، مصدر سابق ، ص ٦٦-٦٩) .

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣ .

(٢) سورة الروم: الآية ٢١ .

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان .

ورعاية أسرتها بمنزلة الجهاد ، ولها عليه أجر المجاهدين ، لما للتربية الصالحة والعناية بالولد من أثر في تنشئة الإنسان وإعداد المجاهدين[١] .

ويجعل الله تعالى بقوله: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ التمايز باللون واللغة والعرق قيمة إنسانية وحياتية هامة تلبي حاجة التعارف بين الناس بواسطة أشكالهم وألسنتهم ، فإن الشكل واللسان واللون في الإسلام أمر لا قيمة له في حد ذاته ، إنما المهم أن يكون الإنسان تقياً نقياً ، لذا ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُم﴾ [٢] ، وقد اشتهر القول عن رسول الله ﷺ: (لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر ، إلا بالتقوى)[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيم﴾[٤] .

أسباب النزول:

قال ابن جرير الطبري في "جامع البيان" بعد ذكر الآية: "اختلف أهل التأويل في معنى ذلك ، فقال بعضهم: نزلت هذه الآية في قوم من الأنصار ، أو في رجل منهم كان لهم أولاد قد هوّدوهم أو نصّروهم ، فلما جاء الله بالإسلام أرادوا إكراههم عليه ، فنهاهم الله عن ذلك ، حتى يكونوا هم يَختارون الدخول في الإسلام ، ذَكر من قال ذلك: حدثنا مُحَمَّد بن بشار ، قال: ثنا ابن أبي عدي ، عن شعبة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال: كانت المرأة تكون مقلاتاً ، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تُهوّده ، فلما أُجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار ، فقالوا: لا ندع أبناءنا ! فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ .

---

(٤) إذ من الأهمية بمكان أن نميز بين لفظي المجاهد والمحارب ، فالمجاهد هو الذي يجاهد الباطل ويقف في وجه الظلم والانحراف ، كما يقف في وجه الأهواء والنزوات ، لا يحيد عن الإنسانية والاستقامة ، ويسعى لتخليص الآخرين مما يُحيط بهم من سوء ، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ سورة النساء: الآية ٧٥ ، فالجهاد في الإسلام لنصرة المستضعفين والمظلومين ، وكذلك قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِير﴾ سورة الحج: الآية ٣٩ ، فالجهاد في رفع الإسلام لرفع الظلم والطغيان ، وليس فيه عدوان على الآخرين .

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣ .

(١) أخرجه أحمد في مسنده برقم: (٢٣٤٨٩) .

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٦ .

حدثنا ابن حميد ، قال: ثنا سلمة ، عن أبي إسحاق ، عن مُحَمَّد بن أبي مُحَمَّد الحرشي مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ قال: نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصين ، كان له ابنان نصرانيان ، وكان هو رجلاً مسلماً ، فقال للنبي ﷺ : ألا أستكرههما ، فإنهما قد أبيا إلا النصرانية ؟ فأنزل الله فيه ذلك . حدّثني المثنى قال: ثنا الحجاج بن المنهال ، قال: ثنا أبو عوانة ، عن أبي بشر ، قال: سألت سعيد بن جبير عن قوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ ، قال: نزلت هذه في الأنصار ، قال: قلت خاصة ؟ ، قال: خاصة ، قال: كانت المرأة في الجاهلية تنذر إن ولدت ولداً أن تجعله في اليهود تلتمس بذلك طول بقائه ، قال: فجاء الإسلام وفيهم منهم ، فلما أُجليت النضير ، قالوا: يا رسول الله ، أبناؤنا وإخواننا فيهم ، قال: فسكت عنهم رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ ، قال: فقال رسول الله ﷺ: (قد خير أصحابكم ، فإن اختاروكم فهم منكم ، وإن اختاروهم فهم منهم ، قال: فأجلوهم معهم)[1] . وعلى ما روي عن ابن عباس أو ما روي عن ابن جبير ، أو كليهما معاً اعتمد من أتى بعدهما من المفسرين مثل الواحدي النيسابوري في أسباب نزول الآيات ، وابن عطية الأندلسي في المحرر الوجيز ، وابن أبي حاتم الرازي في تفسيره ، وابن تيمية في دقائق التفسير ، وغيرهم .

معنى الآية: تدل الآية المباركة على أنه لا إكراه في الدين ، لأن أساسه هو عقد القلب ، وهو لا يتم مع الإكراه ، فحقيقة الدين تأبى الإكراه ، خصوصاً وأن الرشد أمر بَيّن ، والغيّ أمر بَيّن ، وسيتحمل كل إنسان نتيجة ما يتبناه منهما ، لذا قال عز من قائل: ﴿فَمَن يَكفُر بِالطَّاغُوت﴾ وهو مِن طغى بمعنى تجاوز القدر ، والطاغوت رأس كل ضلال[2] ، ولا بد للإنسان من أن يكفر به وينكره ، وهذه كلها من المقولات النفسانية التي لا تتم مع الإكراه ، بل لا بُدَّ فيها من اتخاذ

---

(١) مُحَمَّد بن جرير الطبري ، جامع البيان ، تقديم: خليل الميس ، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطار ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م ، ج٣ ، ص٢٠ وما بعدها ؛ ابن أبي حاتم الرازي ، تفسير ابن أبي حاتم ، ج٢ ، ص٤٩٣ ؛ الواحدي النيسابوري ، أسباب نزول الآيات ، ص ٥٢ ؛ عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي ، تفسير ابن عطية ، مصدر سابق ، ج١ ، ص ٣٤٣ ؛ ابن تيمية ، دقائق التفسير ، ج٢ ، ص ٢٠ ؛ وغيرهم من أئمة المفسرين .

(٢) مُحَمَّد بن يعقوب الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، مصدر سابق ، ص ١٢٠٠ .

الموقف بكامل الحرية ، فهذه الآية المباركة تبين رفض الإسلام للإكراه والاضطهاد من أجل الدين ، وتمنح الإنسان حرية المعتقد ، وهو ما تؤيده أسباب نزول الآية المباركة .

٣- قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[١] ، وقوله تعالى: ﴿... وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[٢] .

تُبيّن الآيات طريقة الدعوة إلى الله وسبل إقناع الآخر ، حيث ينبغي أن يكون ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة ، واختيار أنجع السبل التي توصل الإنسان إلى الحق ، كما تتحدث الآية الثانية عن الموضوعية والحيادية في الحوار ، وإلانة القول للآخر ، فإن النبي ﷺ كان على يقين من صواب عقيدته ومنهجه ، ولكنه لِيكون موضوعياً في حواره وليلين نفس الآخر قال له: ﴿... وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ، وهذا كله يبين أنه لا إكراه ولا إجبار في الدين .

٤- قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٣] ، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[٤] .

لقد جعل الله تعالى قاعدتين للتعامل مع عامة الناس ، هما: البر والعدل ، والعدل يتضمن صيانة جميع الحقوق ، والبر هو الإحسان وهو المعاملة بالرأفة والرحمة ، ولا شك في أن العدوان على حقوق الناس خارج عن ذلك كله .

كما توجد في القرآن الكريم آيات كثيرة تؤكد على الحفاظ على حقوق الناس .

---

(٣) سورة النحل : الآية ١٢٥ .

(٤) سورة سبأ : الآية ٢٤ .

(١) سورة الممتحنة : الآية ٨ .

(٢) سورة النساء : الآية ٥٨ .

الأدلة من السنة الشريفة:

١-روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (الناس سواء كأسنان المشط ، وإنما يتفاضلون في العبادة)[١] ، وقال النبي ﷺ: (لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر ، إلا بالتقوى)[٢] ، وكذلك قوله ﷺ: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)[٣] .

وهي تبين أن الناس جميعاً متساوون في إنسانيتهم وحقوقهم الأساسية وواجباتهم ، وبالتالي لا يجوز لأحدهم أن يطغى على الآخر أو أن يظلمه أو يقهره على شيء ، ولا أن يتقدم أحد على أحد لنسب أو لون أو شكل أو مكان ، فالله تعالى لا ينظر إلى صورهم ، ولا تمييز بينهم عنده على أساس أشكالهم وألسنتهم ، وإنما التمايز بطهارة قلوبهم وسلامة نفوسهم ، فلا ينفع في الموقف بين يديه إلا الإتيان بقلب سليم ، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٤] ، وقوله ﷺ : (الناس سواء كأسنان المشط ، وإنما يتفاضلون في العبادة)[٥] يُظهِرُ المساواة ، ومثله أيضاً قوله ﷺ: (كلكم بنو آدم ، وآدم من تراب)[٦] .

٢-قوله ﷺ: (المسلمون شركاء في ثلاث: الماء ، والنار ، والكلأ)[٧] ، فإن المساواة بين الناس في هذه الموارد الأساسية ترجع في الأساس إلى مساواةٍ أعمق تتصل بأصل الكينونة الإنسانية وحق الحياة للجميع ، دون فضل أو مِنَّة من أحد على أحد ، والمساواة في أصل الكينونة الإنسانية تَكفي لتأسيس المساواة بين الناس في الحقوق الأساسية للحياة .

٣-ما عاهد عليه رسول الله ﷺ أبا الحارث بن علقمة أسقف نجران ، فقد كتب له: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، من مُحَمَّد النبي للأسقف أبي الحارث وأساقفة نجران وكهنتهم ومن تبعهم

---

(٣) أخرجه ابن عساكر في كنز العمال برقم: (٢٤٨٢٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ، برقم: (٢٣٤٨٩) .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله ، برقم: (٢٥٦٤) .

(١) سورة الشعراء: الآيتان ٨٨-٨٩ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ، برقم: (٢٣٤٨٩) .

(٣) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ، والبزار في مسنده ، برقم: (٢٩٣٨) .

(٤) أخرجه أبو داود في سننه ، باب في منع الماء ، برقم: (٣٤٧٧) .

ورهبانهم على أن لهم ما تحت أيديهم من قليل أو كثير من بيعهم وصلواتهم ورهبانيتهم وجوار الله ورسوله ، لا يُغَيَّر أسقف عن أسقفيته ، ولا راهب عن رهبانيته ، ولا كاهن عن كهانته ، ولا يُغَيَّر حق من حقوقهم ولا سلطانهم ، ولا شيء مما كانوا عليه ، ما نصحوا وأصلحوا في ما عليهم غير مثقلين بظلم ولا ظالمين"[١] .

والمعاهدة صريحة باستمرار أسقف نجران ومن تبعه على ما هم عليه دون أي تَغيير أو إكراه أو ظلم ، وبِحفظ حُقوقهم في جميع شؤونهم وما يتعلق بهم ، ولهم على ذلك جوار الله ورسوله ، والشرط الوحيد للحفاظ على ذلك كله أن لا يكونوا ظالمين ، فقد ضمن لهم النبي ﷺ حريتهم الدينية وسائر حقوقهم المعيشية كاملة في مجتمع المسلمين .

٤-حدَّث ابن أبي شيبة عن كثير بن نمر قال: "بينا أنا في الجمعة وعلي بن أبي طالب ﷺ على المنبر ، إذ قام رجل فقال: لا حكم إلا لله ، ثم قام آخر فقال: لا حكم إلا لله ، ثم قاموا من جميع نواحي المسجد يحكمون الله ، فأشار عليهم بيده: اجلسوا ، ثم قال: نعم لا حكم إلا لله ، كلمة حَقٍّ يُبتغى بها باطل ، حُكم اللهِ ينتظر فيكم ، إلا أن لكم عندي ثلاث خلال ما كنتم معنا: لن نمنعكم مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه ، ولا نمنعكم فَيئاً ما كانت أيديكم مع أيدينا ، ولا نُقاتلكم حتى تقاتلوا ، ثم أخذ في خطبته"[٢] ، فأشار سيدنا علي ﷺ إلى أن الخروج عليه وتكفيره واتهامه بالحكم بخلاف ما شرّع الله ، لا يُسقط عن هؤلاء الحقوق المشروعة لسائر المسلمين ما لم يُبادروا بقتال المسلمين والعدوان عليهم ، وبعبارة أخرى فإن حقوق المواطنة لهم محفوظة ما لم يُخرجوا أنفسهم من ربقتها .

وفي "قرب الإسناد" عن جعفر ، عن أبيه ﷺ: "أن علياً ﷺ لم يكن ينسب أحداً من أهل حربه إلى الشرك ولا إلى النفاق ، ولكنه كان يقول: "هم إخواننا بغوا علينا"[٣] ، وقوله ﷺ: "هم

---

(٥) مُحَمَّد بن سعد ، الطبقات الكبرى ، مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٢٦٦ .

(١) عبد الله بن مُحَمَّد بن أبي شيبة الكوفي العبسي ، مصنف ابن أبي شيبة ، مصدر سابق ، ج ٨ ، ص ٧٤١ ، ما ذكر في الخوارج ، حديث ٥٠ .

(٢) عبد الله بن جعفر الحميري ، قرب الإسناد ، ص ٩٤ ، أحاديث متفرقة ، ح ٣١٨ .

إخواننا" ، ظاهر في التساوي في الحقوق والواجبات أو في الحفاظ على سائر حقوقهم ، وعلى حرية الرأي والاعتقاد وما شابه ، وأن الاختلاف في الرأي لا يُغير شيئاً في العلاقات الإنسانية .

٥-وثيقة المدينة المنورة: لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة ، وهي مجتمع خليط من المسلمين المهاجرين والأنصار واليهود والوثنيين ، كتب رسول الله ﷺ بينهم كتاباً يُنظم شؤونهم والعلاقة فيما بينهم ، وأقرّهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم واشترط عليهم ، ومما جاء فيه: "وإن يهود بني عوف أمَّة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يُوتَغ[١] إلا نفسه وأهل بيته ، وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف ..." ثم أخذ ﷺ يُعَدِّد بُطون اليهود ويذكر لهم مثل ما ذكر لبني عوف ، ثم كتب ﷺ: "وإن الله على أبرِّ هذا[٢] ؛ وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بَينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وإنَّ النصر للمظلوم ، وإنَّ اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما دَاموا محاربين ، وإن يَثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وإنه لا تُجار حرمة إلا بإذن أهلها ، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده فإن مردّه إلى الله عز وجل ، وإلى مُحَمَّد رسول الله ﷺ ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه ، وإنه لا تُجارُ قريش ولا من نصرها ، وإن بينهم النصر على من دَهم[٣] يثرب ، وإنهم إذا دُعُوا إلى صُلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين ، إلا مَن حارب في الدين ، على كل أناس حصتهم (٤) من جانبهم الذي قبلهم .

وإن يهود الأوس ، مواليهم وأنفسهم ، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البرّ المحض [٥] من أهل هذه الصحيفة"[٦] .

---

(٣) يوتغ : يهلك .

(٤) أي على الرضا به .

(١) أي غشي .

(٢) أي نصيبهم .

(٣) قال ابن هشام: ويقال: مع البر المحسن من أهل هذه الصحيفة .

(٤) عبد الملك بن هشام الحميري ، السيرة النبوية ، مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ١٤٧ وما بعدها .

فنجد أنه ﷺ قد قرر لكل أحد حرية دينه ، وأنهم جميعاً أمّة واحدة لهم الحقوق ذاتها وعليهم الواجبات ذاتها ، إلا من ظلم وأثم واعتدى ، وأنهم جميعاً يشتركون في الدفاع عنها ، وردّ من يحاول العدوان عليها، ولا يجير أحد منهم عدوًّاً للآخر، وإن صلح أي طرف منهم مع عدوه صلح للآخر إلا من حارب في الدين ، وأنهم جميعاً يَشتركون في الإنفاق على ما يَتطلبه الدفاع أو الصلح ، وإن مَن ضَمَّتهم بطون القبائل من الموالي هم كأبنائها ولهم وعليهم ما ذُكر في هذه الصحيفة ، وإن المعاملة بين الجميع تقوم على البرّ المحض ، فَضَمِنَ سلامة العيش وكرامته ، والحرية في الشؤون الخاصة والمساواة في الشؤون العامة ، وإن النَّاظم بينهم هو البرّ المحض .

والخلاصة أنَّ النصوص القرآنية ونصوص السُنَّة الشريفة تَحوي من المضامين ما يَصلح بمجموعه أن نستخلص منه في هذه الأيام مفهوم المواطنة بالمعنى المصطلحي ضمن بعض مراتبه ، حيث أنّ هذا المفهوم وإن كان مُشتركاً في معناه الإجمالي في جميع طروحاته ، حيث تنصّ كلها على المساواة أمام القانون ، وتداول السلطة ، والعدالة الاجتماعية ، إلا أنه يختلف في بعض التفاصيل بين تصوير وآخر ، وذلك من جِهة وجود بعض القيود القِيميّة أو الدينية التي تتحكم بسلوك الأفراد ، أو بَعض القيم الأخلاقية كذلك ، وبحيث يُسهم في إيجاد الرابط المجتمعي بين الأفراد وبين الإصرار على خلوِّ هذه الرابطة من أيّ من القيم والذهاب باتجاه الحرية المطلقة للإنسان .

وينبغي أن نأخذ بالاعتبار أمرين:

الأول: أنه يوجد خلط في الموقف من الدين والقيم الأخلاقيّة عند الحديث عن المواطنة ، بين اعتبارهما الأساس الوحيد لرابطة المواطنة بين الأفراد ، وهذا معناه وجود تمييز ديني وطائفي بين أبناء المجتمع الواحد ، وبين ضَمان رعاية قيمهم الدينية والأخلاقية في سلوكهم وإدارة شؤونهم ، فإن التمييز في الحقوق والواجبات الأساسية من قبيل الحرية والعدالة والمساواة أمام القانون ، والمشاركة في القرارات الهامة و...إلخ على أساس الدين يعتبر انتقاصاً من حق المواطنة ، ولكنه في الوقت ذاته لا بد لنا من أن نعترف بحقّ الأكثرية في انتخاب القانون الذي تُريده مهما كانت صفته ومصدره ، شريطة عدم التجاوز على الحقوق الأساسية لباقي المواطنين ، فالحرية الكاملة أمر غير قابل للتحقيق ،لأن الابتعاد عن مراعاة القواعد التي يدين بها الناس ، أو الأعراف والقواعد التي ينطلقون على أساسها في حياتهم ، وعدم أخذها بالاعتبار في مواد الدستور وفي

التشريعات القانونية بحجة إقامة المواطنة الكاملة للجميع ، هو أمر يُلحق الحيف والظلم بالذين يعتنقونها ، وهو عمل طائفي بامتياز ؛ لأن اللا دين هو دين ، ما دام سينبثق عنه مواد دستورية وتشريعات قانونية تنظم حياة الناس ، وإن ربط ذلك بالشعب وأنه مصدر السلطات لا يُغيّر من ذلك الواقع شيئاً ، فإذا اختار شعب ما العلمانية المطلقة أساساً لتشريعاته ومَنهجاً لحياته فإن هذا الاختيار سَيكون اختياراً للأكثرية على حساب الأقلية المتديّنة في أحسن الأحوال ، وهو لا يَفْرِقُ في شيء عن اختيار الأكثرية في شعب آخر ، أن يكون الدين أساساً للتشريع على حساب الأقلية عندما لا يلتفت إلى حقوقها .

لذا ، فإنه من المهم أن يتضمن الأساس القيمي الذي تنطلق منه الحياة الاجتماعية والسياسية في دولة معينة ، سواء أكان هو الدين أم غيره ، والذي تتبناه الأكثرية لتبني عليه حياتها ، مبادئ الحرية والعدالة والمساواة الفكرية والثقافية أمام القانون ، والمشاركة في اتخاذ القرارات التي تتعلق بالحياة المشتركة للمجموعة بما يُراعي حقوق الجميع ، فإن المواطن في بلد ما لا يَهمه ماهية الدين أو منظومة القِيَم التي تعتقد بها وتخضع لها أغلبية مواطني بلده طالما أن ذلك لا يمنعه من ممارسة حريته الدينيّة والتعبير عن فِكره وثقافته ، ولا يَحرمه من المساواة مع الآخرين أمام القانون وإقامة العدل بينه وبينهم ، الأمر الذي لا يَزال بعيد المنال للأقليات العرقية والدينية في أكثر الديموقراطيات تقدّماً في العالم ، والمشكلة الحقيقية غالباً هي في التطبيق لا في ذات المبادئ ومنظومات القيم .

الثاني: إن خلوّ مفهوم المواطنة من القيم الدينية والأخلاقيّة والاجتماعيّة ، والدعوة إلى عدم أخذها بالاعتبار ، والجنوح نحو الحريّة المطلقة للإنسان ، يَعني في الحقيقة عُدواناً على إنسانيّة الإنسان ، وإنكاراً لوجوده المعنوي ، وتفريغاً له من محتواه الإنسانيّ ، والاكتفاء بالتعامل معه على أساس غرائزي حيواني لا غير، وهو ما تدعو إليه بعض العلمانيات المتطرفة وتشرّع على أساسه الرذيلة والفلتان الاجتماعي والشذوذات المدمرة لحياة الإنسان ، وتوسّع دائرة انتشارها من خلال المطالبة بالحريات غير المقيّدة كسبيل لتحقيق ما يُسمونه بالمواطنة الكاملة .

خامساً: المواطنة في الفكر الإسلامي المعاصر:

إن ما يَشغل بال الأقليّات الإسلامية وغيرها هو احترام خصوصياتها الدينيّة والمذهبيّة ، والحفاظ على كرامتها مِن قِبَل مجتمع الأكثريّة ، ويتمظهر ذلك بأربعة أشياء:

١-حرية ممارسة الشعائر الدينيّة .

٢-قوانين الأحوال الشخصية .

٣-المساواة مع الأكثرية في الحقوق .

٤-الجزية والذمّة – بالنسبة إلى غير المسلمين – .

١-حرية ممارسة الشعائر الدينية:

ويتضمن ذلك تشريع حدّ من الحرية الفكرية والدينية تنصّ عليه القوانين ، ويقيم بواسطته كل ذي معتقد ما يَختصّ بعقيدته دون أن يُلحق الأذى بالآخرين ، أو يُلحق الآخرون الأذى به، وبما يحقق العيش المشترك ويحفظ السلم الأهلي والاحترام المتبادل بين أبناء المجتمع .

كما يتضمن ذلك حق الفرد في تربية أبنائه وتَنشئتهم وفق عقيدته وعاداته وتقاليده ، وتعليمهم كل ما يَرتبط بذلك دون تدّخل من أحد ، أو الضغط عليه أو إكراهه على الحدّ من ذلك وعدم القيام به كاملاً ، ويجب مراعاة ذلك في مناهج الدراسة ووسائل الإعلام ، ومن البديهي هنا التأكيد على الالتزام بالموقف المحايد للمناهج الدراسية والبرامج الإعلامية التي يجب عليها أن تعرض جميع المعتقدات والأفكار بموضوعيّة تامّة وكما يقررها أهلها ، دون تهجّم أو تحريض ضدّ أحد .

ويتضمن أيضاً حرية امتلاك الجماعات الدينية والعرقية لمؤسساتهم الدينيّة والثقافيّة ، وحق إشادة دور العبادة بما يكفل القيام بجميع ما يلزم للمحافظة على القيم الدينية والثقافية وبالنحو الوافي لجميع فئات المجتمع .

٢-قوانين الأحوال الشخصية:

وهي القوانين المتعلقة بالزواج والطلاق والميراث ، وينبغي أن تراعى فيها الأحكام الدينية الخاصة بها في دين أصحاب العلاقة أو مذهبهم ، حتى لا يَشعر أي إنسان أنه قد أقدم على خطوة خاطئة في يوم من أيام حياته يُبتلى بنتائج مُؤلمة قد تلازمه مدى الحياة ، لأنه لم يُراعِ ما يَخصّه في

مرحلة من حياته ، ولأن عدم مراعاة القوانين الخاصة يُوقع الإنسان في حرج شديد ويُعرضه لاستغلال بشع في بعض الأحيان يحرمه من بعض حقوقه الأساسية نتيجة للاختلاف في تشخيص وضعه بين أحكام دينه والقانون الذي يخضع له كما في تشخيص وضع المرأة أنها زوجة أو خَليلة عندما لا يجري الطلاق مثلاً بما يُطابق الأحكام الشرعية أو تَشخيص حاله أنه وارث أو لا ، وغير ذلك .

٣-المساواة مع الأكثرية في الحقوق:

وذلك من جِهة حق جميع المواطنين في إبداء رأيهم في الشؤون العامة لبلدهم ، وانتخاب من يمثُّلهم ، ولا بُد من أن تتضمن التشريعات القانونية ما يَضمن مشاركتهم في شؤون أوطانهم وإدارتها وبما يَحفظ حُقوق الجميع على أساس العدل وإعطاء كل ذي حق حقه ، دون اللجوء إلى المحاصصات الطائفية السيئة ، ودون اللجوء إلى حالة مثالية غير واقعية نُلغي فيها كل الخصوصيات ونعتدي بها واقعاً على حقوق بعض فئات المجتمع أو نَحدّ منها ، فإن العدالة تقتضي إيجاد وسيلة لحفظ حقوق الأكثرية والأقلية عَلى حدّ سواء ، فإن الحفاظ على حقوق الأقليات لا ينبغي أن يصل إلى حدّ الافتِئَات على حقوق الأكثرية وخصوصياتها ، والعكس كذلك .

وما أريد الإشارة إليه أن هذا ممكن من وجهة النظر الإسلامية ، وهو ما سيتم بحثه وإبرازه في دراسة تفصيلية قادمة إن شاء الله ، خُصوصاً إذا ما ميزنا بين دائرة الحياة الفردية والمظهر العام للحياة الاجتماعية ، لِنَرى أن دائرة الإلزام بالنسبة إلى المسؤولية الدنيوية تَرتبط بمراعاة بعض المظاهر والأحكام الشرعية في ظاهر الحياة العامة ، أو الانتقال ببعض السلوك من السِّرِّ إلى العلن كما في بعض الحدود والتعزيزات .

كما أؤكد على ما ذكرته سابقاً ، من أن العلمانية المطلقة هي مذهب كسائر المذاهب ، مما يعني أن الالتزام بها يمثل عدواناً على سائر المذاهب والأديان ، فلا بُد من إيجاد مُصطلحات جَديدة غير مستوردة من الغَرب أو الشرق نُؤسس عليها بنيان أمتنا على أساس من القسط والعدل ، يُؤمن العدالة والاحترام للجميع ، ويحفظ حقوقهم من ناحية عملية .

٤–الجزية والذمة:

يمثل لفظ "الجزية" و "الذمة" عُقدة في العلاقة بين المسلمين وبين غيرهم من أهل الكتاب ، بما يُولده هذان اللفظان من شعور بالدونيّة لغير المسلم في الدولة الإسلامية ، ومِنَ المناسب لطبيعة بحثنا الاكتفاء بإشارة عابرة تُبيّن أن الجزية تتبع الأحكام السلطانية وهي بِيَدِ وَلِيّ أمر المسلمين ، وبالإمكان من الناحية العلمية عدم العمل بها بناءً على ما يُشَخِّصُه وليّ الأمر من مصلحة الأمة بحسب ظروف الزمان والمكان ، كما يُمكن التأسيس لذلك فقهيّاً بِناءً على أن جميع الدول المعاصرة قَد قامت على عقد اجتماعي بين أبنائها يُشبه ما كان عليه العقد الاجتماعي في أيام رسول الله ﷺ عندما هاجر إلى المدينة المنورة ، أو في كتابه ﷺ إلى أساقفة نجران ، وهذا لا علاقة له بالجزية والذمّة ، فهما في الإسلام من أحكام الحرب وما ينشأ عنها من نتائج ، مُضافاً إلى أن الذمة تعني مسؤولية المسلم عمّا في ذمته ، ومُؤداها حِفظ حقوق أهلها ، وليس إهانتهم أو الاعتداء عليهم .

والخلاصة: أن المواطنة في الإسلام تتقوّم بالمقومات الآتية:

١–وحدة الأرض .

٢–وحدة القيادة السياسيّة .

٣–المساواة في الحقوق والواجبات .

٤–شيوع روح التعاون والتعاضد بين الأفراد "المواطنين" .

٥–العدالة وعدم ظلم بعضهم أو طغيانهم على بعض .

٦–الحرية الفكرية والعقدية والمسلكية بنحوٍ لا يلحق الأذى بالآخر .

وهي كلها مما يدعو الدِّين إلى تحقيقه ورعايته ، وهي لا تختلف في مقوماتها الأساسية عما تطالب به أحدث الدراسات العالميّة في عصرنا الحاضر .

التكفيريون والجهاد المعاصر

"قراءة نقدية في المفهوم والإصلاح"

المحتوى

المقدمة

مفهوم الجهاد الجديد المعاصر عند بعض الشباب المسلم

الرد على هذا المفهوم الجديد للجهاد

١ – متى يكون المسلم كافراً

٢ – تعميم القول بحكم الكفار جميعاً خطأ

٣ – قواعد الحكم بتكفير المسلم

٤– من ينفذ الحدود

٥– لا تلازم بين تكفير الحاكم والخروج عليه

٦– ديار المسلمين الآن ليست دار حرب

٧– حكم القتال دون تمييز الصفوف

٨– حكم تولي الولايات في الحكومات الكافرة

٩– منزلة العمل السلمي والدعوة والتربية في الإسلام

١٠– حكم غير المسلمين في أرض الإسلام

١١– مَن الذي يصح له الاجتهاد والاستنباط

شبهات وردود في فقه الجهاد المعاصر

أولاً – الخَطأ في تنزيل أحاديث الفِتن والملاحم على الواقع

ثانياً – هل قادةُ الجهاد يَحُلُّون مَحلَّ الإمام في استنفار المسلمين للجهاد؟

ثالثاً – الاغترار بالأسماء المُوهِمة

الخلاصة

مقدمة البحث

الجهاد المعاصر أحد المصطلحات الإعلامية المعاصرة ، بل هو مَنهج عقدي جديد تطور ونما في عقول العديد من الذين يرفعون شعار الجهاد في سبيل الله .

مُصطلح الجهاد أفرزته وقائع وأحداث العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، لنصل إلى نتيجة نهائية وهي تكفير الحاكم على الإطلاق والخروج عليه ، بل أبعد من ذلك تكفير المجتمعات العربية برمتها ، تلك التي تحتكم إلى القوانين الوضعية في دستورها .

الجهاد المعاصر مُصطلح من ضمن المصطلحات التي شَوهت المعنى الدقيق لمفهوم الجهاد ، بل سولت لكثير من الذين يطلق عليهم خطأً اسم "الجهاديون في سبيل الله" لأن يُحرفوا النصوص الدينية إلى غايات ومناهج تخدم أجندات خارجية .

ما هو الجهاد المعاصر ؟ وما هي أبرز أفكاره ؟ وهل تستطيع أن تقول هو منهج جديد ينسخ المعنى الشرعي للجهاد في الإسلام ؟! أم هو مُجرد أوهام وهواجس لا عقلانية فرضتها مصارع سياسية معينة ؟.

هذا البحث عبارة عن قراءة نقدية وتوضيحية وتفسيرية لأبرز أفكار وأهداف الجهاد المعاصر .

مفهوم الجهاد الجديد المعاصر عند بعض الشباب المسلم

مفهوم الجهاد المتداول اليوم هو مفهوم بلا هوية ، أي هو أُخذ من نسق تاريخي مُحدد ليُفْرضَ على واقع غير مُتجانس معه ، وإنّما تَرعرع هذا المفهوم فقط على المستوى الذهني لمنْ يُؤمن به ، فهو مفهوم ذهني ، ولكنَّه مستحيل وغير منطقي في عالمنا اليوم ، لذلك يَعتبر بعضهم ضرب المدنيين في نيويورك وواشنطن عَملاً جهادياً يَستحق التقدير والتثمين ، أمّا أكثرهم فلا يرى في مثل هذه الأعمال إلا خسارة تَلحق بالإسلام أولاً ، وذلك من خلال تشويه صورته ، وفي كل الأحوال لا بد من تأكيد اللاهوية للخطاب الجهادي المعاصر ، وهو في أبسط أحواله – أي الجهاد المعاصر – يعني نزع مفهوم من سياقه التاريخي الخاص وإقحامه في نسق مُغاير تماماً للنسق الذي ظهر فيه .

بدأ منذ عام ١٣٧٥ هـ ، ١٩٦٥م تقريباً فَهم جديد لمعنى الجهاد في الإسلام ، وهذا الفهم الجديد نشأ عن تصورات عقائدية ولأسباب وأحداث سبقت ظهور هذا الفهم وصاحبته ،

ونستطيع أن نُلخص ونوجز أبعاد هذا الفهم الجديد لمعنى مصطلح الجهاد المعاصر في النقاط التالية:

حيث يقول أصحاب هذا الفهم الجديد ما مضمونه:

١- المجتمع الذي نَعيش فيه مجتمع كافر ، لأنه استبدل القوانين الإسلامية بالوضعية ، وأن مظاهر الانحلال والفساد دبت فيه ، وأن المعروف قد أصبح منكراً ، والمنكر قد أضحى معروفاً .

٢- أفراد هذا المجتمع وحكوماته مُرتدون مارقون ، والمظاهر الإسلامية في هذا المجتمع مَظاهر كاذبة مُضللة مُنافقة ، فشيوخ الدين ممالئون للسلطان الكافر .

٣- والمساجد مساجد ضرار لأنها تسير في ركاب الحاكم الذي يحكم بغير ما أنزل الله ، والمؤسسات الإسلامية - سواء كانت أهلية كجمعيات الخير والبر ، أو حكومية كوزارات الأوقاف والجامعات الإسلامية - حكمها حكم المجتمع ما دامت أنها تستظل بظل الحكومات الكافرة .

٤- الجهاد مفروض لتغيير هذا الواقع ، وإحلال شريعة الله مكان شريعة الكفر .

٥- كل الوسائل السلمية لا تُجدي نفعاً ولا توصل للهدف السابق ، لأن كل عمل سلمي للدعوة يُقابل بالدعاية الحكومية الكافرة ، لأنها تملك المال ووسائل الإعلام من تلفاز وإذاعة وصحافة ، وكذلك تمتلك المدارس والجامعات والوظائف ، وتستطيع بذلك أن تفعل ما تريد ، ولأنها تهدم والدعاة يبنون ، فإنها تسبقهم حتماً ؛ لأن الهدم أسهل من البناء[١] .

٦- ما دام الحكَّام كفرة والجهاد واجباً ، فقد وجب الخروج عليهم وقتالهم بالسلاح ، لأن الرسول ﷺ أمر عندئذ بالخروج عليهم ، كما قال ﷺ: (إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان)[٢] ، والحكم بغير ما أنزل الله كفر بواح .

٧- في القتال يجوز الخداع ، لأن الرسول ﷺ قال: (الحرب خدعة)[٣] .

---

(١) انظر "فصول في السياسة الشرعية" ، عبد الرحمن عبد الخالق ، ص ١٩٧-١٧١ ، دار الوليد ، الأردن ، ط٢ ، ٢٠٠٩ م .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب قول النبي (سترون بعدي أموراً تنكرونها) ، برقم: (٦٦٤٧) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية ، برقم: (١٧٠٩) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب الحرب خدعة ، برقم: (٢٨٦٦) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، جواز الخداع في الحرب ، برقم: (١٧٣٩) .

٨- يجوز الاغتيال ، لأن الرسول ﷺ أرسل من يَغتال كعب بن الأشرف ، وعبد الله بن سفيان ، وغيرهما .

٩- يَجوز إظهار خِلاف ما يُبطنه المسلم ، حتى يَتمكن من قتل هؤلاء الأعداء .

١٠- لا يجب في القتال أن تُرفع راية أو يعلن جهاد أو يميز صف ، لأن القتال فرض على كل أحد ، والذي على الحق جَماعة ولو كان وحده ، فكيف لو كان هناك اثنان أو ثلاثة ؟[١] .

١١- يَجوز قتل كل من تَترس به الكافر ، ولو كان من المسلمين ، إذا كان لا يُمكن قتل هذا الكافر إلا بهم ، وبذلك يَجوز قتل الجنود والشرطة والجيش إذا حَاولوا الدفاع عن الحكام الكفار[٢].

١٢- لا يجب إعلان القتال على الكفار ، لأن رسول الله ﷺ قاتل أقواماً (وهم غارون)[٣] ، لا يعلمون بمقدمهم إليه .

١٣- ليس للنساء والأطفال حرمة ، لأن أولاد الكفار من الكفار ، وقد سئل الرسول ﷺ عن أولاد الكفار ونسائهم يُقتلون في البيات - الهجوم الليلي - فقال: (هم منهم)[٤] .

١٤- يجوز قتل الكفار - وهم الحكام والشعوب الراضية - ليلاً ونهاراً ، وبغير إعلام أو إشعار لهم ، ولو قتل في ذلك نساؤهم وأطفالهم[٥] .

١٥- أموال هؤلاء الكفار - أي المسلمين الذين يعيشون في هذا المجتمع - يَجوز أخذها بكل سبيل ، لأن أموال الكفار غنيمة للمسلمين ، فيجوز غصبها وسرقتها ونهبها .

١٦- نساء الكفار - أي المسلمين الذين يعيشون في ظل النظام الوضعي - حلال أيضاً استرقاقهم وسبيهم .

---

(٤) انظر "الجهاد في سبيل الشيطان" ، عبد الله النمران ، دار القابس ، الجزائر ، ص٩٧ ، ط٢ ، ٢٠٠٤م .

(٥) المصدر السابق ، ص١٠١ .

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب من ملك من العرب رقيقاً فوهب وباع وجامع وفدى وسبى الذرية ، برقم: (٢٤٠٣) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام من غير تقدم الإعلام بالإغارة ، برقم: (١٧٣٠) .

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب ، برقم: (٣٠١٢) .

(٨) انظر: "ثوار في سبيل الحرية" ، وليد الطبطبائي ، الكويت ، مطبوعات المنهل ، ص٥٣ ، ط١ ، ٢٠٠٠م .

١٧- لأن النظام نظام كافر ، فالدار التي نعيش فيها دار حرب ، وبذلك تكون كل ديار المسلمين الآن ديار حرب ، يَجوز فيها ما يَجوز في دار الحرب ؛ من القتل والسلب والنهب والغصب والخطف .

١٨- لا تجوز الصلاة بالمساجد ، لأن الدولة الكافرة هي التي تُنفق عليها وتعين أئمتها ومؤذنيها.

١٩- لا يَجوز تولي أي ولاية في هذه الحكومات ، لا وزارة ، ولا عمل في جيش أو شرطة ، أو تعليم أو صناعة ؛ لأن كل عمل حكومي هو إعانة للحكم الكافر .

٢٠- جميع النصارى واليهود وأهل الملل الأخرى الذين يعيشون في بلادنا - بلاد الحرب - لا عهد لهم ولا أمان ، لأنهم مُحاربون للمسلمين ، وبالتالي هم حَربيون وليسوا مستأمنين أو معاهدين أو أهل ذمة .

٢١- لا يوجد الآن حكم إسلامي قط في الأرض ، ولذلك يَجب العمل لإيجاد هذا الحكم .

٢٢- ليست هناك طريقة لإيجاد الحكم الإسلامي إلا بالحرب ، والحرب تكون وفق المفاهيم والأحكام السابقة .

٢٣- لا يجوز أن نَحكم بالإسلام لأحد ، إلا مَن عرفنا حقيقة معتقده وأنه يُوافقنا في كل ما قلناه آنفاً ، وكل مَن لا يَعتقد هذه العقيدة تماماً كما نعتقد فهو كافر يجب إلحاقه بمعسكر العدو وحربه معه .

٢٤- لا يَجوز بتاتاً تقديم حرب الاستعمار والكفار الخارجين - كاليهود والأمريكيين والروس مثلاً - قبل حرب الأعداء القريبين ، وهم هؤلاء الذين يُنسبون إلى الإسلام وليسوا كذلك !.

٢٥- أي شخص اختارته الجماعةُ التي تَعتقد هذه الأفكار أميراً فهو أمير تجب طاعته ، وإن لم يَعلم به غيرهم ، فلا يشترط في الأمير العام الذي يُعلن هذه الحرب ويقوم بهذا الجهاد أن يَكون ظاهراً ولا مُتمكناً ، بل يكفي أن يُبايعه رجل أو رجلان .

٢٦- الحكم الإسلامي هو ما في القرآن الكريم والحديث فقط ، وفهمُ الصحابة ليس حجة علينا ، وأقوال الأئمة والفقهاء ليست حجة ، ويستطيع كل أحد أن يَفهم القرآن والسنة ويَستنبط منهما ، وإن لم يَدخل معهداً علمياً أو جامعة أو تتلمذ على أي شيخ من الشيوخ ، وفينا من هو أعلم من الصحابة ، وأفقه من الأئمة !.

٢٧- يجوز الانبثاث في الجماعات الإسلامية العلنية القائمة ، لتحويل مسارها نحو هذا الفهم الجديد للإسلام .

الرد على هذا المفهوم الجديد للجهاد

هذه هي خلاصة الفقه الجديد أو المنهج الجديد للجهاد الذي تتبناه اليوم مجموعات شتى في أنحاء العالم الإسلامي ، ولا نشك أن بعض هؤلاء الذين جنح بهم مرضهم إلى هذا الحد مخلصون محبون للخير ، ولكن كم من مريد للخير لم يبلغه ، ولا نشك أيضاً في أن هناك من غير المخلصين ، بل من الذين يُريدون شراً بأمة الإسلام ، مَن غَذَّى هذا الفكر واستنبت بذروه رغبة في تهديم العالم الإسلامي ، وتحويلِ ساحة الوطن الإسلامي إلى ساحة حرب حقيقية بين أبناء المسلمين أنفسهم ، حيث يَقتل بعضهم بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً ؛ بل ويغدر ويكذب ويغش ، ويتعلم النفاق الذي ليس بعده نفاق ، واللؤم الذي ليس بعده لؤم قط .

ونستطيع أن نُوجز الرد على هذا الفكر هنا أيضاً بما يلي:

١- متى يكون المسلم كافراً:

لا شك أن تعميم القول بالكفر ليس بصحيح ، وهو مخالف لهدي القرآن والسنة ، حيث أُمرنا أن لا نشهد إلا عن بينة ، وكيف نشهد أن مجتمعاً ما أصبح خالياً من الإسلام ، والحال أن عامة أهله مسلمين ، ممن يشهد أن لا إله إلا الله ، ويُصلي ويَصوم ويتقي الله عز وجل ويتورع عن الحرام في مطعمه ومشربه ومأكله ، وهو كذلك يَكره الكفر والكافرين ، ولا يُحب ولا يُوالي أعداء الدين ، فكيف يَكون أمثال هؤلاء كُفاراً لمجرد سُكناهم في بلد اختلطت فيها قوانين الكفر بقوانين الإسلام ، علماً بأن الله شَهد بالإسلام لمن يعيش في دِيار الكفار مُضطراً لا يستطيع الهجرة منها ، كما قال الله تعالى: ﴿إِلا الْمُستَضعَفِينَ مِنَ الرّجالِ والنّساءِ والوِلدانِ لا يَستطيعُونَ حِيلَةً ولا يَهتدُونَ سبيلاً﴾ [النساء: ٩٨] ، هذا ودولة الإسلام قائمة في المدينة وما حولها ، والأنصار يواسون ويفرحون بمن هاجر إليهم ، ولا يَنزل أحد من المهاجرين عند أنصاري إلا بقرعة ، فكيف الآن وليس هناك مِن إمام يُعلن أنه إمام المسلمين ، وأنْ هلمَّ إلى العيش في رحاب الإسلام ، وأنْ هاجروا من الدار التي يُستذل فيها المسلمون إلى الدار التي يُعزّون فيها ، هل في

هذه الحالة يُسمى مَن يعيش في بلد يَحكم بالقوانين الوضعية ؛ نسميه كافراً مرتداً لمجرد وجوده وسكناه في مثل هذا البلد ؟ لا شك أن هذا قولُ مَن لم يَفقه الدين ولم يعرف الواقع .

٢– تعميم القول بكفر الحُكام جميعاً خطأ:

لا شك أن الأُمة قَد ورثت هذه الحالة البائسة بَعد غَزوٍ عَسكري لأراضيها وأوطانها استمر زماناً طويلاً ؛ ففي بعض بلاد المسلمين بَقيت عَساكر الكفار قرناً من الزمان ، ومنها قرنين وأكثر ، استطاع الكفار فيها وضع قوانين الكفر ، وتغيير العقول والقلوب ، وتربية جيل يُؤمن بأفكاره وعقائده من أبناء المسلمين ، وليسوا جميعاً على موقف واحد من الدين ، وموقف واحد من الكفار المستعمرين ، فهناك حُكام يُصلون ويصومون وورثوا هذه التركة بكل ما فيها ، وهم يتمنون التخلص من قوانين الكفر ، وإحلال قوانين الإسلام مكانها ، وهناك آخرون انسلخوا من الدين ظاهراً وباطناً ، وأبقوا شيئاً من ظاهر الدين على أنفسهم ، كالصلاة في الأعياد وإرضاء المسلمين ببعض الكلمات كالبسملة والحوقلة .

ولا شك أن هذه الأوصاف لا يجوز أن يَكون الحكم عليها واحداً ، وإلا كانت الشريعة غير حكيمة ، والحال أن الشريعة حَكيمة تُفرق بين المضطر وغيره ، وبين المتأول والمتعمد ، وبين المنافق والكافر ، ولذلك فالحكم بالجملة على كل الحكام دفعة واحدة حُكم يَعوزه الصواب وينقصه الحكمة ؛ بل هو حُكم مُتَعَدٍّ ، وقد رأينا وشاهدنا مِن حكام المسلمين من يَتمنى ويَسعى جَاهداً لاستبدال قوانين الكفر بقوانين الإسلام ، ومَن يُحب أن يَسود الخير ويَكثر أصحابه ، كما أن مِنهم مَن هو بِضِدِّ ذلك ، فكيف يَجوز أن يتساوى عندنا أهل الصدق والإيمان والصلاة ، بأهل النفاق والكفر ومحاربة الدين ؟.

٣– قواعد الحكم بتكفير المسلم:

لا شك أيضاً أن للتكفير أصول واضحة في كتب الفقه والعقيدة ، نوجزها بأنه لا يجوز أن يحكم بالكفر على مسلم إذا رأيناه يَفعل مُكفراً من المكفرات إلا بالضوابط الآتية:

- أن لا يكون جاهلاً ، فإذا كان جاهلاً بِحكم مَا يَفعله فلا يُكفر حتى يَتعلم وتُقام الحجة عليه.
- أن لا يكون مُتأولاً ، يَرى أن ما يَفعله مِن مُخالفة شَرعية إنما هو لمصلحة أعظم ، أو درءاً لمفسدة أعظم ، كما ترك الرسول ﷺ تنفيذ بعض الحدود دَرءاً لمفسدة أعظم ونحو ذلك .

- أن لا يكون مُضطراً ، كما قال تعالى: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤمِنُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: ٢٨] ، والآيات في هذا المعنى – أي الاضطرار – كثيرة جداً .

ووفق هذه الضوابط يكون الحكم على مُعين ما أنه كافر ، وأما إلقاء الكلام على عواهنه ، وتكفير الناس دون العلم بحقيقة حالهم ، فهذا لا يُقدِمُ عليه إلا رقيق الدين قليل التقوى والخوف من الله ، حيث يقول ﷺ: (**من دعا رجلاً بالكفر أو قال عدو الله وليس كذلك إلا حَارَ عليه**)[1] .

٤– من ينفذ الحدود:

لا شك أنه ليس هناك تلازم بين الحكم على شخص ما بالكفر والأمر بقتله أو قتاله ، وذلك أن تنفيذ القتل حَداً – كما هو في المرتد – لا يجوز إلا للحاكم المسلم القائم الظاهر – أي لا يُنفّذ الحدود إلا الإمام المسلم العام أو من ينوب عنه – وليس قتل المرتد هو من واجبات أو حقوق الأفراد ، وإلا لقتل كل أحد مَن يُريد قتله وزعم أنه مرتد ، وهذه قضية إجماعية لا خلاف فيها بين المسلمين – أعني أن تطبيق الأحكام ليست للرعية ، وإنما هي للإمام – وذلك لأن ترك الرعية تقوم بتنفيذ العقوبات الشرعية — الحدود – يُؤدي إلى الفوضى والفساد والاضطراب ، وبسبب الجهل بهذه النقطة حدث الفساد في الأرض من الجماعات التي تدعي نصرة الدين والجهاد ؛ لأنهم ظَنوا قتل المرتدين وقتالهم هو من حقوقهم ، وأنه مُسند إليهم ، وبذلك استحلوا دماء مخالفيهم في عقيدتهم التي شرحناها آنفاً ؛ بل قتل بعضهم بعضاً عند أدنى خلاف بينهم فيما يعتقدونه ، ظانين أن هذا من باب تنفيذ الحكم على المرتد ، والحال أنه لا يُنفذ حكم الردة إلا إمام قائم معين ، أو من ينوب منابه ويسد مسده ، وهذه كما ذكرنا مسألة مجمع عليها .

٥– لا تلازم بين تكفير الحاكم والخروج عليه:

---

(٩) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم ، برقم: (٦١) .

وقد ظن كثير من هؤلاء الشباب أيضاً أن الحكم على حاكم ما أو رئيس ما بالكفر يستلزم الخروج عليه بالسيف ، وهذا خطأ أيضاً ، فليس كل حاكم كفر كفراً بواحاً يَلزم المسلمين الخروج عليه مهما كانت الظروف والأحوال ، بل إن الخروج عليه يَستلزم اتباع السياسة الشرعية في ذلك ، شأن ذلك شأن إنكار أي منكر من المنكرات ، فكما لا يجوز إنكار المنكر بمنكر ، ولا إزالة منكر يترتب على إزالته حدوث مُنكر أعظم منه ، فكذلك الأمر في إنكار مُنكر الحاكم أو الرئيس الخارج على الدين المعلن للكفر ، فمع الحكم بكفره فإن الخروج عليه بالسيف يستلزم أن يكون الخروج مؤدياً إلى إزالة منكره ، دون أن يحدث ما هو شر من ذلك ، كأن يأتي من هو أعظم منه شراً وبلاءً على المسلمين ، وكأن يحفزه ذلك إذا تمكن من الإفلات أن يَستأسد على المسلمين ، ويستبيح بيضتهم ، ويهتك حرماتهم . وقد حدث هذا مراراً ، فكم من حاكم ظالم أو فاجر أو حتى كافر مُعلن للكفر قام عليه بعض الأفراد من أهل الحماسة الفارغة والغيرة الكاذبة ، ففشلوا في تحقيق مآربهم ، فكان هذا بلاءً على المسلمين عامة ، استباح هذا الفاسق حِمَى المسلمين وفضح حريمهم ومزق جماعتهم وتسلط بسيف القهر عليهم ، فكان قيام مثل هؤلاء المغرورين المتحمسين الجاهلين بلاءً على المسلمين ، وليس شفاءً لأمراضهم وإزاحة لعلتهم . والمهم هنا البيان أنه لا تلازم بتاتاً بين الحكم بكفر حاكم ما والخروج عليه ، إلا وفق السياسة الشرعية الحكيمة ، وهي ألا يُزال منكره بمنكر ، وأن لا يترتب على إزالة هذا المنكر منكر أعظم منه .

٦- ديار المسلمين الآن ليست دار حرب:

لا شك أن القولَ بأن ديار الإسلام الآن وأوطانهم ديار حرب قولٌ فاجر ، ليس عليه دليل من كتاب أو سنة أو فقه أو عقل أيضاً ، وذلك للأسباب الآتية:

١-أنه لا يجوز أن تكون هناك دار حرب إلا إذا كان هناك دار إسلام ، والقائلون بأن بلاد المسلمين الآن هي ديار حرب نسوا أن يَذكروا لنا أين دار الإسلام ، وذلك أن ديار الكفار لا تمسي ديار حرب إلا لوجود دار إسلام تعلن الحرب عليها ، وتحوز المسلمين وتحميهم ، أما إذا انعدمت دار الإسلام التي تحمي المسلمين وتدافع عنهم ، وينطلق منها جحافلهم وجيوشهم ، فإنه ينعدم أيضاً وجود دار حرب ، لأن الرسول ﷺ لم يُسمِّ مكة دار حرب عندما كان يَسكنها قبل الهجرة ، بل لم يفرض الله عليه الحرب إلا بعد أن تكونت ووجدت دار الإسلام

أولاً ، وعلى الذين يقولون: إن الدار الفلانية دار حرب ، أن يوجدوا دار الإسلام أولاً كما أوجدها الرسول ﷺ دون قتال وسفك دماء .

٢-أن القول بأن دار الإسلام الآن وأوطانهم ديار حرب ، معناه أن يتحول المسلمون إلى مجموعة من اللصوص والقتلة والمنافقين والمجرمين ، وهذا ما حدث بالفعل مع الذين نادوا بذلك ، فقد تحولوا بالفعل إلى قتلة بلا هدف ولا سياسة ، ولصوص يسرقون ويغتصبون ؛ بل استطاعوا أيضاً استدراج الفتيات البريئات من أهلهم من المسلمين بحجة أنهم كفار ، وتزوجوا بهن دون ولاية أو تسجيل عقود ، ولا شك أن القول بأن ديار المسلمين اليوم وأوطانهم ديار حرب يجعل ممن يقولون بهذا القول مجموعة من المنافقين والقتلة والمجرمين .

٣-بالرغم من فظاعة وشر القول بأن ديار المسلمين الآن ديار حرب ؛ إلا أن أصحاب هذا القول أيضاً متناقضون ، فالمعروف أن دار الحرب لا تُقام فيها الحدود الشرعية ، فمن شرب خمراً مثلاً لا يُجلد ، ومن سرق لا تقطع يده ، وهذا أمر مُتفق عليه بين الفقهاء ، وذلك حتى لا يلحق المسلم الذي يقع في معصية من المعاصي التي تَستوجب حَداً لا يلتحق بالكفار ، وللأسف أن أصحاب الفهم الجديد في الجهاد قد يتعللون عند مواجهتهم بالقول: لماذا تقتلون وتذبحون وتغتالون ؟ يقولون: نريد أن نقيم الحدود ! فكيف تكون مثل هذه حدود والحال أنكم تقولون: إننا في دار حرب ، ودار الحرب لا تقام فيها الحدود ، وكذلك لا يجوز إقامة حد في الإسلام إلا بتعيين إمام وقاضٍ وشهود ، وتمكين للمتهم من الدفاع عن نفسه ، فكيف يكون اغتيال شخص ما أو سرقة محل ما إقامة للحدود ؟!. ولا شك أن ديار المسلمين الآن وأوطانهم هي ديار إسلام ما دام أهلها مسلمون .

٧- حكم القتال دون تمييز الصفوف:

وأما القول بأنه يجوز القتال دون أن يتميز صف المسلمين من صفوف الكفار فهو حرام ، وقول أعمى لا ينبني على فقه أو دين أو عقل ، وهذه آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ ، وتاريخ الصحابة والمسلمين كله شاهد أنه لا قتال إلا بعد تميز الصفوف ، وانحياز أهل الإسلام إلى إمامهم وعلَمهم ، وانحياز أهل الكفر إلى قوادهم وجيشهم ، فلم يأمر الله تعالى الرسول ﷺ بالقتال إلا بعد أن تميز جيشه ، وكانت له قاعدته في المدينة ، وجماعته المستقلة التي تخرج وتبرز

وحدها رافعة لواءها معلنة أهدافها معروفة أوصافها ، هذا هو الجهاد الإسلامي ، وصف مميز له هدف معلوم وراية مرفوعة وجماعة ظاهرة وإمام قائم . وأما المجموعات السرية المختبئة في الجحور التي تخرج على الناس فجأة فتغدر وتقتل وتضرب على غير هدى فليسوا دعاة إسلام ، وليس لفعلهم هذا شبه ولا مثال في كل تاريخ من يُقتدى به من أهل الإسلام .

وأما الاستدلال بأن الرسول ﷺ غزا أقواماً من بني المصطلق وهم غارون ، فنعم ، فاجأهم الرسول ﷺ ، ولكن المنذر بلغهم بأن الرسول قادم إليهم ، وخرج الرسول ﷺ وهو ذو علم ، وصاحب جماعة وأمة ، وله رسالة قد أبلغها في الآفاق ، وجيش معروف وأهداف واضحة ، وقد أمر النبي ﷺ أن لا يُحارَب قوم حتى يُدْعَوا إلى الإسلام أولاً ، فإن أبوا فالجزية ، فإن أبوا فالحرب[1] . فهذه سنة رسول الله ﷺ ، وسنة خلفائه الراشدين رضي الله عنهم ، وسنة من يُقتدى به من أهل الحق والدين .

وأما أن الرسول ﷺ قد أرسل من يغتال أفراداً من الكفار ، فنعم ؛ الإمام المسلم الظاهر له أن يرسل من يغتال من يُؤذي المسلمين إذا لم يَكن ممن يُغضب له ، وكان هو رأس شر ، يموت الشر بموته ولا يستفحل بقتله ، كما فعل الرسول ﷺ مع كعب بن الأشرف ؛ لأنه رجل واحد رأس من رؤوس الشر ، ليس له إلا جسد ، ولا جيش وراءه ، ولا أُمَّة تَغضب له ، وكذلك الحال مع عبد الله بن سفيان الذي كان يجمع للرسول ﷺ أوباش الناس وأخلاطهم ، وليس صاحب شرف أو قبيلة أو جماعة ، فأرسل الرسول ﷺ من يقتله وهو عبد الله بن أنيس ، فتفرق كل هؤلاء الأوباش والأخلاط بعد أن قتله عبد الله بن أنيس رضي الله عنه ، وكذلك أرسل النبي ﷺ من قتل سلام بن أبي الحقيق اليهودي بخيبر ؛ لأنه رأس من رؤوس الشر إذا قُتل انتهى شر جماعته وخمدت نيرانهم ، وقد كان .

فالاغتيال جائز في الإسلام إذا صَدر الأمر به عن إمام ممكَّن وأمة قائمة ، وكان الاغتيال لا يُؤدي إلى ضرر أكبر منه ، ألا ترى كيف أوصى رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عندما

---

(١٠) أخرج مسلم في صحيحه ، في كتاب الجهاد والسير ، باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام من غير تقدم الإعلام بالإغارة ، برقم: [١٧٣٠] ، وهو عن ابن عون قال: كتبت إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال ، قال: فكتب إليّ: إنما كان ذلك في أول الإسلام . قد أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهم غارون ، وأنعامهم تسقى على الماء ، فقتل مقاتلهم وسبى سبيهم ، وأصاب يومئذ – قال يحيى: أحسبه قال – جويرية – أو قال البتة – ابنة الحارث .

أرسله ليأتيه بخبر الكفار في الخندق ، قال له الرسول ﷺ: (اعرف الخبر ، ولا تُحْدِث حدثاً حتى تأتني)[1] ، كيف أن حذيفة رضي الله عنه أتاهم والريح تضربهم والظلام يلفهم ، وقد قال لهم أبو سفيان وكان قائدهم: إني مرتحل ، ثم ركب ناقته ولم يفك وثاقها إلا بعد أن ركبها ، وقال حذيفة: لم يكن بيني وبينه شيء ، وأردت أن أقتله بسهم ، ولكني تذكرت كلام رسول الله ﷺ: (لا تحدث شيئاً حتى تأتيني) فأمسكت .

أرأيت لو قتل حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أبا سفيان بن حرب ذلك الوقت مخالفاً أمر رسول الله ﷺ ، ماذا ستكون النتيجة ؟ لا شك أن هذه الغزوة ما كانت لتنتهي على ذلك النحو – وهو رجوع الكفار إلى مكة ، واكتفاء المسلمين بقتال الله عنهم – بل إن الكفار القرشيين لو قُتِلَ رَئيسهم ما كان لهم أن يَرجعوا هكذا فراراً ؛ بل كانوا سَيرجعون ويَمكثون ويُقاتلون مهما كلفهم ذلك من أمر ، وكان في هذا كل البلاء على المسلمين .

والشاهد أنَّه ليس كلُّ شخص صالحٌ لأن يُغتال ؛ بل للاغتيال أيضاً في الإسلام أصوله وقواعده الشرعية ، ولا بد قبل إقدام الإمام المسلم عليه أن يُقدر المصالح والمفاسد .

هذا هو شأن الاغتيال في الإسلام ، فكيف يَتناسب ذلك مع ما يَفعله أفراد من الشباب الأغرار ، تختمر عندهم فِكرة ما أن فلاناً عدوٌّ لله ، أو أنه فعل كذا وكذا ؟ وقد يَكون هذا بدفع من مخابرات الغرب والصهاينة ممن يريد بالمسلمين شراً لإيقاع الفتن بينهم ، فيغريهم بذلك ، ويندفعون ليغتالوا ، وقد ينجحون في قتل غريمهم ، ولكن يأتي الشر بعده ليعمّ ويطمّ ، وقد يَفشلون فتكون الداهية أعظم .

فكيف يُقال والحال هذه: إن مثل هذا جهاد ، والحال أنه في معظمه غدر وإفساد واستبدال لشر أخف بشر أعظم .

٨– حكم تولي الولايات في الحكومات الكافرة:

(١١) أخرجه أحمد في مسنده ، برقم: (٢٣٣٣٤) .

وأما القول بأن حكوماتنا هذه كافرة هكذا بإطلاق ، فقد بينا حكمه آنفاً ، وأما القول بأن تولي الولايات في الحكومات الكافرة لا يَجوز شرعاً ، فهذا أيضاً لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ؛ بل الكتاب والسنة غير ذلك ، فقد تولى يوسف عليه السلام – وهو نبي كريم – القيامَ على خزائن الأرض في مصر ، وهو منصب مشابه لمنصب وزارة المالية الآن ، وهو وإن كان في شرع من سبقنا إلا أنه لم يأت في شرعنا ما يخالفه . نعم جاء نهي النبي ﷺ أن يكون المسلم جابياً أو شرطياً عند أئمة الجور[١] ، فلا يتعدى هذا إلا بدليل ، وهو أنه يَحرم أن يكون المسلم جابياً يَجمع المكوس من الناس للحاكم ظلماً ، وكذلك أن يَكون شُرطياً يَضرب الناس ليأخذ أموالهم ، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وأمّا في ولاية لا يكون المسلم فيها عاصياً لله ؛ كأن يَكون مُعلِّماً أو صَانعاً أو زَارعاً ، أو مُدافعاً عن أُمته بالحق ، أو نحو ذلك من ولايات ووظائف الحق ؛ فهذا لا شَيء فيه إن شاء الله ، ولو كان الحاكم كافراً ، فكيف إذا كان مسلماً ظالماً لنفسه ، جامعاً بين المعصية والطاعة ، لا شك أنَّ تولي الولايات التي تُعين المسلمين وترفق بهم ، وتحجب أعداء الله عن الإفساد في الأرض أولى من تركها لأهل الشر والفساد ، وبطانة السوء الذين يُفسدون ولا يصلحون ، وبالجملة فالمسلمون المخلصون هم أولى الناس بتولي الولايات وتقلد المناصب ، وإزاحة أهل الشر والفسق ، وتسيير شؤون المسلمين إلى الخير وليس العكس ، حيث ينزوي المسلمون ويبتعدون مُفسحين المجال لغيرهم ، تاركين شؤون المسلمين بيد من لا يَمتلكون القدرة والأهلية ، فإن هذا من أعظم الفساد والشر .

نعم لا يجوز للمسلم إذا كان في ولاية ما أو منصب ما أن يكون مُنفذاً للشر عاملاً به ؛ بل لا بدّ وأن تكون له شخصيته وعمله ، ولا بدَّ وأن يكون ائتماره بأمر الله أولاً ، وأن يكون عمله في طاعة الله وليس في معصيته .

---

(١٢) يشير إلى ما أخرجه أبو داود في سننه ، برقم: (٢٩٣٣) ، وأحمد في مسنده [٤/ ١٣٣] ، من حديث المقدام بن معدي كرب مرفوعاً بلفظ: (أفلحت يا قديم إن مت ولم تكن أميراً ولا كاتباً ولاعريفاً) وهو حديث ضعيف ، فيه صالح بن يحي بن المقدام ، ضعفه ابن حجر [التقريب: ٢٩١٠] ، وانظر: الضعيفة برقم: [١١٣٣] ، (ج٣ ، ص٢٦٨) .

والخلاصة: أنه يجوز للمسلم أن يَعمل ولو عند كافر ما دام عمله مُباحاً ، وهو مِن أعمال الخير ، فكيف إذا كان عمله تقوية لشأن المسلمين ورفعاً لمنزلتهم ، وإبعاداً لأهل الشر والفساد عن حصون المسلمين ، والتحكم في أعراضهم وأموالهم ؟.

يقول الإمام مُحَمَّد الغزالي المعاصر رحمه الله: "وجميع الولايات الإسلامية إنما مَقصودها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، سواء في ذلك ولاية الحرب الكبرى – مثل نيابة السلطنة – أو الصغرى مثل ولاية الشرطة وولاية الحكم – أو ولاية المال ، وهي ولاية الدواوين المالية ، وولاية الحسبة . لكن من المتولين من يكون بمنزلة الشاهد المؤتمن ، والمطلوب منه الصدق ، مثل الشهود عند الحاكم ، ومثل صاحب الديوان الذي وظيفته أن يكتب المستخرج والمصروف ، والنقيب والعريف الذي وظيفته إخبار ذي الأمر بالأحوال ، ومنهم من يكون بمنزلة الأمين المطاع والمطلوب منه العدل ، مثل الأمير والحكم والمحتسب ، وبالصدق في كل الأخبار ، والعدل في الإنشاء من الأقوال والأعمال ، تَصلح جميع الأحوال ، وهما قرينان ، كما قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥] "[١] .

وقال النبي ﷺ لما ذكر الظلمة: (فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فأولئك ليسوا مني ولست منهم ولا يردوا علي حوضي ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يُعِنهم على ظلمهم فأولئك مني وأنا منهم وسيردوا علَّي الحوض)[٢] .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنَّه قال: (إن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يُكتب عند الله صِدّيقاً . وإنَّ الكذب يهدي إلى الفجور ، وإنّ الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً)[٣] ، لهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىَ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِين﴾ [الشعراء: ٢٢١] ، وقال تعالى: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَة﴾ [العلق: ١٥-١٦] .

---

(١٣) صوت الأزهر ، مقال مُحَمَّد الغزالي ، ١٩٧٣م .

(١٤) أخرجه أحمد في مسنده ، برقم: (١٤٤٤١) .

(١٥) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ وما ينهى عن الكذب ، برقم: (٦٠٩٤) .

فلهذا يجب على كل ولي أمر أن يَستعين بأهل الصدق والعدل ، وإذا تعذر ذلك استعان بالأمثل فالأمثل ، وإن كان فيه كذب وظلم ، فإن الله يُؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، وبأقوام لا خلاق لهم ، والواجب إنما هو فعل المقدور ، وقد قال النبي ﷺ: (من استعمل رجلاً من عصابة وفي تلك العصابة من هو أرضى لله منه ؛ فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين)[١] .

فالواجب إنّما هو الأرضى من الموجود ، والغالب أنه لا يوجد كامل ، فيفعل خير الخيرين ويدفع شر الشرين ، ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: "أشكو إليك جلد الفاجر وعجز التقي" .

وقد كان النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم يفرحون بانتصار الروم والنصارى على المجوس وكلاهما كافر ؛ لأنّ أحد الصنفين أقرب إلى الإسلام ، وأنزل الله في ذلك سورة الروم ، لَمَّا اقتتلت الروم وفارس والقصة مشهورة ، وكلك يوسف الصديق عليه السلام كان نائباً لفرعون مصر ، وهو وقومه مشركون وفعل من العدل والخير ما قدر عليه ، ودعاهم إلى الإيمان بحسب الإمكان[٢] .

والشاهد فيما سقناه أن المسلم عليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بحسب استطاعته ، وتولية الولايات التي يَستطيع من خلالها المسلم أن يقوم بهذا الأمر ، وقد كان يوسف الصديق عليه السلام نائباً لفرعون مصر ، وهو وقومه مشركون ، وفعل يوسف من الخير ما قدر عليه ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر بحسب استطاعته ، ولا شك أن هناك ولايات كثيرة يستطيع المسلم من خلالها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإن كان في ظلال حكم جائر أو كافر ، كوزارة التربية والتعليم ، والأوقاف والدعوة والشؤون ، وغير ذلك . اللهمَّ إلا إذا كان المسلم في ولاية ما سبباً لأمره بالمنكر ونهيه عن المعروف وصدّه عن سبيل الله ، فإنّه حينئذ لا يجوز له البقاء ويحرم عليه العمل .

٩- منزلة العمل السلمي ، والدعوة والتربية في الإسلام:

وأمّا القول بأنّ الدعوة السلمية ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يغني فتيلاً في الإسلام ، فهو قول خاطئ جداً ، بعيد عن الصواب ، فقد جعل الرسول ﷺ أعلى درجات الجهاد قول كلمة حق عند سلطان جائر ، حيث يقول ﷺ: (إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان

---

(١٦) أخرجه الحاكم في مستدركه ، برقم: (٧٠٢٣) .

(١٧) انظر "الحسبة" لابن تيمية ، ص ٦-٧ .

جائر)[1] ، فكيف تكون كلمة الحق عند سلطان جائر هي أفضل الجهاد ؟ ويقول قائل: إنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يُغني فتيلاً[2] ؟ بل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أصل الدين الأصيل ؛ بل هو الذي من أجله جعل الله تبارك وتعالى المسلمين خير أمة أخرجت للناس ، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ، فكيف يقال: إنّ الدعوة السليمة لا تجدي ، ولا شك أنّ الذين قالوا هذا القول لم يَعرفوا الغايات التي من أجلها شرع الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهي:

الغاية الأولى: أداء الأمانة التي حمَّلها الله لأهل العلم ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَه﴾ [آل عمران: ١٨٧] ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُون﴾ [البقرة: ١٥٩] .

الغاية الثانية: هي هداية من كتب الله هدايته ، والدعوة هي الطريق إلى ذلك .

الغاية الثالثة: هي إقامة الحُجَّة لله حتى ينقطع عذر الكافرين يوم القيامة أمام ربّهم .

الغاية الرابعة: إقامة المجتمع المسلم وتربية أفراده على الإسلام .

الغاية الخامسة: هي الذَّبُّ عن دين الله ، ودفع الشبهات التي تعترض الناس وتحول بينهم وبينه ، وكلُّ هذه أهداف عظيمة لا تتأتى إلا بالدعوة والجهاد السلمي والتعليم والرد على الشبهات ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وأما القتال فمع أنّه في نفسه من خير أعمال الإسلام وأفضلها ، إلا أنّه شرع دفاعاً عن الدين ، وتحطيماً للسدود التي يَضعها الظالمون في وجه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكسراً لشوكة الكافرين ، وهو مع أهميته ومنزلته فإنّه لا يجوز أنْ نُلغي به جهاد الكلمة وبيان الحق ؛ بل يجب أن يكون هذا في مكانه وهذا في مكانه من هذه الشريعة المطهّرة ؛ وأمّا أن نُلغي هذا ولا نُوجه الشباب إلا للحرب فقط ، ونجعل تعليمهم وتربيتهم في غرف مظلمة ، ولا يتعلمون إلا أساليب

---

(١٨) أخرجه الترمذي في سننه ، باب ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر ، برقم: (٢١٧٤) .

(١٩) نهاية الفصول المنتقاة من كتاب فصول عن السياسة الشرعية للشيخ عبد الرحمن عبد الخالق .

القتل والاغتيال والتدمير ، ولا يَسمع الناس منهم كلمة حق ، ثم نَخرج بهم على الناس يقتلون ويخربون ويفسدون دون أن يعلم الناس مَنْ هؤلاء ؟ وماذا يريدون ؟ وإلى أيّ شيء يَدعُون ؟ فإنّ هذا من أكبر الباطل وأعظم الشر .

١٠- حكم غير المسلمين في أرض الإسلام:

وأما القول بأنّ جميع النصارى والملل الأخرى ؛ بل وجميع الطوائف عدا أهل السنة منهم ، لا عهد لهم أو أمان ويجب قتلهم وقتالهم ؛ فإنّ هذا أيضاً من أعظم الشر والفساد .

وذلك لأن من النصارى وبعض الطوائف الموجودة في ديار المسلمين مَنْ ولاؤه ومحبته لأهل وطنه من المسلمين ، وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نَشهد بالحق لهم ، وقال عن النصارى في وقت نزول الوحي على النبي مُحَمَّد ﷺ: ﴿لَيسُوا سَوَاءً مِن أَهلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَة﴾ [آل عمران: ١١٤] ، ولا شك أنّ إعلان الحرب هكذا من الجماعات الإسلامية على كل الطوائف غير الإسلامية وغير السّنية ، إنّما هو عمل أحمق جاهل لا يقره دين ولا عقل ؛ لأنّ غايته أن يحرّض الحكومات القائمة على أهل التدين الصحيح ، ويمكِّن لأعداء الإسلام من ديار الإسلام أكثر من تمكّنهم الآن ، وإنّما البصيرة أن يُدْعَى إلى الإسلام الدعوة الصحيحة ، وأنْ يُحاول قدر الإمكان أن توضع الأمور في نصابها ، فلا يَتسلم أمورَ المسلمين أعداؤهم ، ولا يكون في جيوشهم وشرطتهم مَن ولاؤه لغير هذه الأمة ، ومن قلبه مع أعدائها ، ومن يتسلط عليها بدافع من كفره أو طائفتيه ، والواجب على الشباب المسلم أنْ يُقَدِّر كل هذه الأمور ، وأنْ يعرف كيف يضع الأمور في مواضعها الصحيحة .

ولا شك أن الإسلام من خلال شريعته المطهرة لم يُطارد غير المسلمين لكفرهم ، بل حاربهم لعداوتهم وحربهم ، ولما تخلوا عن العداوة والأذى فإنَّ غير المسلمين عاشوا في بلاد الإسلام مُعززين مكرمين التكريم اللائق بهم ، وهذه المسألة هي من أخطر ما تواجه الدعوة الإسلامية في الوقت الحاضر ، وإن لم يعالجها الشباب المسلم بما تُمليه المصالح الشرعية بعيداً عن الهوى والجهل والتعصب ، فإنَّ الريح ستعصف ببناء الإسلام ، وستكون هذه التصرفات العوجاء من قبل هؤلاء الشباب هي أعظم فتنة وبلاء على أمة الإسلام .

١١– مَنْ الذي يصح له الاجتهاد والاستنباط ؟

وأما القول بأنّ كل أحد قادر على فهم الكتاب والسّنة والاستنباط منهما ، وحل مشاكل الأمة ، وخاصة هذه المشاكل العويصة التي تحتاج إلى أرضية فكرية وسعة اطلاع هائل ، ومعرفة بأحوال العالم اليوم ، وسياسات الدول والحكومات ، خاصة بعد هذا التشعب والتداخل ، واهتمام كل دولة بما يَحدث في الأخرى نظراً لأن العالم قد أصبح كالقرية الواحدة ، وأصبحت حياة كل دولة ترتبط بصورة أو بأخرى بما في الدول الأخرى ، فبترول المسلمين مثلاً يَعيش أكثر من شطر العالم عليه ، وما يَحدث في بلادنا يَهُمُّ بالضرورة كل مَن ترتبط حياته بهذه المادة الحيوية ، وهكذا .

وفي خلال هذا التشابك يُصبح معرفة ما يجب على المسلمين عمله ليس أمراً هيناً ؛ بل يحتاج إلى فقه عظيم ودراسات كثيرة لا تتأتى للمبتدئين ، ولا للمنعزلين عما يَدور في العالم .

هذا وشروط الاجتهاد التي دَوَّنها فقهاؤنا كثيرة منها: الإحاطة أو شبهها بالكتاب والسّنة ، ومعرفة فقه الفقهاء ، وأصول الفقه ، وقواعد اللغة ، وأن يكون ذا عقل راشد وفهم سليم ، وتقوى لله عز وجل ، وبُعدٍ عن الهوى ، ومعرفة بالمصالح والمفاسد ، ومعرفة بأحوال الناس ، فكيف يقال بعد ذلك: إنّ كل أحد يَستطيع الاجتهاد وتقرير ما يُصلح هذه الأمة ؟ للأسف إنّ معظم ما كتبه أهل الفقه الجديد في الاجتهاد كانت مِن كتابات أناس لم يتعدوا الثلاثين من أعمارهم ؛ بل كان كَثير مِنهم دُونَ ذَلك بكثير ؛ بل وكثير من هؤلاء لم يَتتلمذوا تتلمذاً صحيحاً على علماء أو فقهاء ؛ بل إنَّ كثيراً منهم لم يَكد يَعدو وجوده في إطار الإسلام الصحيح سَنَة أو سنتين ، وكان ذلك بعيداً كل البعد عن مشاكل المسلمين وأحوالهم ؛ بل بعيدٌ بنفسه كذلك عن أخلاقهم وصفاتهم ، فهل يُعقل أن يَحرم الله علماء الأمة جميعاً الفهم الصحيح لمعاني الجهاد ويُمكن بذلك أفراداً من الشباب هذا شأنهم ومبلغهم من العلم ؟!

ومرة ثانية نقول: إن للاجتهاد أصوله وضوابطه ، وإنَّ أعظم الاجتهاد ما يَكون مِنه في شؤون المسلمين السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فهذه أمور مُتجددة مُتغيرة ويحتاج المفتس والمجتهد فيها أنْ يكون مُلِمَّاً بِمشكلاتها ، وهذا عكس قضايا العبادات وشؤون القربات ، فإنّها ثابتة لا تتغير .

لا شك أنَّ الوصول إلى معرفة قضية واحدة أو عشر قضايا لا يَجعل من الشباب مُجتهداً ، وإنّما ذلك يَحتاج إلى زمن طويل وعلم غزير بَيَّنَّا بَعضه آنفاً ، ولسنا ممن يقول: إنَّه لا يُوجد الآن من يجتهد ؛ بل لا يَخلو وقت للإسلام إلا مِن قائم لله بحجة، كما قال ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك)[1] .

ولا شك أيضاً أنّ الله سبحانه وتعالى قد كلفنا حدود استطاعتنا ، ونحن لا نُكَلَّف أنْ نعمل إلا بما نظن وفق اجتهادنا أنه الحق ، ومن الاجتهاد سؤال أهل العلم ، والشورى والنظر ، وعدم الاستبداد بالرأي ، ولو أنّ كل شاب مُتحمس يفعل ذلك ويرجع إلى أهل العلم والرأي من المسلمين قَبل أن يُقدم على عمل ما من أعمال الجهاد والدعوة ؛ لصلحت أحوالنا ولوفقنا الله في أعمالنا ، كما قال تعالى: ﴿وأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُم﴾ [الشورى: ٣٨] ، ولكن للأسف يَخرج عليك كل يوم من لا فقه لهم ، ثم هم مستبدون برأيهم ظانون أنهم قد بَلغوا الغاية علماً وفهماً وجهاداً ، والحال أنهم غير ذلك تماماً .

شبهات وردود في فقه الجهاد المعاصر

أولاً – الخَطأ في تنزيل أحاديث الفِتن والملاحم على الواقع:

من أخطاء مَن يَكتب في مسائل الجهاد: تنزيلُ أحاديث النُّبوءات التي أخبر فيها النبيُّ ﷺ عمَّا سيكون في آخِر الزَّمان من فِتنٍ وملاحِمَ على الواقع المعاصر ، بل أحياناً على فَصيلٍ جِهاديٍّ بعينه ، بلا علمٍ ولا بَيِّنَةٍ ولا بَصيرة ، وبهذا يُغَرِّر بعضُ الشباب ، وأكتفي بذِكر حديثين فقط ، لطالما كُرِّرا في الأدبيَّات المتعلِّقة بالجهاد ، مِمَّا يُطرح في السنوات الأخيرة:

الحديث الأوَّل: (إذا أقبلت الرَّايات السُّود من المشرِق ، والرَّايات الصُّفر من المغرِب ، حتى يلتقوا في سُرَّة الشَّام – يعني دمشق – فهنالك البَلاء ، هنالك البلاء) .

والحديث الثاني: حديث ابن حوالة: (سيصير الأمرُ إلى أن تكون جنودٌ مجنَّدة: جندٌ بالشَّام ، وجندٌ باليمن ، وجُندٌ بالعراق ، فقال ابنُ حوالة: خِر لي يا رسولَ الله إنْ أدركتُ ذلك ، فقال:

(٢٠) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب قوله ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم) ، برقم: (١٩٢٠) .

عليك بالشَّام ؛ فإنَّها خِيرةُ الله من أرضه ، يَجتبي إليها خِيرتَه من عباده ، فأمَّا إنْ أبيتم ، فعليكم بيمنكم ، واسقوا من غُدرِكم ؛ فإنَّ الله توكَّل لي بالشَّام وأهله) .

وقبل الردِّ على الفَهم الخاطئ للحديثين، أودُّ التنبيه على خُطورة تنزيل هذا النَّوع من الأحاديث على واقعٍ بعينه ، وأنَّ من أهمِّ الضوابط في ذلك أن يَكون الحديثُ صحيحاً ، وأن يكون هذا التنزيلُ على الواقع مُتيقَّناً ، أو يَغلِب على الظنِّ صوابُه ، وقال به الراسخون في العِلم ، وألَّا يكون أمراً ظَنيّاً مُتوَهَّماً ، ولا أنْ يُفسِّره كُلُّ مَن شاء بظنِّه وهواه تَفسيراً بعيداً عن دَلالته .

أمَّا حديث الرايات السُّود فهو حديثٌ ضعيف ، أخرجه نُعيم بن حمَّاد في كتاب "الفتن" (٢٧٢/١) ، وقد تفرَّد به ، والتحقيق: أنَّ ما تفرَّد به في كتابه هذا لا تقوم به حُجَّة ؛ قال مسلمة بن قاسم كما في (تهذيب التهذيب) (٤٢٦/١٠): "له أحاديثُ مُنكَرة في الملاحم انفرَد بها" ، وقال الذهبيُّ في (السير) (٢٧/٩): "لا يجوز لأحدٍ أن يحتجَّ به ، وقد صنَّف كتاب الفتن فأتى فيه بعجائبَ ومناكير" .

وعليه فلا يصحُّ الاعتمادُ على هذا الحديث ، ولا اعتقادُ ما جاء فيه ، فضلاً عن تنزيله على واقعٍ معيَّن ؛ فإنَّ دليلَه لم يثبت أصلاً حتى يُبنَى عليه أيُّ اعتقاد ، أو أيَّةُ تصوُّراتٍ أو أحكام .

وأمَّا حديث ابن حَوالة فهو حديث صحيح ، ولا شكَّ أنَّ الشَّام بحدودها المعروفة في كُتُب الأقاليم والبلدان ، وليس سوريا فقط كما قد يتبادَر إلى الذهن ، فهو بلدٌ مبارَك وردتْ في فضله أحاديثُ كثيرة ، منها هذا الحديث ، وفيه أنَّ الله توكَّل بالشام ، وأنَّها خِيرةُ الله من أرضه ، لكن تنزيل هذا الحديث على واقعنا المعاصِر فيه نظر ؛ وذلك لأنَّ في الحديث أنَّه سيكون جُندٌ بالشام وجندٌ باليمن وجندٌ بالعراق ؛ فأين جندُ اليمن والعِراق الآن ؟! إلَّا إنْ كانوا يَعنون فصيلاً بعينه ، له وجود في هذه الدُّول الثَّلاث ، فهذا تحكُّم لا دليل عليه . ولفظ الحديث عند أحمد: (سيصير الأمرُ إلى أنْ تكونوا جنوداً مُجنَّدة) ، يعني: الأمَّة بمجموعها ، أو أعداداً كَثيرة لا يَصحُّ أن تُنسب إلى نِسبة غير أنَّها: أمَّة الإسلام .

ثانياً – هل قادةُ الجهاد يَحُلُّون مَحلَّ الإمام في استنفار المسلمين للجهاد ؟

من الشُّبهات التي تُثار في أوساط الشَّباب قولُ بعضهم: إنَّ قادة الكتائب الجهاديَّة تَحُلُّ محلَّ الإمام في استنفار المسلمين للجهاد .

لكن أيُّ قادة يَعنُون ؟ هل هم قادةُ الجهاد في أفغانستان ؟ أم الصومال ؟ أم سوريا ؟ وهل يَصحُّ التفريق بينهم ؟ ولو أردنا تحديدَ بلد بعينه كسوريا مثلاً ، فقادَةُ مَن مِنَ الكتائب الجهاديَّة هناك التي تَحلُّ محلَّ الإمام ؟ وهل يَلزم إجماعُهم ، أم يَكفي قولُ بعضهم ؟ ومَن قال ذلك من العلماء ؟ كلُّ هذه الأسئلة لن تَجِدَ لها جواباً عندهم !.

ولو أجمع قادَةُ الجهاد كما يَزعمون في سوريا عن بَكرة أبيهم على عَدَم حاجتهم للرِّجال إلا فصيلاً واحدًا ، لأوجبه قادتُهم ، ولعدُّوا أنفسَهم هم الذين يَحلُّون مَحلَّ الإمام ! وهذا من الفهم السقيم لمعنى الإمام .

ثالثاً – الاغترار بالأسماء المُوهِمة:

المسمَّيات مَبَانٍ لها معانٍ ، وقد تكون سبباً في الغلوِّ ، وينخدع بها بعضُ ضِعاف العقول ، فالجماعة التي تُسمِّي نفسها "**الجماعة الأم**" يَنظُر أتباعُها إلى غيرها نَظرةَ استصغار ، وأنهم تبع لها ، ومَن سَمَّى نفْسَه "**أنصار السنة**" عَدَّ غَيرَه أنصار الشيطان ، ومن تُسَمِّي نفسها "**جماعة المسلمين**" يَظن أفرادُها أنه يَلزم الجميع اتباعها واتباع أميرهم ، لحديث النبي ﷺ لحذيفة رضي الله عنه: (تلزم **جماعة المسلمين** وإمامهم)[1] ، ومن تُسمِّي نفسها بـ "**الدولة**" يُصَدِّق بعض أتباعها أنَّها دولة وليست فَصيلاً ، ثم يُرَتِّبون على ذلك إلزام الفصائل الأخرى باتباعها ، وهذا يُؤدِّي إلى إشكالٍ آخَر ، وهو اعتقادُهم أنَّهم أصحابُ حَقٍّ يَتَمَيَّزون به عن غيرهم ، وغيرهم من الجماعات التكفيرية ليس معهم مِثلُ هذا الحقِّ ، ولا يَسمعون لمن يَنصح لهم ، ونتيجة ذلك: قَسوةٌ في التعامل مع بعضهم البعض ، وظُلْمٌ وتجهيلٌ وتضليلٌ ، وربَّما وصل إلى التَّكفير أو القتل والاقتتال ، وهذا ما يحدث في معظم البلاد العربية ، فلا يَصحُّ اختيار مُسمّى يَترتَّب عليه لوازمُ باطلةٌ ، أو تفريق وتحزيب ، يُوالَى ويُعادَى عليه .

والخلاصة: لو تأملنا في أنواع الإجرام الذي يُفعل باسم الدين ، لم نجد أحداً من فاعليه يَستند إلى مذهب أبي حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد رضي الله عنهم ، بل نَرَاه يَستند إلى فَهمه السقيم للكتاب والسنة الذي وَصل إليه عن طريق القفز على هذه المذاهب والتحلل منها ، فتبين لكل ذي لُبٍّ

(٢١) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة ، برقم: (٦٦٧٣) .

أن هذه المذاهب هي بمثابة النواجذ التي لا يُعض على الكتاب والسنة إلا بها ، فهي التي ورثت علم السلف وفهمهم ومنهجهم .

وربما كان وصف النبي ﷺ للخوارج الذين ضلّوا السبيل بأنهم أحداث أسنان يَقرؤون القرآن فلا يجاوز تراقيهم ، إشارة إلى عدم امتلاكهم لتلك النواجذ ، فلم يَنتفعوا بالكتاب والسنة لا فقهاً ولا عصمة ، والأولى أن نَحقن دماء المسلمين المدنيين الأبرياء ، وأن نُوَطِّدَ دَعائم دين الأمة الصحيح ونطرد الأوهام والهواجس التي أذاقت الأمة الويلات ، وأخيراً فلا يصح إلا الصحيح ، ولا يبقى في الواد إلا أحجاره .

وختاماً: فإننا ننصح هؤلاء الشباب أن يتقوا الله في أمتهم ، وأن يخافوا الله سبحانه ، وأن لا يُقدموا على أمر ما حتى يشاوروا أهل العلم والرأي من المسلمين ، ففي هذا الخير كل الخير لهم ، وفي هذا التعجيل بنصر الإسلام وعزه .

الخطاب الإسلامي والتجديد

أطوار وتحولات

المحتوى

مقدمة البحث ...

بين يدي البحث ...

الخطاب الديني – النوع والتوجه ...

أطوار وتحولات تجديد الخطاب الإسلامي ...

ماذا يعني تجديد الخطاب الإسلامي ...

لماذا لم يتجدد الخطاب الإسلامي ...

مقدمة البحث

تحتل قضية الخطاب الديني أهمية كُبرى في العصر الحاضر نظراً لما يَرتبط بهذا الخطاب من التباس ، وبما اكتنفه مِن غموض أخرجه أحياناً عن جادة الصواب من قبل فَريق استغل قضية التجديد كوسيلة للعبث بأصول الإسلام وتغيير ثوابته ، وممن جَعلوا من أصول الإسلام مجالاً لتجربة المناهج الفلسفية واللغوية الحديثة ، بزعم تقديم تفسير عَصري أو تأويل حديث أو قِراءة عَصرية ، وغيرها من العناوين التي وفدت للبيئة الإسلامية عَبر العقود الأخيرة بفعل التأثيرات الوافدة ، وفي مقابل هذا الفريق وجد فريق آخر كان يرى أن أي محاولة لتجديد الخطاب الديني تُعد نوعاً مِن المروق من الدين ، يَجب مُقاومتها والتصدي لها ، وأن مَن يَدعو للتجديد هم غالباً مِن أهل الرِّقَّة في الدِّين والمتساهلين في الأصول .

بين يدي البحث

إن الناظر إلى حال الأمة الإسلامية اليوم يجد أنها تعيش في حالة انتكاسة في كافة ميادين الحياة المختلفة ، هذه الأزمة أو الانتكاسة أفقدتها الكثير من منهجيتها وصوابها ، حيث انحصر شهودها الحضاري ، وعجزت عن التقويم والمراجعة ومعرفة أسباب القصور ، وتوقفت عن أداء رسالتها في الشهادة على الناس والقيادة لهم ، وأصبح موقعها – للأسف الشديد – خارج السباق التاريخي ، والواقع المشهود ، والمستقبل المأمول .

ولا شك أن وُصول الأمة إلى ما وصلت إليه مِن تخلف في شتى الميادين جعلها فريسة لما يُعرف بالغزو الفكري والثقافي .

هذه التحديات التي تُواجه الأمة الإسلامية تَحتاج منا أن نساهم بكل ما نستطيع لعودتها إلى ريادتها مرة أخرى ، ومن ضمن هذه الجهود تَجديد الخطاب الديني ، ومفتاح تجديد الخطاب الديني الإسلامي هو وعي الإسلام وفهمه من ينابيعه الصافية بحيث يُفهم فهماً سليماً خَالِصاً مِن الشوائب ، بعيداً عن تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ، فنحن في حاجة ماسة إلى رجال يُحسنون عَرض الفِكر الإسلامي ويَصوغونه صياغة جيدة ، تُنقي الفكر من الخرافة ، والعقيدة من الشرك ، والعبادة من البدع والأهواء ، والأخلاق من التحلل والانهيار . رجال يَتَبنون كل تجديد مشروع يَجمع بين القديم النافع والجديد الصالح ، ويَدعو إلى الانفتاح على العالم دون

الذَّوبان فيه ، مَنهجهم الثبات على الأهداف ، والمرونة في الوسائل ، والتجديد في فَهم الأصول ، والتيسير في الفروع .

وأمتنا الإسلامية اليوم أحوج ما تكون إلى مَن يُجدد لها إيمانها ، ويُحَدد معالم شخصيتها ، ويعمل جاهداً لإيجاد جيل مُسلم يَقوم في عالم اليوم بما قام به الجيل الأول في صدر الإسلام ، والفكر الإسلامي هو الفِكر الوحيد الذي له القُدرة الخلاقة على الإحياء والتجديد ، فهو فِكر قَادر على أن يُجدِّد نفسه داخلياً ، وأن يُجدد الواقع مِن حَوله خارجياً ، لأنه فِكر يُجاري السنن الإلهية في الكون ، وهذا الفِكر يَتناسب طَرداً مع قوة الأمة الإسلامية وسيادتها ، ففي حالة انتصار الأمة وسيطرتها يكون الفكر الإسلامي أصيلاً ، لا يَقبل الزيف أو الجمود ، كما لا يَقبل الذوبان في غيره ، أما في حالة ضعف الأمة وهزيمتها يُصاب الفكر الإسلامي بالعقم والجمود تارة ، وبالتبعية والذوبان في غيره تارة أخرى .

ولا بد أن يتصف المجدد ببعض الصفات منها: العلم والاجتهاد ، وأن يَكون قُدوة صالحة ، عدلاً مَرضي السيرة ، ولا يَكون مُبتدعاً في دين الله ، وله تأثير واضح في الناس ، وأن يَكون ذا خِبرة بحال زمانه .

ومن أهم الأسباب التي تُظهر حاجتنا لتجديد الخطاب الديني الإسلامي:

١- التطور المستمر في الحياة .

٢- تلبية حاجات الإنسان .

٣- حل المشكلات وإيجاد البدائل .

٤- الضعف العام لأمة الإسلام .

٥- مواجهة خطر العولمة .

وهذا التجديد المطلوب لا بد له من ضَوابط حَاكمة منها:

الضابط الأول: مراعاة الاختصاص .

الضابط الثاني: الموضوعية والتجرد من الأهواء المذمومة .

الضابط الثالث: الاعتصام بالأصول والثوابت الإسلامية .

الضابط الرابع: الاعتراف بمحدودية العقل البشري وعدم إحلاله محل الوحي .

الضابط الخامس: أن يكون القصد من التجديد إصلاح الفكر الديني لدى الأمة .

الضابط السادس: الالتزام بأساليب اللغة العربية وقواعدها في تفسير النصوص الدينية وتأويلها .

الضابط السابع: الحذر من الحكم على أمر ما اعتماداً على نص واحد ، وإغفال بقية النصوص الدينية التي وردت فيه .

وللوصول بالخطاب الديني الإسلامي للمستوى الذي يَتواكب مع مُقتضيات العصر ، لا بد من اتخاذ بعض الإجراءات المهمة منها:

١- تَجديد مَناهج الدراسات الإسلامية بما يَكفل تكوين عقلية مُستنيرة ومُعتدلة ، تُميز بين الثابت والمتغير ، والكليات والجزئيات ، والأصول والفروع ، وتراعي الأولويات ، فتجعل أكبر همها الاشتغال بقضايا الأمة المصيرية ، حتى تنهض الأمة من كبوتها ، وتخطو إلى الأمام على هدى وبصيرة .

٢- تَدرِيسُ مَادة الثقافة الإسلامية في مَراحل التعليم العام ، والتي تَعني بإبراز جَوانب الوسطية الإسلامية القائمة على الخير والرحمة والعدل والمساواة ، وتطبيقاتها في التشريع الإسلامي .

٣- على المؤسسات والجهات المسؤولة في العالم الإسلامي تَقدير الدور الديني في حياة الأمم والشعوب ، فلا يتصدى للخطاب الإسلامي ولا يتحدث باسم الإسلام غير المؤهلين ، وعدم استبعاد أصحاب الفكر الإسلامي المستنير .

٤- إنشاء قناة فضائية لا تَنتمي لاتجاه مُعين أو دولة بِعينها ، مُتعددة اللغات ، تكون مُهمتها: نَشر المبادئ الإسلامية الصحيحة ، والتأكيد على سماحة الإسلام ورحمته ، والتركيز على الأولويات في الإسلام ، وغض الطرف عن الاختلاف في المسائل الفرعية والانتصارات المذهبية .

٥- حماية صورة الإسلام من عمليات التشويه المتعمد الذي يَقوم بِها الإعلام الغربي ، وذلك بأسلوب عصري بَعِيدٍ عن الانفعالات والانتصارات والمشاجرات مع الآخر ، مع بيان ما للثقافة الإسلامية مِن فَضل على الثقافة الغربية .

الخطاب الديني – النوع والتوجُّه

إن المتأمل في واقع الخطاب الديني الإسلامي يُدرك أنه قد تنوع إلى ثلاثة خطابات دِينية بَارزة على الساحة الإسلامية:

١– الخطاب الوسطي:

الذي يَجمع بين براهين العقل وأدلة الحُسن في دعوته ، أو "خطاب الوسطية الإسلامية" ، الوسطية في قضايا الاعتقاد ، والوسطية التي تجمع بين مطالب الإنسان المادية والروحية ، والوسطية في قضايا الأخلاق بما فيها من عدل ورحمة وإحسان ، ومنع للظلم والجور والاستعباد . والوسطية في أمور العبادات مِن يسر وسهولة ، وكونها لا حَرج فيها ، وكونها ذَات مَراتب ودرجات . والوسطية في قضايا الزواج والعلاقات الأسرية ، فلا رهبانية ولا تعدد غير محدود ، ولا إباحية متحررة من كل ضابط ، وإنما تُحصن بالزواج مع تحمل المسؤولية والنفقة ، وتعدد محدود ومشروط ، وإباحة للطلاق حماية للأسرة من الشقاق والتنافر . والوسطية في النظام المالي الاقتصادي ، من بين المذاهب الاقتصادية الوضعية . والوسطية في نظام الحكم والإدارة .

ويمثل هذا الخطاب في الفكر الحديث والمعاصر مَدرسة الإحياء والتجديد الإسلامي ، وفي مؤسسات العالم الإسلامي: الأزهر الشريف والجامعات الإسلامية السورية التي احتضنت وتحتضن كل تراث الأمة ، دون تعصب لمذهب أو فرقة ، والتي تستلهم من التراث – كل تراث السلف والخلف جميعاً – ما هو صالح للإجابة على علامات استفهام الواقع المعيش .

وهذا الخطاب الوسطي يتميز – في "نظرية المعرفة" – باعتماد كل من الوحي – كتاب الله المسطور – والكون وعالم الشهادة – كتاب الله المنظور – ، اعتماد هذين المصدرين والكتابين مصدراً للعلم والمعرفة ، والقراءة لهما وفيهما معاً . والاعتماد – في سبيل المعرفة وآلياتها وطرائقها – على كل من: العقل والنقل والتجربة والوجدان ، لتصبح الثقافة الإسلامية والخطاب الإسلامي مزيجاً مِن ثَمرات هذه المصادر والآليات والروافد جميعاً .

ففي هذا الخطاب يُرقق القلب والوجدان الحسابات المجردة للعقول كي يُنقذها من الجفاف ، وتضبط الحسابات العقلية ، وتوقظ خطرات القلوب وإلهاماتها كي لا تتحول إلى شطحات ، ويُنقِذُ النور القلبي والنظر العقلي النصَّ والنقلَّ الديني من الحرفية والجمود ، ويُسهم كل ذلك في

خَلق فَلسفةٍ إيمانية لِتطبيقاتِ حقائق وقوانين علوم "التجربة والحواس" العلوم الطبيعية والمادية ، لتكون هي الأخرى علوماً مُؤمنة ، يُصبح علماؤها هم الأكثر خشية لله سبحانه وتعالى – خالق المادة التي فيها يبحثون ، والعقل والحواس التي بها يَكتشفون الأسرار ، والتي أودعها الله سبحانه في مادة هذه العلوم – فيصبح العلم المادي في هذا الخطاب الوسطي سبيلاً لتعميق الإيمان الديني والعقلانية المؤمنة ، وليس – كما حدث في الغرب ، الذي وقف في مصادر المعرفة عند الواقع المادي وحده ، وفي سبيل المعرفة عند العقل والتجربة وحدها – سبيلاً لإحلال العلم محل الدين ، وجعل الدين "طبيعياً" لا إلهيّاً ، حتى صاح بَعض فَلاسفة الحداثة الغربية تِلك الصيحة المنكرة: "لقد مات الله" عليهم لعنة الله .

٢– الخطاب النَّصِّيّ الحرفي:

هذا الخطاب يَقف بالنص عند ظاهره دون إعمال للعقل في المقاصد الشرعية لهذه النصوص ، وأصحاب هذا الخطاب يَغلب عليهم الاهتمام الجاد بالشكليات والمظاهر دون تَوجيه العناية بالأمور الجوهرية في الدين ، وأغلب ما يَكون اهتمامهم – على سبيل المثال – اهتمامهم الزائد بالطهارة الحسية ، والنجاسات المادية ، وأحكام اللباس والزينة إطالة وتقصيراً ، واللحوم المحرمة ، وأحكام الشعور ، وما يُقص منها وما يُعفي ، وما يُنتف وما لا ينتف ، وكشكليات الاقتداء بالرسول ﷺ في طريقة أكله وشربه ومشيه ولباسه مع البعد عن هديه وشرعه فيما هو أهم من ذلك .

وهذا الخطاب كثيراً مَا يَتهاون في أمور أساسية في الدين ، سواء أكانت من الواجبات أم المحرمات ، تاركاً الحديث عَنها خَلف الظهر ، كأمور الوحدة بين المسلمين وجمع الشمل بينهم ، بل إن أصحاب هذا الخطاب كثيراً ما يَعملون على إحياء التعصب المذهبي بين التيارات الفكرية الإسلامية ، وتدبير المكايد ضدهم ، وذلك نتيجة الفهم السطحي والحرفي للنص الديني .

ومن مظاهر تهاون هذا الخطاب في أمور أساسية في الدين:

أولاً: جفاف العاطفة لدى التعامل مع الفئات الأخرى من المسلمين ، واستخدام المراكز الإدارية للمصالح الشخصية أو الحزبية ، إلى غير ذلك من أمور كثيرة هي مِن الدين بمثابة الأسس

والقواعد ، وذلك لأن الخطاب السلفي أو النصي – كما سُمي – يُؤمن بشيئين كانا سبباً في رفضه التجديد الديني:

الأول: رُؤيته للتاريخ الإنساني – كما تَصفه العقيدة السلفية ، اعتماداً على أفهامها النصية في السنة النبوية – مُتقدماً نحو الأسوأ ، فالزمان يَمضي بالفتن كقطع الليل المظلم ، ولا يَأتي يومٌ إلا والذي بعده شر منه ، وبالرغم مِن أن هذا التصور للعالم يبدو في الرؤية السلفية نصياً إلا أنه في الواقع تأويلي ، فبالإمكان تَقديم فَهمٍ آخر يَقوم على تصور مُغاير كما نَشهده في خِطابات الإصلاح والتجديد .

والثاني: التعامل مع الأزمنة على أنها ثابتة لم تتغير في عمومها ، فالتطورات الحاصلة في التاريخ الإنساني مُنذ عصر النهضة الأول – بل منذ عصر النبوة – وحتى الآن لا تَعدو مُجرد حُصول "تقدم مادي" للغرب قَام على أساس استثمار انتاجنا العلمي "المغتصب" ، وهكذا لَيس هُناك دَاعٍ لإعادة التفكير في فَهم للدين ، فالدين في مَعناه النَّقي والصحيح مَوجود هُناك ، حيث "السلف الصالح" ، ولهذا نَشهد تَعبير "العودة إلى الإسلام" دُون أن يراود السلفي تَفكير إشكالي في مؤدى هذا التعبير ، حيث يَجعل الإسلام خَلف الزمان دوماً وليس معه أو أمامه ، فهو يُردد بلا كلل: "لا يَصلح هذه الأمة إلا بما صَلح به أولها" ، قاصداً مِن هذا النص ليس الدين نفسه ، بل "فَهم الدِّين على طريقة السلف" دُون زيادة أو نقصان .

٣- الخطاب الصوفي:

هو الخطاب الذي يُرَكِّزُ على الجانب الأخلاقي والوجداني ، وإصلاح القلوب ومجاهدة النفس ، مُعتمداً في ذلك على الكتاب والسنة ومُقيداً بهما ، خالياً مِن الانحرافات الفكرية والسلوكية ، والبدع والخرافات التي تتنافى مع مبادئ هذا الدين ، فهو يتنافى مع السلبيات التي عَكَّرَت صَفو التصوف ، ويَدَعُ كل الشوائب الدَّخيلة عليه . إلا أن هذا الخطاب – كشأن بَعض الخطابات الدينية – له مَآخذ تُؤخذ عليه ، كما أنه له فَوائد تُذكر له .

فمما يُؤخذ عليه: أنه لا يَكفي وَحده لعرض جوانب الإسلام كلها ، إذ إنه يُرَكِّزُ تَركيزاً أكثر وأكثر على الخُلُقِ الإسلامي والعبادات الدينية دُون غَيرها من الجوانب الأخرى لخطاب الدين .

ومن فوائده التي تذكر له:

١-أنه يَجمع كثيراً مِن أقوال الصالحين وحكم الزهاد والعُبَّاد وأهل التقوى والبصيرة .
٢-أنَّ فيه لَفتات روحية مشرقة في فَهم الآيات والأحاديث والتعليق عليها لا توجد في غير هذا الخطاب .
٣-أنه حِين عني الفقهاء بأحكام الظاهر المحسوس ، وعني المتكلمون بالجانب العقلي الجاف ، عَنوا هم - أهل التصوف - بأحكام الباطن ، ودراسة آفات النفوس ومداخل الشيطان إليها ، وكيفية وقايتها وعلاجها .
٤-أنَّ في أقوال أهل التصوف حَرارة وحيوية يَلمسها المدعو ، ولعل ذلك نتيجة المجاهدة النفسية والرياضة الروحية التي يُعانونها ، وليست النائحة كالثكلى .
وجمهور هذا الخطاب وَرُوَّادُهُ غَير قَليل ، بحيث لا يُمكن تَجاهلهم ، بل قد يَزيد هذا الخطاب في بعض الأقطار الإسلامية ، حيث يَكون هو أكثر أنواع الخطاب الدينية ذيوعاً وانتشاراً .
نقول: ولكن مَن يَجعل مِن هذا الخطاب وَحده "الإسلام" يَجعل مِن واقع المسلمين أنواعاً كَثيرة للإسلام ، بل إسلاميات عديدة بِعَدد تنوع خطاباتهم ، ولكن هذا الخطاب جُزءٌ في مَجموعٍ يُمثل دِين الله الواحد .

أطوار وتحولات تجديد الخطاب الإسلامي

لقد مَرَّ الخطاب الإسلامي بأطوار من التَّحَوُّلِ في علاقته بمفهوم التجديد ، وتكشف هذه الأطوار عن المفارقات المعرفية ، والوضعيات التي كان عليها الخطاب الإسلامي ، ما بين بدايات القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين ، كما تَكشف تلك الأطوار أيضاً عن ملامح التطور الثقافي في بنية وتكوينات الخطاب الإسلامي ، وهذه الأطوار هي:

الطور الأول:

حين كان الخطاب الإسلامي يَتعامل بمنطق الرفض والشك لمفهوم التجديد ، ولا يتقبل الاقتران بين الخطاب الإسلامي والتجديد ، والكلمة التي كانت تُفَسَّر بخلفيات التآمر والانفلات والتخريب لفكر المسلمين وعقيدتهم وآدابهم .
وحسب هذا التصور فإن الغربيين هم الذين اخترعوا مفهوم التجديد ، وهم أول من تحدثوا عنه بعد انحلال الخلافة العثمانية ، وحاولوا إقناع المسلمين والنخب الفكرية منهم بالذات بهذا المفهوم

ليكون إطاراً يُحَدِّد اتجاهات الفهم والنظر للإسلام والفكر الإسلامي ، بقصد أن يَكون الإسلام عَقبة في تقبل النموذج الثقافي والقيمي الغربي .

وأبرز الكتابات الغربية التي يُستشهد بها في هذا الشأن ، هما كتابان:

الأول: كتب: "الإسلام والتجديد في مصر" للكاتب "شارلز آدمز" من الجامعة الأمريكية في القاهرة ، والصادر عام ١٩٣٣م . وكتاب "الاتجاهات الحديثة في الإسلام" للمستشرق البريطاني "هاملتون جيب" عضو المجمع العلمي العربي في القاهرة ، والصادر في الأربعينيات من القرن العشرين .

ولعلّ أكثر كتاب يُعبر عن هذا الطور في علاقة الخطاب الإسلام بمفهوم التجديد ، هُوَ كِتاب "الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي" للدكتور "مُحَمَّد البهي" ، الصادر عام ١٩٥٧م ، الذي تَحدث فيه عن التجديد في الفكر الإسلامي ، وخصص له فَصلاً مُوسعاً في كتابه الذي زادت عدد صفحاته على ١٧٠ صفحة ، ويَقصد بهذا المنحى الاتجاه الفكري الذي يَتَمَاهَى ويتطابق مع نظم التفكير الغربي ، وحسب قوله: "التجديد في رقعة الشرق الأدنى – مُنذ بداية القرن العشرين – هو محاولة أخذ الطابع الغربي ، والأسلوب الغربي في تفكير الغربيين ، سواء في تَعبيرهم عن الدين ، أو في تحديدهم لمفاهيمه ، ومفاهيم الحياة التي يعيشونها ، أو في تقديرهم للثقافات الشرقية الدينية والإنسانية"[١] .

وبعد أن تتبع الدكتور "البهي" مسارات هذا الاتجاه خلال ما يزيد على نصف قرن ، منذ بداية القرن العشرين إلى أواخر الخمسينات ، ختم كلامه مع نهاية هذا الفصل بقوله: "والآن نرى أن التجديد في الفكر الإسلامي في الوقت الحاضر يعيش في التفكير الغربي الذي خلقه القرن التاسع عشر ، وينقل منه ما لا يفيد التوجيه في الشرق الإسلامي ، ينقل منه آراء المستشرقين الصليبيين فيما يصور الإسلام على أنه رسالة بشرية لمصلح إنساني أو قائد ناجح يرتبط اعتبارها بوقت حياة هذا المصلح ، أو ينقل منه آراء بعض المدارس اليسارية والإلحادية ضد الدين عامة"[٢] .

---

(١) كتاب "الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي" للدكتور مُحَمَّد البهي ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، ١٩٩١م ، ص ١٥٧ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٢٥ .

والنماذج التي تحدث عنها الدكتور "البهي" وصنفها على هذا الاتجاه ، محاولة الدكتور "طه حسين" في كتابه "في الشعر الجاهلي" الصادر عام ١٩٢٦م ، وكتابه "مستقبل الثقافة في مصر" الصادر عام ١٩٣٨م ، ومحاولة الشيخ عبد الرزاق في كتابه "الإسلام وأصول الحكم" الصادر عام ١٩٢٥م ، ومحاولة الدكتور "زكي نجيب محمود" في كتابه "خرافة الميتافيزيقيا" الصادر عام ١٩٦٣م ، ومحاولة الدكتور "مصطفى محمود" في كتابه "الله والإنسان" الصادر عام ١٩٥٥م ، وأخيراً محاولة الدكتور "خالد مُحَمَّد خالد" في كتابه "من هنا نبدأ" .

ويتناغم هذا الطرح مع ما يراه الدكتور طارق البشري بعد عدة عقود من الزمن على ذلك الكلام ، حيث يرى بأن المحاولات الفكرية التي رفعت شعار التجديد تَعمدت إقصاء الفكر الإسلامي ، والجدير بالانتباه كما يقول بأن "إقصاء الفكر الإسلامي من قبل النزعة الغربية بدأ بلفظ التجديد ، ومن هنا إذاً كان التجديد يُقصد به إقصاء الفكر الإسلامي"[١] .

ومع أن الخطاب الإسلامي المعاصر قد تجاوز الكثير من تلك الالتباسات والهواجس والرواسب التي أحاطت بمفهوم التجديد في ذلك الطور ، إلا أنه ما زالت هنالك بُعض البقايا ، وعند الخطاب الإسلامي السلفي تحديداً ، كما عبر عن ذلك "جمال سلطان" في كتابه "تجديد الفكر الإسلامي" بقوله: "مصطلح التجديد في الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر قد واكب مَرحلة فكرية ومعرفية تجعلنا مَدعوين إلى إعادة النظر فيه ، أو تنويع الرؤيا له على ضوء تلك المرحلة وخلفياتها ، فقد شاع في مرحلةٍ بَدأت فيها المنهجية العلمانية في أوائل هذه المرحلة الحديثَ عن مفكري الإسلام الذين يقتربون بنسقهم الفكري من القيم الغربية والفكر الغربي والمنهجية العلمانية الغربية ، وأصبح مصطلح التجديد يُثير القلق والريبة والتوجس في نفوس المسلمين"[٢] .

ومشكلة الخطاب الإسلامي في هذا الطور أنه كان متأثراً بصدمتين ، صدمة انهيار الخلافة الإسلامية في العقد الثالث من القرن العشرين ، وصدمة تخلي الدولة العربية الحديثة في مرحلة ما بعد الاستعمار عن الهوية الإسلامية والمرجعية الإسلامية ، لذلك لم يكن وارداً في تلك الوضعيات

---

(٣) انظر كتاب "الفكر الإسلامي المعاصر والتحديات" منير شفيق ، بيروت دار الناشر ، ١٩٩١م ، ص ٦٨ .

(٤) كتاب "تجديد الفكر الإسلامي" جمال سلطان ، الرياض ، دار الوطن ، ١٤١٢هـ ، ص ٦١ .

الحديث عن التجديد في داخل الخطاب الإسلامي ، ولم يكن مقبولاً أيضاً عند طرحه من خارج الخطاب الإسلامي .

الطور الثاني:

في هذا الطور تغيرت صورة الخطاب الإسلامي بعض الشيء ، وأخذ يتعامل بمنطق الحذر والاقتراب المحدود لمفهوم التجديد ، وكان الهاجس الأساسي في هذا الطور هو محاولة ضبط مفهوم التجديد ، وتحديد طبيعة مجاله ، وأن مجاله يتحدد في نطاق الفكر الإسلامي وليس في الدين ، وإنجاز هذه الخطوة وهذا القدر من التطور هو الذي مَهَّدَ لتقبل مفهوم التجديد في الفكر الإسلامي ، وشكل البدايات الأولية لانخراط الفكر الإسلامي المعاصر في عملية التجديد ، ومِن بَعدها تَلاحقت التراكمات المعرفية في هذا المجال .

ولعل المحاولات المبكرة في هذا الشأن – والتي تؤرخ لهذا الطور في تحوله وتحديد صورته – هي محاولة الدكتور "حسن الترابي" الذي نشر محاضرة عام ١٩٧٣م بعنوان "الفكر الإسلامي ... هل يتجدد ؟" وقد اشتهرت هذه المحاضرة بعض الشيء في وقتها ، وفيها حاول الدكتور الترابي أن يَلفت النظر إلى أمرين أساسيين يُشكلان بِداية تحول في حركية الفكر الإسلامي المعاصر ، وهذين الأمرين هما:

أولاً: التحول من الحديث عن الغزو الفكري إلى الحديث عن الضعف الذاتي في الفكر الإسلامي ، والالتفات إلى علله الداخلية ، وفي هذا الشأن يقول الدكتور "الترابي": "قد يحلو لنا أن نتحدث عن الغزو الفكري لنفلت من التبعية بعد أن نلقيها على الآخرين ، والأولى بنا أن ننظر في تقصيرنا ، ونتأمل هذه الظاهرة التي عم بها البلاء"[١] .

ثانياً : تحديد مجال التجديد ، وأن مجاله هو الفكر الإسلامي ولا يشمل الدين ، فحين يتساءل الدكتور "الترابي" عن الفكر الإسلامي هل يتجدد ؟ يُجيب بقوله: "أليس الدين هَدياً أزلياً خَالداً لا مَكان فيه للتجديد ؟ بل الذي يتجدد ويتقادم ويبلى إنما هو الفكر الإسلامي ، والفكر الإسلامي هو تَفَاعُلٌ بَين عقل المسلمين وأحكام الدِّين الأزلية الخالدة"[٢] .

---

(٥) كتاب "الفكر الإسلامي ... هل يتجدد ؟" حسن الترابي ، تونس ، مكتبة الجديد ، ص٢٣.

(٦) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٣ .

وقد تابع الدكتور "الترابي" هذا الاهتمام ، ونشر حوله العديد من الكتابات في أزمنة متلاحقة ، وكان ينطلق من خلفية التخلص من الفكر التقليدي القديم الذي عَبرت عنه الجماعات الدينية والصوفية ، وتَجاوز فكر الإخوان المسلمين المصريين بعد أن قَطَعَ صِلَتَهُ عَنهم .

ومع هذا القدر من التطور في العلاقة مع مفهوم التجديد إلا أن وجهة الخطاب الإسلامي العامة ظلت حذرة ، وبقيت بعض الهواجس ، ولهذا لم يَحصل أي تقدم مُهم وملحوظ على مستوى التراكم المعرفي في هذا الشأن ، والكتابات التي ظَهرت كانت قَليلة ومُبعثرة ، ويغلب عليها طابع الحذر وهاجس الدفاع عن الذات .

وفي تلك الفترة نشر الدكتور "أحمد كمال أبو المجد" مقالاً حول "التجديد في الإسلام" بمجلة العربي الكويتية عام ١٩٧٧م ، شرح فيه واقع الحال فيه آنذاك بقوله: "لا يَكاد صوتٌ يَرتفع اليوم منادياً بالتجديد في الفكر الإسلامي ، شَاكياً من الجمود والانغلاق ، مُناقشاً في ذلك أَقوال العُلماء من السلف أو من المعاصرين ، أو داعياً إلى مُراعاة ظروف الزمان والمكان ، حتى تتناوشه مِن كل جانب صيحات المحذرين والمنذرين ، يُذكرون بالمزالق والمخاوف والمحاذير ، ويُؤكدون أن الدعوة إلى التجديد مَدخل لإسقاط الالتزام بالشريعة ، وباب شَرٍّ ينفذ منه الحريصون على تمييع حقيقة الإسلام ، وإذابةِ جوهره في جوهر حضارات وثقافات مناقضة لأصوله معارضة لمبادئه"[١] .

وهذه الأصوات الداعية إلى التجديد هي التي أدركت أن واقعاً جديداً بَدأ بالتشكل بعد نكسة ١٩٦٧ م ، وأن أمام الخطاب الإسلامي فُرصة التقدم والنهوض المهمة التي كانت بحاجة إلى تحريك مفهوم التجديد الإسلامي .

الطور الثالث:

في هذا الطور وَجد الخطاب الإسلامي نَفسه مَدفوعاً بقوة نحو مفهوم التجديد ، ولم يَعد لِتلك الهواجس والإشكاليات السابقة مِن أثر ، وتحول التعامل معه من مَنطق الحذر إلى التعامل مَعه بمنطق الاندفاع ، وذلك بعدما شهد الواقعُ الإسلامي صحوة ويقظة غيرت من رؤية الخطاب الإسلامي لذاته ، وتشكلت لديه رؤية إلى الواقع مُغايرة للرؤيا التي كان عليها في السابق ، ولم يَعد

(٧) كتاب "حوار لا مواجهة" أحمد كمال أبو المجد ، القاهرة ، دار الشروق ، ١٩٨٨م ، ص ٤٣ .

محكوماً بذهنية الخوف على الهوية ، ومن الغزو الفكري والاختراق القيمي ، أو أنه مَوقف الدفاع عن الذات .

كما وَجد الخطاب الإسلامي نفسه أيضاً – ولأول مرة ومنذ زمن طويل – أمام فرصة لأن يُجرب ويَختبر ما لديه من أفكار وتطورات وأطروحات ، ويكون قريباً من الواقع ومكوناته وتعقيداته ، الوضع الذي جَعله يتعرض وباستمرار لمساءلة الآخرين المختلفين معه فكرياً وسياسياً ، وإلى نقضهم وحتى إحراجاتهم ، وهذه المساءلات والنقد والإحراجات كانت تَدور في إطار : هل يَمتلك الخطاب الإسلامي برنامجاً ؟ وما هو تفاصيل ومكونات هذا البرنامج ؟ بمعنى لا يَكفي الادعاء بأن الإسلام هو الحل ، وإنما لا بد أن يستند هذا الحل على برنامج واضح ومحدد .

هذه الأرضيات والتغيرات والمساءلات ساهمت في بَلورة بَواعث الخطاب الإسلامي نحو مفهوم التجديد ، ولهذا ظهرت في هذا الطور أوسع الكتابات والاشتغالات الإسلامية حول مفهوم التجديد ، وبالذات في عقد التسعينيات ، حيث سَجل الخطاب الإسلامي تراكماً كبيراً حول هذا المفهوم ، وعُقدت حوله العديد من الندوات والمؤتمرات الفكرية والإسلامية في المغرب والكويت ومصر ومالطا وغيرها ، كما خَصَّصَت الكثير من الدوريات الفكرية مَلفَّات مُوسَّعة حوله أيضاً ، مثل مجلّة "الاجتهاد" في لبنان ١٩٩٠م ، ومجلّة "قضايا إسلامية" في إيران ١٩٩٦م ، وغيرها ، وفي عام ١٩٩٧م صدرت دورية فكرية حملت عنوان التجديد ، وهي المجلة التي صدرت في ماليزيا عن الجامعة الإسلامية العالمية ، يُضاف إلى ذلك أنّ هذا المفهوم قد استحوذ على اهتمامات الجيل الجديد من المثقّفين والمفكّرين الإسلاميين حيث صَدرت لهم حوله كتابات ومؤلفات مهمّة .

لكن ماذا بعد كل تلك الاهتمامات والتراكمات ، فهل تجدّد الخطاب الإسلامي ؟

في تلك الفترة وتحديداً في النصف الثاني من عقد التسعينات تَعرّض الخطاب الإسلامي إلى نكسة فكرية خطيرة ، مع ظهور حركة طالبان وسيطرتها على السلطة في أفغانستان ، وانبعاث تيار الأصولية مَرّة أخرى ، الذي عَبَّرَت عنه بعض الجماعات السلفية المتطرفة التي تُؤمن بالعنف والتكفير ، وتنتمي إلى فكر قديم لا يتواصل مع العصر ولا يتناغم مع المدنية ، ولا يُعَبِّر عَن الجوهر الحضاري للدين .

وبعد انبعاث هذا التيار الأصولي أدرك الخطاب الإسلامي المعاصر بأنّه بحاجة إلى أن يُمَيِّز نفسه عن ذلك التيار ، وبذل جهداً في هذا السياق ، كما ترسخّت قناعته بضرورة التجديد .

الطور الرابع:

في هذا الطور تَغيّرت – ولأول مرة – صورة العالم بتأثير من جماعة أصولية ، بعد أحداث ١١ أيلول / سبتمبر ٢٠٠١ م ، التي غَيّرت معها أيضاً صورة الخطاب الإسلامي ناظراً ومنظوراً إليه ، فقد ظهرت هذه الأصولية إلى العالم بوجه مُخِيف ومُرعب ، وأنّها قد تجاوزت في خطورتها عالم الأفكار والمفاهيم ، وتحوّلت إلى قوّة تَدميرية على مستوى عالم الأشياء وعالم الإنسان ، كما أَنَّها لم تَعد مَصدر خَطر يَتحدّد في إطار مُجتمعاتها وبِيئاتها ، وتحوّلت إلى مصدر تَهدِيدٍ وَخَطر على مستوى العالم .

لذلك أصبح الخطاب الإسلامي في دائرة نَظَرِ واهتمام العالم بِرمّته ، الجميع يتحدّث عنه ويقرأ ويكتب ويناقش عنه ، وبات الشاغل الأكبر والأساسي في مختلف وسائل الإعلام والنشر ، والاتصالات المرئية والسمعية والمقروءة .

وفي ظل هذه الأجواء وجد الخطاب الإسلامي المعاصر أنّه أمام محنة شديدة تجاه ذاته وتجاه العالم: تجاه ذاته حين وجد تَفَشِّي ظَاهرة الأصولية بالصورة المخيفة التي ظهرت عليها ، وما تُمثّله هذه الظاهرة من غُلو وتطرّف وتكفير ونزعة نحو العنف ، وكأنّ هذه الأصولية هي التي كانت تتنامى وتتقدّم في المجتمعات العربية والإسلامية ، على حساب نهج الوسطية والاعتدال والتنوير ، وهي الملامح والأبعاد التي كان يَشتغل عليها الخطاب الإسلامي المعاصر .

وتجاه العالم حين أوقعته تلك الأصولية التي نَسبت لنفسها أحداث أيلول / سبتمبر ، في مشكلة حرجة وخطيرة للغاية ، فبعد أن بذل الخطاب الإسلامي المعاصر جُهداً في سبيل تَطوير تواصله مع العالم ، وإذا به يَجد نفسه في مشكلة مع هذا العالم بِدون رَغبته واختياره ، وهو الذي كان يَدفع بأفكار حِوار الحضارات وتعارف الحضارات ، والارتقاء بمستويات التفاهم بين عالم الإسلام وعالم الغرب ، والاهتمام بتحسين صورة الإسلام في الغرب ، وتجديد المعرفة بمنظومة الأفكار المعاصرة ، كالحداثة والديمقراطية وحقوق الإنسان وغيرها ، وإذا بهذه الأفكار تَرتَدُّ إلى الوراء

وتتراجع ، لأنّ العالم لم يَعد يَرى مُشكلة غير الأصولية ، ولم يَعد يَرى المجتمعات العربية والإسلامية إلاّ مِن خلال هذه المشكلة .

لذلك فقد تغيّرت رؤية الخطاب الإسلامي بمفهوم التجديد وطريقة التعاطي معه ، وأصبحت القناعة بهذا المفهوم حقيقة فعلية وأولوية من أجل مواجهة التطرّف والغلوّ والتكفير ، والانتصار على نزعة العنف والإرهاب ، والتغلّب على هذه الأصوليّة المتحجّرة ، وترسيخ نهج الوسطية والاعتدال والتنوير .

وإذا كانت هناك بَعض المخاوف والمحاذير من وجود ضغوطات سياسية ودولية تُطالب بإصلاحات دِينية وِفق مَعايير معينة ، ومع معقولية هذه المخاوف والمحاذير ، إلاّ أنّها لا يَنبغي أن تُعَطِّلَ أو تُعرقل مهمّة التجديد .

ماذا يَعني تجديد الخطاب الإسلامي ؟

لقد تَأَثَّر مَفهوم تجديد الخطاب الإسلامي بطبيعة المحدّدات الناظرة له ، وهي المحدّدات التي كانت تَتغيّر وتتبدل بِحَسب القضايا والمشكلات التي ظَلَّت تَعترض الخطاب الإسلامي في أزمنته المتغيّرة والمتلاحقة ، فهذه المحدّدات في رؤية الدكتور "مُحَمَّد إقبال" لَيست مُجرَّد التناغم أو الملائمة مع أوضاع الحياة العصرية ، وحسب قوله: "إنّ لهذا التجديد ناحية أعظم شأناً مِن مُجرّد الملائمة مع أوضاع الحياة العصرية وأحوالها ، وإنّ العالم الإسلامي وهو مزوّد بتفكير عميق نَفَّاذ ، وتجارب جديدة يَنبغي عليه أن يقدم في شجاعة على إتمام التجديد الذي ينتظره"[1] .

وقد جاء هذا الكلام مِن "مُحَمَّد إقبال" في أواخر عشرينيات القرن العشرين ، ولَعلّه أسبق المفكّرين الإسلاميّين حديثاً عن التجديد برؤية فلسفية جديدة ، كما شرحها في كتابه الشهير "تجديد التفكير الديني في الإسلام" .

وفي أواخر الخمسينيات كانت هذه المحدّدات لها صورة أخرى في رؤية الدكتور "مُحَمَّد البهي" الذي كان مَسكُوناً بِهاجس الغزو الفكري والاختراق الثقافي والقيمي ، وقد ارتبطت هذه المحدّدات عنده بمفهوم الإصلاح الديني في مجال الإسلام ، التسمية التي يُفضّلها ويَختارها على عبارة تجديد

---

(٨) كتب "تجديد التفكير الديني في الإسلام" مُحَمَّد إقبال ، ترجمة عباس محمود ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، ١٩٦٨م ، ص ٢٠٦ .

الفكر الإسلامي ، ويعني به "محاولة ردّ الاعتبار للقيم الدينية ، ورفع ما أُثير حولها من شبهة وشكوك ، قُصد التخفيف من وزنها في نفوس المسلمين ، ونَعني به كذلك مُحاولة السير بالمبادئ الإسلامية من نقطة الركود التي وَقفت عندها في حياة المسلمين إلى حياة المسلم المعاصر ، حتى لا يَقف مُسلم اليوم مَوقف المتردّد بين أمسه وحاضره عندما يصبح في غده . والإصلاح الديني في مجال الإسلام بهذا المعنى ذُو صلة وَثيقة بالعصر الذي يتمّ فيه ، وبالفكر الذي يقوم بمحاولته ، وبظروف الحياة التي عاش فيها هذا الفكر"[١] .

وفي الستينات عبّر "أبو الأعلى المودودي" عن رؤية مُغايرة مِن حيث طبيعة محدّداتها ، لأنّه كان مَهموماً بفكرتي الحاكمية والجاهلية ، لهذا اعتبر أنّ "التجديد في حقيقته هو تَنقية الإسلام مِن كل جزء من أجزاء الجاهلية ، ثُمّ العمل على إحيائه خالصاً مَحضاً على قدر الإمكان"[٢] .

وفي السبعينيات كانت هذه المحدّدات في رؤية الدكتور "حسن الترابي" تتصل بعلل الفكر الإسلامي ، والتي حدّدها في ثلاث نقاط هي:

أولاً: أن يَتفاعل الفكر الإسلامي ويتّصل بالأصول الخالدة التي انقطع عنها شيئاً ما بتقادم العهد.

ثانياً: الانقطاع عن العلوم والمعارف العقلية .

ثالثاً: انقطاع الفكر الإسلامي عن حياة الناس ، وأصبح فكراً مجرداً[٣] .

ويتناغم مع هذه المحددات الرؤية التي طرحها الدكتور "علي شريعتي" في تلك الفترة أيضاً ، حين ناقش مفهوم الإصلاح الديني ، واعتبر أنه لا إصلاح ديني في الإسلام "بمعنى إعادة النظر في الدين ، بل إعادة النظر في رؤيتنا وفهمنا الديني ، والعودة إلى الإسلام الحقيقي . من هنا أضحى الشعار الفكري والعقائدي لسائر كتّابنا ومفكّرينا – خصوصاً في جيلنا المعاصر الذي يشتد فيه الإحساس لهذه الحاجة – هو العكوف على إصلاح فكرنا الديني ، يعني المعرفة الدقيقة والعلمية

---

(٩) كتاب "الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي" مصدر سابق ، ص ٣٢٩ .

(١٠) كتاب "موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه" أبو الأعلى المودودي ، ترجمة مُحَمَّد كاظم سباق ، بيروت ، دار الفكر ، ١٩٦٨م ، ص ٥٢ .

(١١) كتاب "الفكر الإسلامي ... هل يتجدّد ؟" مصدر سابق ، ص ٢٣ .

للإسلام ، ونحن إذا لم نكيّف رؤيتنا الدينية مع منطق العصر ، ولم نتعرّف على الإسلام الفاعل الإيجابي المسؤول ، فمن المحتمل أن نضيع الكثير من أصولنا العقائدية خلال جيلين آتيين ، وستفقد الأجيال القادمة أبسط الميل والتفاعل مع هذه الأصول ، ويضحى لها الإسلام الواقعي والإسلام الخرافي على حد سواء"[١] .

أمَّا في الثمانينيات والتسعينيات ، فقد تعدّدت وتباينت تلك المحدّدات تَضييقاً وتوسيعاً ، قبضاً وبسطاً ، تَشدُّداً واعتدالاً ، بحسب طبيعة الميول والانتماءات الفكرية والثقافية ، على طريقة ما يَظهر بين التقليديين والتجديديين ، المحافظين والإصلاحيين ، لأنّ جميع هؤلاء على اختلاف وتعدّد تلك الانتماءات الفكرية والثقافية أخذوا يتحدّثون عن التجديد في الفكر الإسلامي والخطاب الإسلامي ، والفروقات بَينهم تظهر في أنّ التقليديين أميل بطبعهم إلى التضييق والقبض والتشدد ، بخلاف الإصلاحيين الذين هُم أميل إلى التوسيع والبسط والاعتدال ، كما أن التضييق والقبض والتشدد ، هذه الحالات لا تظل على درجة واحدة من الثبات وبدون تبدل أو تغير ، ولهذا فإن هذه الحالات لها أكثر من ذوق وصورة وفهم حتى بين التقليدين أنفسهم .

وأما الحديث عن التجديد في وقتنا الراهن ، فلا شك أن تلك المحددات قد تأثرت بأحداث أيلول / سبتمبر ، وارتبط هذا التأثير تحديداً بتغير الرؤية إلى العالم ، الرؤية التي تغيرت تقريباً عند مُختلف الأمم والثقافات ، والرؤية إلى العالم هي من المقولات الفلسفية التامة ، والتغير فيها يكون له شدة وقوة على منظومات الأفكار ، وهذا من طبيعة فعالية وتأثير المقولات الفلسفية .

وهذه المحددات قد ارتبطت بقضيتين: قضية الأصولية ، وقضية الإرهاب . فالأصولية قضية فكرية ناظرة إلى الجانب الذهني ، وهي تُعبر عن نزعة الغلو والتطرف والتكفير ، والإرهاب قضية سلوكية ناظرة إلى الجانب العملي ، وهي تعبر عن نزعة العنف والقوة والصدام . وهذا يعني أن الأصولية شوهت صورة الإسلام فكرياً ، وكأن الإسلام يَدعو إلى التطرف ، ولا يتوافق مع التقدم ، وأن الإرهاب شَوَّهَ صُورة الإسلام أخلاقياً ، وكأن الإسلام يدعو إلى العنف ، ولا يتوافق مع الآخر المختلف . لذلك أصبحت صورة الإسلام في العالم تارة تقترن بالتطرف ، وتارة تقترن بالإرهاب ،

(١٢) كتاب "الأمة والإمامة" علي شريعتي ، طهران مؤسسة الكتاب الثقافية ، ص ٩ .

وهذا الذي ينبغي أن يَتغير ، وهي مَهمة التجديد في الخطاب الإسلامي المعاصر ، فالتخلص من الأصولية بحاجة إلى تجديد داخلي على مستوى الذات ، والتخلص من الإرهاب بحاجة إلى تجديد خارجي على مستوى الأخر .

هذه هي السياقات والأرضيات الفكرية والموضوعية التي تُبلور وتُحدد فيها مَفهوم تجديد الخطاب الإسلامي .

والذي نراه في النظر لهذا المفهوم بعيداً عن تلك السياقات الأرضيات ، ومحاولة فهمه بطريقة معرفية بعيداً عن المحاذير والالتباسات ، وذلك بالنظر إلى جهتين: من جهة تفكيكية يكون النظر فيها بقصد تحليل عناصر ومكونات المفهوم ، ومن جهة تركيبية يكون النظر فيها بقصد تحديد المعنى العام والكلي لهذا المفهوم .

الجهة الأولى: تفكيك عناصر المفهوم .

أولاً: "تجديد" هذه الكلمة ناظرة إلى الألية والطريقة التي بإمكانها أن تحقق فعل التجديد ، ليكون للتجديد المعنى الناجز المتحقق ، وبالتالي فإن البحث هنا هو في المنهجية ، بمعنى ما هي المنهجية التي من خلالها نصل إلى التجديد ليتحقق بالفعل ، وليكون المعنى له نسبة خارجية ؟

ثانياً: "الخطاب" هذه الكلمة ناظرة إلى طبيعة المجال الذي يتوجه إليه فعل التجديد ، وهذا المجال هو بينة النص المتصل والمتفاعل بشرائط ومكونات الزمان والمكان والحال ، أو ما يُطلق عليه جمعاً وتركيباً بمفهوم العصر .

ثالثاً: "الإسلامي" هذه الكلمة ناظرة إلى مرجعية الخطاب ، وهذه المرجعية يُقصد بها مجموع القواعد والأصول والثوابت التي يَرجع إليها ذلك الخطاب ويستند عليها ويتقوم بها ، وبالتالي فهي ناظرة إلى محددات وجوهر التجديد .

وعلى ضوء هذه المحددات نستخلص النتائج التالية:

١- التجديد: هو بحث عن الجانب المنهجي ، ما هو المهج أو المنهجية ؟. والخطاب: هو بحث عن الجانب المعرفي ، بمعنى تكوين المعرفة بهذا الخطاب المستهدف في عملية التجديد . والإسلامي: هو بحث عن الجانب المرجعي ، بمعنى تكوين المعرفة بأصول هذه المرجعية وقواعدها ومصادرها .

٢- التجديد: هو بحث عن المنهج ، والسؤال: ما هو هذا المنهج ؟ والجواب: محددات هذا المنهج أمران: الأول هو الموضوع والمقصود به الخطاب ، والثاني هو الإطار العام أو الإطار المرجعي والمقصود به الإسلامي .

٣- الخطاب: هو الجانب المتغير ، والإسلامي: هو الجانب الثابت ، ولا ينبغي أن ينفصل المتغير عن الثابت ، كما لا ينبغي أن يفتقد الثابت إلى المتغير . فالثابت يُعطي المتغير عنصر النظام الذي يحفظه من الفوضى والانفلات ، والمتغير يُعطي الثبات عنصر المرونة والحركة الذي يَحفظه من التوقف والجمود .

٤- الإسلامي: هو المحدد والضابط لما هو التجديد ولما هو الخطاب ، بمعنى أن لا يَقود التجديد إلى خطاب غير إسلامي ، أو لا يتوافق مع الإسلام ، وهذا هو المعيار الرئيسي والثابت في تحديد واختيار المنهج ، كما أن الخطاب المستهدف في عملية التجديد هو خطاب يتصل بمرجعية الإسلام ، وإذا لم يتصل بهذه المرجعية أو لا يَنتمي إليها فهو خارج عن مجال البحث .

هذا من جهة تفكيكية ، وأما من جهة تركيبية ، يُمكن القول بأن مفهوم تجديد الخطاب الإسلامي يتحدد في نسقين: النسق الفكري الذاتي ، والنسق الفكري الموضوعي .

وبحسب النسق الأول فإن مفهوم تجديد الخطاب الإسلامي يعني محاولة اكتشاف الحداثة بالمعنى الإسلامي من داخل المرجعية الإسلامية ، ولسنا بحاجة إلى الفكر الغربي في بناء هذه الحداثة بنسقها الإسلامي ، وهذا المعنى له ثلاثة عناصر:

١- تغليب النزعة المعاصرة على النزعة التراثية القديمة ، للتخلص من إشكالية الاحتباس في الماضي ، وهذا يرتبط بعلاقة الخطاب مع ذاته .

٢- اكتساب القدرة على مواكبة العصر وشروطه ومقتضياته للتخلص من إشكالية الانغلاق ، وهذا يرتبط بعلاقة الخطاب مع عصره .

٣- اكتشاف مفهوم التقدم والتأكيد عليه للتخلص من إشكالية الجمود ، وهذا يرتبط بعلاقة الخطاب مع ذاته وعصره معاً .

وأما بحسب النسق الموضوعي فإن مَفهوم تجديد الخطاب الإسلامي يَعني مُحاولة تحديد صورة لهذا الخطاب تكون مفارقة ومغايرة عن حالتين ، عن حالة الجمود والتحجر في الحالة الأولى ، وهي حالة داخلية مُتوارثة من عصور الهزيمة والسيطرة الغربية ، فالجمود والتحجر لا يحمي هوية ، ولا يحفظ تراثاً ولا يصنع تجديداً بالتأكيد ، وعن حالة التبعية والاستيلاب في الحالة الثانية فهي لا تخلق حداثة ، ولا تبني تقدماً ، ولا تصنع تجديداً بالتأكيد .

وتجديد الخطاب الإسلامي هو تعبير عن نقد ومفارقة لتلك الحالتين ، والعمل على بلورة نموذج ثالث يتواصل مع التراث ولا ينغلق عليه ، ويتواصل مع العصر ولا ينسحق به .

وهذا يعني أن التجديد هو في الرؤية الفكرية والمنطق الفكري للخطاب الإسلامي ، وليس في العبادات أو العقائد أو الأخلاق ، لأن المشكلة ليس في العقيدة ، وإنما في الفكر ، وليس في الدين وإنما في الفهم البشري المتكون حول الدين .

لماذا لم يتجدد الخطاب الإسلامي ؟

تجديد الخطاب الإسلامي يتوقف على سؤال ، لماذا لم يتجدد هذا الخطاب ، أو لم يواصل استكمال عملية التجديد ؟

والبحث في هذا السؤال يحتاج لمعرفة السياق الموضوعي والزمني الذي اتصل به الخطاب الإسلامي وأثر على اتجاهاته وتكويناته ، وإلى هذه الحالات التي وصل إليها ، إلى جانب عوامل وأسباب أخرى قد تتصل أو تنفصل عن ذلك السياق .

فما هو هذا السياق الموضوعي ، وما هي الأسباب العرفية والمنهجية التي أعاقت أو أخرت أو جمدت عملية التجديد ؟

أولاً: القطيعة بين الفكر الإسلامي في مرحلتيه الحديثة والمعاصرة ، الحديثة التي تُنسب إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ، وانبعاث حركة الإصلاح الإسلامي بزعامة "جمال الدين الأفغاني" و "مُحَمَّد عبده" . والمعاصرة التي تُنسب إلى النصف الثاني من القرن العشرين ، وتمثلت في مجموع الكتابات الإسلامية الصادرة والمؤثرة في تلك الفترة ، والذي كشفت عن هذه القطيعة المفارقات الكبيرة التي تظهر بين تلك المرحلتين ، فقد أظهرت المقارنات بينهما بأن الفكر الإسلامي في مرحلته الحديثة كان على درجة من التميز والتقدم يفوق ما كان عليه في

مرحلته المعاصرة ، ولعل الدكتور رضوان السيد هو أكثر من حاول أن يَلفت النظر لوجود هذه القطيعة والتأكيد عليها ، والتي تتحدد – حسب رأيه – في أن الإشكالية الرئيسية للفكر الإسلامي الحديث كانت إشكالية النهوض والتقدم ، بينما الفكر الإسلامي المعاصر إشكاليته الأساسية هي الهوية ومقتضياتها وأساليب حفظها ، وبتأثير تلك القطيعة أصبح الغالب على الحقبة المعاصرة في التفكير الإسلامي – كما يضيف الدكتور رضوان السيد – هي في النكوصية ، ويتمثل ذلك في اعتبار أن "مُحَمَّد عبده" كان متقدماً على "رشيد رضا" ورضا كان متقدماً على "حسن البنا" والبنا كان متقدماً على "سيد قطب" وقطب كان متقدماً على "عمر عبد الرحمن"[١٣].

وكثيرة هي الكتابات التي بالغت في وصف تلك المرحلة الحديثة بأوصاف التجديد والتحديث والإصلاح والتقدم ، كتأكيد على تميز تلك المرحلة وتقدمها ، والقطيعة التي حصلت جعلت من الفكر الإسلامي المعاصر لا يَبني تصوراته وأفكاره بالاستفادة من التراكمات الفكرية والثقافية القادمة من تلك المرحلة الحديثة لكي يواصل أو ينجز عملية التجديد .

ثانياً: إن ظهور الدولة العربية الحديثة ساهم في تراجع وركود الفكر الإسلامي ، وذلك حين قطعت هذه الدولة صِلتها الثقافية والمعنوية والمرجعية بالإسلام والنظم الإسلامية ، وارتبطت في المقابل بمرجعية الفكر الأوروبي الذي أخذت منه ، ثم يرتبط بتكوين الدولة وتشكيل مؤسساتها وصياغة أنظمتها وقوانينها وتشريعاتها ، لأنها أرادت أن تكون على صورة الدولة الأوروبية الحديثة ، ولكي تكتسب وصف الدولة العصرية أو المغايرة لصورة دولة الولايات السلطانية التابعة للخلافة العثمانية .

ثالثاً: ما أصاب المؤسسة الدينية من أزمة في علاقتها بالعصر والمعارك الحديثة ، حيث انغلقت على نفسها وانشغلت بالعلوم القديمة والتقليدية ، وقطعت جسور التواصل مع مجتمعاتها ، وذلك على خلفية حماية كيانها من الغزو الفكري والاختراق القيمي ، والتحصن من أي تأثر بالقارة الأوروبية .

---

(١٣) انظر كتاب "سياسات الإسلام المعاصر" رضوان السيد ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٩٧م ، ص ٧ .

وهكذا كان حال هذه المؤسسة مع بداية القرن العشرين ، وتكرس هذا الوضع بصورة أشد بعد قيام الدولة العربية الحديثة ، فهذا الوضع الذي كانت عليه المؤسسة الدينية لم يَكن يَدفع باتجاه تجديد الخطاب الإسلامي ، بل كان يُعارض ويُصادم مَن يَتَبنى مثل هذه النزعات التجديدية والإصلاحية .

رابعاً: انقطاع المثقفين والنخب الفكرية عن الثقافة الإسلامية ، ففي الوقت الذي اندفع فيه هؤلاء نحو الأفكار والمعارف الحديثة وتمكنوا منها معرفياً ومنهجياً ، والتي كانت ترجع في مصادرها إلى مرجعيات الفكر الأوروبي ، ويقابل هذا الاندفاع انقطاع عن الأفكار والمعارف الإسلامية ، وهذا هو منشأ الخلل والضعف ، وهذه القطيعة أو الانقطاع أثرت على طبيعة تكوين رؤية هؤلاء للثقافة الإسلامية وطرائق التعامل معها ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أن الثقافة الإسلامية كانت بأمس الحاجة إلى خبرات هؤلاء المعرفية والمنهجية ، الأمر الذي لم يحصل .